
عتاب الرسول ﷺ
في القرآن
تحليل وتوجيه

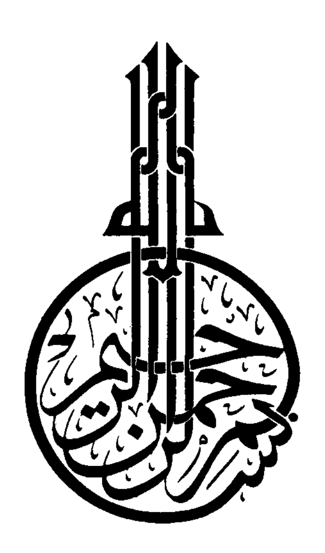
من كنوز القرآن

٩



الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق



مقـــدّمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا، وسيئات أعمالنا، مَنْ يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا هـو الكتاب التاسـع من هذه السلسـلة القرآنية (من كنـوز القرآن) خصصناها للحديث عن (عتاب الرسول ﷺ في القرآن).

لقد عرض القرآن كثيراً من مواقف الرسول ﷺ وأصحابه، ومشاهد حياته، وأحداث سيرته، الخاصة والعامة.

وقد استدرك القرآن على رسول الله ﷺ بعض مواقفه، في بعض أقوالـه وأفعاله، وعاتبه الله في بعض ما صدر عنه من ذلك، وسجَّلت آيات القرآن ذلك الاستدراك والعتاب، وستبقى تتلى حتى قيام الساعة.

وخاض بعض السابقين كثيراً في تلك المواقف، وأكثروا من الكلام عن آيات العتاب للرسول ﷺ، وقدّموا فيها روايات لم تصح، وأخباراً لم تثبت، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به، وما لا يتفق مع نبوته وعصمته، وعلوّ منزلته عند الله، وسجلوا ذلك في بعض كتب الحديث والتفسير والتاريخ.

ووقع القرّاء لتلك الكتب في إشـكالات في فهم تلك المواقف النبويـة وتحليلها وتوجيهها، وفي تفسير الآيات التي عرضتها، واستدركت على رسول الله ﷺ فيها، ونسب بعضهم إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به، بناءً على ما قرؤوه.

وكان بعض الإخوة والأخوات يتصلون بنا، ويطلبون معرفة الصحيح من تلك المواقف، والتفسير الصحيح للآيات التي تحدثت عنها، فنجيبهم بما يفتح الله علينا به.

ولذلك دعت الحاجة إلى إفراد آيات العتاب بكتاب خاص في سلسلة (من كنوز القرآن).

وهذا الكتاب مكمل للكتاب السابق (مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه) في هدفه وموضوعه ومنهجه. فقد تحدَّثنا في الكتاب السابق عن الإشكالات التي قد تُثار على بعض الأنبياء السابقين من آدم إلى عيسى، عليهم الصلاة والسلام، وفي حل تلك الإشكالات وتوجيه تلك المواقف كنا نلتزم المنهج العلمي الصحيح، المعتمد على آيات القرآن، والأحاديث المرفوعة الصحيحة للرسول ﷺ، وحرصنا فيه على استبعاد الإسرائيليات، وما لم يصح من الأخبار والروايات.

وإذا كان الكتاب السابق للحديث عن الأنبياء السابقين، فإن هذا الكتاب خاص بالرسول محمد ﷺ، لتحليل وتوجيه آيات عتابه، والاستدراك على بعض ما صدر عنه من أقوال أو أفعال أو تصرفات.

وجاء هذا الكتاب في ثلاثة عشر فصلاً:

الأول: عصمة الرسول ﷺ: أشرنا فيه إلى اختلاف العلماء في عصمة الرسول ﷺ، حيث أجاز بعضهم وقوع الرسول ﷺ في كبائر وصغائر، وارتكاب ذنوب ومعاصٍ ومخالفات، ومنع آخرون ذلك عنه، وأجازوا وقوعه في أخطاء.

ورجَّحنا فيه الرأي القائل بعصمة الرسول ﷺ من الكبائر والصغائر، ومن الذنوب والمعاصي، وعصمته أيضاً من الأخطاء، ودللنا على هذا الرأي بأمثلة من حياة الرسول ﷺ.

وهذا معناه أن الرسول ﷺ لم يخطئ في ما عاتبه الله به، ولكنه ترك ما هو أولى، فجاء عتاب الله له إرشاداً إلى ما هو أولى.

وبناءً على هذا الرأي الذي رجَّحناه في عصمة النبيّ ﷺ، جعلنا هذا الفصل تمهيداً لما بعده من الفصول، بحيث تُفهم آيات العتاب في تلك الفصول على أساس هذا التمهيد، ووفق هذا الرأي الراجح في العصمة!.

ورتَّبنا الفصول اللاحقة على أساس ترتيب سور القرآن.

الثاني: موقف الرسول ﷺ من سرقة طعمة بن أبيرق. كما عرضته آيات من سورة النساء.

الثالث: أمر الرسول ﷺ بالبقاء مع المسلمين المستضعفين. كما عرضته آيات من سورة الأنعام.

الرابع: عتاب الرسول ﷺ بشأن أسرى بدر. كما عرضته آيات من سورة الأنفال.

الخامس: إذن الرسول ﷺ للمتخلفين عن غزوة تبوك. كما عرضته آيات من سورة التوبة.

السادس: صلاة الرسول ﷺ على زعيم المنافقين، عبد الله بن أبي. كما عرضته آيات من سورة التوبة أيضاً.

السابع: ثبات الرسول ﷺ أمام مساومات الكفار. كما عرضته آيات من سورة الإسراء.

الثامن: نسيان الرسول ﷺ قول: إن شاء الله. كما عرضته آيات من سورة الكهف.

التاسع: إلقاء الشيطان في أمنية الرسول ﷺ. كما عرضته آيات من سورة الحج.

العاشر: زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، رضي الله عنها. كما عرضته آيات من سورة الأحزاب.

الحادي عشر: اعتزال الرسول ﷺ لنسائه، وتخييره لهن. كما عرضته آيات من سورة التحريم.

الثاني عشر: تحريم الرسول ﷺ على نفسه الحلال، لمرضاة أزواجه. كما عرضته آيات من سورة التحريم.

الثالث عشر: عتاب الرسول ﷺ بشأن عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه. كما عرضته آيات من سورة عبس.

هذه المواقف الإثنا عشر هي أشهر مواقف رسول الله ﷺ في القرآن، التي قد لا يحسن بعضهم فهمها وتحليلها وتوجيهها، وقد يسيء للنبي ﷺ بسببها، وقد ينسب له ما يتعارض مع عصمته، ولا يتفق مع مقامه العظيم.

ومنهجنا في تحليل وتوجيه هذه المواقف الإثني عشر، وتفسير الآيات التي تحدثت عنها معتمد على الآيات القرآنية، وما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ، وما ثبت من روايات الصحابة الذين رووا أسباب نزول تلك الآيات، وعرضوا تفاصيل تلك المواقف والأحداث.

وخرجنا من تحليل وتوجيه تلك المواقف، وتفسير آيات العتاب بالرأي الراجح في عصمة النبي ﷺ، وهو أنَّ الله عصمه من ارتكاب الكبائر والصغائر، وصانه عن الذنوب والمعاصي، وأبعد عنه وساوس الشيطان ونزغاته، ونزّهه عن الأخطاء والمخالفات.

وما عاتبه فيه الله كان على صواب فيه، ولم يكن مخطئاً، والعتاب هو توجيه وإرشاد منه لما هو أولى وأفضل، وأصوب وأصح، لأن الله يريد لرسوله ﷺ الأفضل والأصح والأكمل دائماً.

ونتقدم إلى الله وحده بهذا الكتاب، راجين منه حسن القبول، وجزيل الأجر والثواب. ونرجو من الإخوة القرّاء إرشادنا إلى ما يرونه مناسباً، ونعدهم أن نأخذ بما نراه صواباً من ذلك.

ونسأل الله أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب همومنا، وجلاء أحزاننا، وأن يرزقنا تلاوته آناء الليل وآناء النهار، وأن يعلّمنا منه ما جهلنا، ويذكّرنا منه ما نُسِّينا، وأن يجعله حُجَّة لنا يوم القيامة.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الإثنين ١٤/ ٣/ ١٤٢٣هـ
٢٧/ ٥/ ٢٠٠٢م

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

الفَصْل الأوَّل

عصمة الرسول ﷺ

الأنبياءُ والرُّسلُ هم صفوةُ اللهِ من خلقه، اصفطاهم اللهُ اصطفاءً، واختارهم اختياراً، وربَّاهم تربيةً ربانيةً خاصة، فكانوا أفضَلَ الخلق، وخيرَ الناس، وحَفظهم اللهُ بحفْظِه، ورعاهم برعايتِه وعنايته، وعَصمهم من الوقوع في المعاصي والذنوب والأخطاء، وصانَهم عن المخالفات والمنكرات والفواحش.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال الله لموسى عليه السلام: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وأخبرَنا اللهُ عن اصطفائِه لإبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وأخبرَنا أنَّه استخلصَ رسلَه واصطفاهم، فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صٓ: ٤٥ ـ ٤٧].

ولقد وَصفهم اللهُ بصفةِ «أُولي الأيدي والأبصار»، والمرادُ بالأيدي القوة، وبالأبصارِ العلمُ والفقه، أيْ منحَهم اللهُ القوةَ على العبادةِ والذِّكْرِ والدعوة والفقه في الدين.

واستخلصهم اللهُ لنفسه، وجعلَهم دليلاً على الدارِ الآخرة، وقدوةً لأتباعهم في العمل للآخرة، والزهدِ في الدنيا: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [صٓ: ٤٦].

وبذلك كانوا من البشر المصطَفَيْنَ الأخيار، الذين اصطفاهم لدينه، وكلمةُ ﴿ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ في الآية جمعُ مذكَّر سالم مجرور، مفردُه (المصطفى): وهو اسمُ

مفعولٍ من الفعلِ الماضي (اصطفى)، ولمَّا جُمِعَ حُذِفَت الألفُ المقصورةُ لالتقاءِ الساكنين، وجُعلت الفتحةُ على الفاء دليلاً عليها: المصطفى، المصطَفَون، و: المصطَفَيْن.

فإبراهيمُ عليه السلام آتاهُ اللهُ رشدَه، فنشأَ راشداً عالماً معصوماً، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

حفظ الله موسى ورعاه:

وموسى عليه السلام حفظهُ اللهُ ورعاه، وربَّاه تربيةً خاصة، وسطَ الهولِ والخطر، واعتنى به في قصرِ فرعون، فنشأَ ربانياً مستقيماً، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

ولما عادَ موسى عليه السلام من مدين، وكلَّمهُ اللهُ عند جبلِ الطور، وكلَّفه بالذهابِ إلى فرعون، ذكَّره بفضْلِه عليه، ورعايتِه له، وقالَ له: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٣٧ ـ ٤١].

اللهُ هو الذي رتَّبَ الأحداثَ التي مرَّ بها موسى عليه السلام، منذ لحظةِ ميلاده، لتحقيقِ إرادته في جعْلِه نبياً رسولاً بعد ذلك، فأوحى إلى أُمِّهِ أن تضعَهُ في التابوت، وأَمَرَ اليَمَّ أنْ يأخذَ التابوتَ إلى قصرِ فرعون، وأَلْهمَ امرأةَ فرعونَ أن تُحبّه وتتبنّاه، وأَعاده إلى أُمِّه لتُرضعَه بإذنِ فرعون، وحَفظه في فُتوَّته وشبابه، وقَدَّرَ له الذهابَ إلى مدين بعدَ قتْلِه للقبطي، وها هو الآن مكلَّفٌ من الله بالذهابِ إلى فرعون، ليدعوه إلى الله.

واللافتُ للنظرِ في هذه الآيات جملتان:

الأُولى: قولُه تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أي: قَدَّرَ اللهُ تلكَ الأحداث ليصنعَ موسى صناعةً خاصة، على عينِ اللهِ ورعايته، وليربَّى تربيةً خاصة، على حفْظِ الله وعنايته.

الثانيةُ: قولُه تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ أيْ: اصطفى اللهُ موسى عليه السلام، وربَّاه ورعاه، واعتنى به وحَفِظَه، ورتَّبَ له أحداثَ حياته، واصطنعه لنفسه، واختارَه لرسالته.

وإذا كانَ اللهُ قد اصطنعه وربَّـاه، وحَفِظَهُ ورَعاه، فقد عَصَمَهُ من الذنوبِ والمعاصي والأخطاء، وصانَه عن المخالفاتِ والمنكرات، ومَنْ عصَمَهُ اللهُ فهو المعصوم، ولا سبيلَ للشيطانِ عليه، ولا يَقْدرُ على إغوائِه.

وليس هذا خاصاً بموسى عليه السلام، وإنما هو عامٌّ يشملُ كلَّ أنبياءِ الله ورسله، المصطفَيْن الأخيار، اصطفاهم واختارهم، وربَّاهم ورعاهم، واعتنى بهم وحَفِظَهم، وعَصَمَهم من المعاصي والذنوب، والأخطاءِ والمخالفات، ولم يجعلْ للشيطانِ سبيلاً عليهم.

الراجح في عِصمة الأنبياء:

والذي نرجِّحه في (عصمة الأنبياء) أنَّ اللهَ عصمهم من الكفرِ والشكِّ، ومن ارتكابِ الذنوب والمعاصي، ومن الوقوع في الأخطاءِ والمخالفات، وصانهم من فِعْلِ الكبائرِ والصغائر، وهذا قبلَ نبوَّتِهم وبعدَها، إلى أنْ توفَّاهم الله.

وما نُسِبَ لهم في القرآن من مواقفَ وتصرفاتٍ، وأقوالٍ وأفعال، مما يوهمُ بخلافِ هذا، إنما هو إرشادهم إلى ما هو أَوْلى وأَكملُ وأفضلُ وأَصحّ، فما صَدَرَ عنهم من ذلك صوابٌ، وليس خطأً أو ذنباً، لكنَّ اللهَ يريدُ لهم الأصحَّ والأصوب، ولذلك عاتبهم وأَرشدهم إليه.

وهذا ما جرَيْنا عليه في كتابنا السابق: (مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه).

وهذا الفهمُ لعصمةِ الأنبياءِ والرسلِ السابقين ينطبقُ على رسولنا محمدٍ ﷺ، لأنَّه أكرمُ الخلقِ على الله، وأفضلُهم عند الله.

إننا نعتقدُ أنَّ اللهَ عصمَ رسولَه محمداً ﷺ من الذنوبِ والمعاصي، ومن الأخطاءِ والمنكرات، ومن الصغائر والكبائر، قبلَ النبوّةِ وبعدَها، فلم يُذْنِبْ ﷺ، ولم يَرْتكبْ صغيرةً أو كبيرة، ولم يقعْ في خطأ أو معصية.

وما فَعلَه ﷺ في بعضِ مواقِفِه، التي استدركَ اللهُ عليه فيها، وعاتبَه عليها، كان صواباً وليس خطأً، وعِتابُ اللهِ لهُ من بابِ إرشادِه إلى ما هو أَوْلى وأفضلُ، وأَصحُّ وأَكمل.

لقد حفظَهُ اللهُ ورعاهُ منذ ولادته، واصطنعه لنفسه، فنشأَ نشأةً صالحةً جادّة، وامتنَّ اللهُ عليه بقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٨].

شق صدر رسولنا محمد ﷺ:

شقَّ اللهُ صَدْرَه منذُ طفولته، واستخرجَ نصيبَ الشيطانِ منه.

روى أحمد في المسند عن عتبةَ بنِ عَبْد السُّلَمي رضي الله عنه: أنَّ رجلاً سألَ رسولَ اللهِ ﷺ، فقال: كيفَ كانَ أولُ شأنِكَ يا رسولَ الله؟.

قال ﷺ: «كانتْ حاضِنَتي من بني سعدِ بنِ بكر، فانطلقْتُ أنا وابنٌ لها في بُهْمٍ لنا، ولم نأخذْ معنا زاداً.

فقلتُ: يا أخي، اذهَبْ فأْتِنا بزادٍ من عندِ أُمِّنا.

فانطلقَ أخي، ومكثتُ عند البُهْمِ، فأقبلَ طَيْرانِ أَبيضان، كأنَّهما نَسْران، فقالَ أَحدهما لصاحبه: أَهو هو؟ قال: نعم.

فأَقبلا يَبتدراني، فأَخَذاني، فَبَطَحاني إلى القَفا، فَشقَّا بطني، ثم استَخْرَجا قلبي، فشَقَّاه، فأخرجا منه عَلَقَتَيْن سوداوين.

فقالَ أحدُهما لصاحبِه: ائتِني بماءِ ثَلْج، فغسَلا به جوفي.. ثم قال: ائْتِني بماءِ بَرَد، فغَسَلا به قلبي.. ثم قال: ائتني بالسَّكينة، فذَرَّاها في قلبي!.. ثم قالَ أحدهما لصاحبِه: خِطْهُ، فخاطه وَختَمَ عليه بخاتمِ النبوّة...»[1].

وبشقِّ صدرِه واستخراجِ حَظِّ الشيطانِ منه، يكونُ اللهُ قد هيَّأَهُ للنبوّة، وأَعدَّهُ

---

(١) مسند أحمد: ٤/ ١٨٤ ـ ١٨٥؛ وانظر: صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي، ص٥٣ـ٥٤.

لها، ولذلك عَصَمَهُ عن المعاصي والمنكرات وارتكابِ المحرمات، حتى قبلَ النبوّة.

حفظ الله رسولنا ﷺ من سماع اللهو:

روى البيهقيُّ وغيرُه عن عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما هممْتُ بقبيحٍ مما كانَ أَهلُ الجاهليةِ يَهمُّون بهِ إلاَّ مرَّتين من الدَّهر، كلتَيْهما يَعصمُني اللهُ منهما.

قلتُ ليلةً لفتى كانَ معي من قريشٍ بأَعلى مكة، في أَغنامٍ لأهلِه يرعاها: ابْصِرْ إليَّ غنمي، حتى أَسْمُرَ بمكة، كما يَسْمُرُ الفتيان! قال: نعم.

فخرجتُ فجئتُ أدنى دارٍ من دور مكة، فسمعتُ غناءً وضربَ دفوفٍ ومَزامير. فقلتُ: ما هذا؟ قالوا: فلانٌ تزوَّجَ فلانة.. فغَلَبَتْني عيني، فما أيقظَني إلاَّ حَرُّ الشمس! فرجعْتُ، فقال: ما فعلْتَ؟ فأخبرْتُه!.

ثم قلتُ له ليلةً أُخرى مثلَ ذلك، ففعل، فخرجْتُ، فسمعتُ مثلَ ذلك، فقيل لي مثلَ ما قيلَ لي، فلهوْتُ بما سمعْتُ، حتى غلبَتْني عيني، فما أيقظَني إلاَّ مَسُّ الشمس..

ثم رجعْتُ إلى صاحبي، فقال: ما فعلْتَ؟ قلْتُ: ما فعلْتُ شيئاً.

فواللهِ ما هممتُ بعدَها بسوء، مما يعملُ أَهلُ الجاهلية، حتى أَكرَمني اللهُ بنبوّته»[(١)].

ها هو رسولُ الله ﷺ في صِباه تُحَدِّثُه نفسُه أنْ يلهوَ لهواً عادياً، كما يلهو أَقرانُه من الفتيان، وكلُّهم كانوا في الجاهليةِ يَلهون، ويَسمعون الغناءَ وآلاتِ العزفِ، فيطلبُ من صاحبِه أَنْ يعتني بغنمِه التي يَرعاها، ليسمُرَ في مكة مع السامرين.

ولما اقتربَ من أَحَدِ البيوت، سمعَ آلاتِ اللهو والغناء، وضرْبَ الدفوف،

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي: ٢/ ٣٣؛ وانظر: صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي، ص٥٦ ـ ٥٧.

وصوتَ المزامير، ولما سألَ عن ذلك، أُجيب بأنَّه غناءٌ في عُرسٍ لأحدهم.

وألقى سمْعَه للغناء والعزف، ولكنَّ اللهَ لم يُرِدْ لهُ ذلك، فألقى عليه النوم، فنامَ تلك الليلة ولم يسمعْ شيئاً، وبقيَ نائماً حتى ضحى اليوم التالي. وهكذا فعلَ اللهُ به في الليلةِ التالية! فعرفَ أنَّ اللهَ أرادَ له الخير، ولم يَعُدْ لسماعِ الغناءِ واللهوِ مرةً ثانية.

وما هذا إلاَّ من عِصمةِ اللهِ له، حيثُ حالَ بينه وبين سماع الغناء، مع أنَّه لم يكنْ نبيّاً، ولم تُشرع الأحكامُ بتحريمِ الغناء، لكنَّ اللهَ لا يريدُ لَه أنْ يفعلَ أيَّ فعلٍ غيرَ لائقٍ به، حتى قبلَ نبوَّته!.

صان اللهُ رسولَنا ﷺ عن كشف العورة:

وقبل نبوَّته بسنواتٍ قامت قريشٌ ببناءِ الكعبة، وشاركَ رسولُ الله ﷺ في بنائها، وحَدَثَتْ له حادثةٌ أُخرى تدلُّ على عصمةِ اللهِ له.

روى البخاريُّ ومسلم عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما قال: «كانَ رسولُ الله ﷺ ينقلُ معهم الحجارةَ للكعبة، وعليه إزارُه. فقال له العباسُ عَمُّه: يا بنَ أخي: لو حَلَلْتَ إزارَكَ، فجعلْتَهُ على مَنْكِبك، دونَ الحجارة.

فحلَّه، فجعلَهُ على مَنْكِبه، فسقطَ مغشياً عليه، فما رُئِيَ بعد ذلك اليوم عرياناً»[1].

كان رسولُ اللهِ ﷺ يحملُ الحجارةَ على كتفِه، ولم يكن بينَ الحجرِ وبين كتفِهِ شيءٌ من الثياب، وكان الحجرُ يؤذيه ويجرحُ كتفه، فأشارَ عليه عمُّهُ العباسُ أنْ يضعَ إزارَه بين الحجرِ وبينَ كتفِه، ليَقِيَ نفسَه الأذى. وهذا معناهُ أنْ يتعرّى، ولما فعلَ ذلك سقطَ مغشياً عليه، لأنَّ عورتَه قد انكشفَتْ!.

لم يُرِد اللهُ له أن تنكشفَ عورته، لأنَّ هذا لا يليقُ به، ولأنَّه يُعِدُّهُ لأمرٍ عظيم، ولذلك ما أنْ وضعَ إزارَه فوق كتفِه حتى أُسقطَ على الأرض، فقام وغطّى عورتَه فوراً، وهذا أيضاً من عصمةِ اللهِ له.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب كراهية التعري في الصلاة وغيرها، رقم: ٣٦٤؛ وصحيح مسلم، كتاب الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة، حديث رقم: ٣٤٠؛ وانظر صحيح السيرة النبوية، ص٦٣ ـ ٦٤.

هدى شيطانه للإسلام:

لما بعث الله محمداً رسولاً ﷺ خصَّه بخاصِّيةٍ طيبة، من بابِ عصمتِه من الشيطان، لئلا يكونَ للشيطانِ سبيلٌ عليه.

روى مسلمٌ عن عبدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وقدْ وُكِّلَ بِهِ قرِينُهُ مِنَ الجِنِّ».

قالوا: وإياكَ يا رسولَ الله؟.

قال: وإيّاي، إلاَّ أنَّ اللهَ أعانني عليه فأَسْلَمَ، فلا يأْمُرُني إلاَّ بخير»[1].

أَخْبَرَ رسولُ الله ﷺ أنَّ اللهَ وكَّلَ بكلِّ إنسانٍ قريناً من الجن، هو الشيطانُ الجنيُّ الكافر، وهذا القرينُ يوسوسُ للمسلم، ويَدعوه إلى المعصية، وينهاهُ عن الطاعة، وأَمَرَ اللهُ المسلمَ بمجاهدةِ نفسه والشيطان، وعدمِ الاستجابةِ لوساوسه، واللجوءِ إلى الله.

وجعلَ اللهُ للرسول ﷺ قريناً من الجن، لكنَّه أكرمه إكراماً خاصاً، وخصَّه بمعجزة، بأنْ أَعانَه على قرينِه الجني، حيثُ أَسْلَمَ ذلك القرين، فصارَ لا يأْمره إلاّ بخير.

شيطانُ النبيِّ ﷺ لم يَعُدْ شيطاناً، فلما أسلمَ صارَ جنياً مسلماً، يدعو الرسولَ ﷺ إلى الخير، وهذا من مظاهرِ عصمتِه ﷺ.

شَقَّ اللهُ صدرَ النبيّ ﷺ منذُ طفولته واستخرجَ حظَّ الشيطان منه، وصانَه من الوقوع في الذنوبِ قبل البعثة، وجعلَ قرينَهُ الجنيَّ مسلماً، وذلك عصمةً له، وإبعاداً له عن الذنوبِ والمعاصي، بإزالةِ أسبابِها وبواعثِها.

فكيفَ يقعُ في معصيةٍ مَنْ استُخرِجَ حَظُّ الشيطانِ مِنْ قلبه؟ وكيفَ يقعُ في معصيةٍ مَنْ أَسْلَمَ شيطانُه فصارَ يدعوه إلى الخير؟.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، حديث رقم: ٢٨١٤.

لو عصى الرسول ﷺ لنشر الكفار ذلك:

عصمَ اللهُ رسولَه ﷺ حتى قبلَ النبـوَّة، كما بيَّنَّا، وصانَـهُ عن الوقـوع في المعاصي والذنوب، لأنّه يُعِدُّهُ ليكونَ نبياً رسولاً ﷺ، وسيدخلُ في مواجهةِ مع المشركين، الذين سيحاربونَه، ويُثيرون حولَه الشبهاتِ والإشاعاتِ والاتِّهامات، للقضاءِ على دعوته!.

ولو وقعَ ﷺ في ذنوبٍ ومعاصٍ، فسوفَ يَتّخذُها المشركون وسائلَ اتّهامٍ له، ونقاطاً (سوداءَ) ضدّه، حيث سيقولون: أنت الآن تزعمُ أنَّكَ نبيٌّ رسول، وأنت الذي فعلتَ في شبابك كذا وكذا من الذنوبِ والمعاصي والجرائم! وبذلك سيشوِّهون سمعتَه، ويَصدّونَ الناسَ عن الدخولِ في دينه!.

إنَّ الأعداءَ يبحثون في ماضي الدعاةِ والمصلحين، ويُفتشون عن (ملفّاتهم) باحثين عن ذنوبٍ ومعاصٍ وقعوا فيها، ليُحارِبوهم بها، ويُشوّهوا سمعتَهم أمامَ النـاسِ، ليصدُّوهم عن دعوتِهم، ولا يُبـرئ الدعاةَ والمصلحين تـوبتُهم من معاصيهم عند الأعداء، وهذه مسألةٌ معروفة!.

وإنَّ الرسولَ ﷺ ليسَ كباقي أَتْباعِه من العلماء والدعاة والمصلحين، لأنَّه إمامُهم وقدوتُهم، ولذلك لا بدَّ أنْ يكونَ (مَلَفُّهُ) نقياً صافياً مشرقاً، ليس فيه نقطةٌ سوداء، يوظِّفُها أعداؤُه ضدَّه!.

ولقد أجهدَ المشركون في مكة، والمنافقون واليهود في المدينة، والأعداءُ بعد وفاةِ رسول الله ﷺ طيلة التاريخ الإسلامي، وحتى يومِنا هذا، أَجهدَ الجميعُ أنفسَهم في التفتيشِ في سيرةِ رسولِ اللهِ ﷺ، قبلَ النبوَّةِ وبعدها، لعلَّهم يجدونَ فيه اتهاماً يوجِّهونه ضدَّه، ووقوعَه في ذنبٍ أَو معصيةٍ أَو مخالفة، وارتكابَه لكبيرةٍ أَو صغيرة! فلم يجدوا ما يريدون، لأنَّ اللهَ عصمَه وحفظَه ورعاه.

ولمَّا لم يجدوا ذلك أصدروا ضدَّه مجموعةً من الاتهامات الباطلة، التي لم يُصدقوا أنفسهم بها، فضلاً عن أنْ يُصدقَهم الآخرون، فقالوا عنه: هو شاعر، وساحر، وكاهن، وكاذب، ومفترٍ، ومتقوِّل، ومجنون!.

اتفاقٌ على عصمة الرسول ﷺ من الكفر:

اتفق العلماءُ على عصمـة الرسـول ﷺ من الوقـوع في الكفرِ باللهِ أو الشـركِ

به، قبلَ النبوَّةِ وبعدَها، وقد نشأَ رسولُ اللهِ ﷺ كارهاً للأَصنامِ والأَوثانِ التي يعبدُها قومُه من دونِ الله، متوجِّهاً إلى توحيدِ الله بفطرتِه!.

ونصَّ القرآنُ على أنه لو أشركَ الرسولُ ﷺ فإنَّ اللهَ سيحبطُ عملَه. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥ـ٦٦].

ومع أنَّ الرسولَ ﷺ لن يُشرك، ولكنَّ الآيةَ تُبيِّنُ خطورةَ الشرك وعدمَ التهاون به، والمحاسبةَ عليه، ولو صدرَ من أفضلِ الخلق، وحاشاهُ من ذلك.

اتفاقٌ على عصمتِه ﷺ في التبليغ:

اتفق العلماء أيضاً على عصمةِ الرسول ﷺ في تبليغ الدعوة، وعدمِ إخفاءِ شيء منها، وعدمِ الخطأ في ذلك، ويؤمنُ المؤمنون جميعاً أنَّ الرسولَ ﷺ بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولو افترى على الله، وتقوَّلَ عليه ما لم يوح به إليه، لأهلكه الله. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ٤٧].

إنَّنا نعتقدُ أنَّ الرسولَ ﷺ بلَّغَ القرآنَ كاملاً، كما أنزلهُ اللهُ إليه، لم يَزِدْ على ذلك حرفاً واحداً، ولم يُنقِصْ منه حرفاً واحداً، مهما كان موضوعُ الآياتِ النازلةِ عليه، حتى ولو كان فيها عتابٌ شخصيٌّ له.

روى مسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالَتْ: لو كانَ محمدٌ ﷺ كاتماً شيئاً مما أُنزلَ عليه، لكتمَ هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ ﴾[1] [الأحزاب: ٣٧].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾، حديث رقم: ١٧٧.

الراجح عصمته ﷺ من الصغائر:

اتفقَ العلماءُ أيضاً على عصمةِ الرسولِ ﷺ من ارتكابِ الكبائر، ولو فَعَلَ كبيرةً من الكبائرِ لنُقِلَ ذلك عنه، ولشَهَّرَ به الكفارُ بسببها.

واختلفَ العلماءُ في ارتكابه الصغائر، فبعضُهم جَوَّزَ عليه الوقوعَ فيها، لأنَّه بَشَر، والبَشَر عرضةٌ للوقوع فيها، وذلك لا يقدحُ في نبوّته!.

ذهبَ فريقٌ من العلماءِ إلى عصمتِه ﷺ من الصغائرِ أيضاً، أَي أنَّه لم يرتكبْ كبيرةً ولا صغيرة، ولم يَصدرْ عنه ذنبٌ أو معصية.

وهذا هو الراجح، وهو المتفقُ مع عصمته، والمتحقِّقُ في سيرتِه وحياتِه، وقد نقلَ الصحابةُ أحداثَ حياتِه، ورووا كلَّ ما صدرَ عنه من أقوالٍ وأفعال، وكانوا أُمناءَ صادِقين في ما نقلوه ورووه، ولم يَرِدْ في مروياتِهم ارتكابُه ﷺ ذنباً أو معصية، ولو فعلَ ذلك لرووه ونقلوه!.

إنَّنا نطالبُ الذين يُجيزونَ وقوعَ الرسول ﷺ في الذنوبِ والمعاصي بتقديمِ الدليلِ على ذلك، ونطلبُ منهم أَنْ يُفَتِّشوا في سيرتِه، ويَنظروا في أَقوالِه وأَفعالِه وتصرّفاتِه، ويقولوا لنا: هذه صغيرةٌ فعلَها، وهذه معصيةٌ صدَرَتْ عنه، وهذا ذنبٌ ارتكبَه، فإنْ لم يجدوا ـ وهم لن يجدوه ـ فكيفَ يقولون: يُمكنُ للرَّسولِ ﷺ ارتكابُ الصغائرِ من الذنوبِ والمعاصي، وإنَّ اللهَ لم يعصِمْه منها!!.

ولقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ حريصاً على طاعةِ الله، وكان يخافُ العذابَ الأليم العظيم إنْ عصى اللهَ، وورِدَ هذا في أكثر من آية:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٥ ـ ١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٣ ـ ١٤].

إنَّ صياغةَ هذه الآياتِ توحي أنَّ الرسولَ ﷺ لن يَعصي الله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

«إنْ»: حرفُ شَرْط، و«عصيتُ ربي»: فعلُ الشرط. وجوابُ الشرط جملة ﴿أَخَافُ... عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. والتقدير: إنْ عصيتُ ربي أخافُ عذابَ يومٍ عظيم.

وقدَّمَ جوابَ الشرطِ ﴿أَخَافُ... عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لأهميته، ليُبيّنَ خوفَ الرسولِ ﷺ من العذابِ العظيم، وهذا الخوفُ من اللهِ وعذابِه حالَ بينَه وبين معصيةِ الله.

واختيارُ حرفِ الشرط «إنْ» مقصود، لأنَّ هذا الحرفَ يدخلُ على الجملةِ الشرطيةِ إذا كانَ وقوعُها مستحيلاً أو مشكوكاً فيه، أما إذا كان وقوعُها حتماً لازماً، فإنَّ أداةَ الشرطِ فيها تكونُ: «إذا» الظرفية الشرطية!.

بعدَ تقريرِ عصمةِ الرسولِ ﷺ من الكبائر والصغائر والوقوع في الذنوب والمعاصي ننتقلُ للحديثِ عن «خطأ الرسول ﷺ»، فَهَلْ يمكنُ أنْ يُخطئ، أَم أنَّ اللهَ عصمه من ذلك؟.

الراجحُ عصمته ﷺ من الخطأ:

أجاز فريق من العلماء وقوعَه ﷺ في الخطأ، واعتبروا ذلك من لوازمِ بشريتِه، وأنّه لا يتعارضُ مع نبوّتِه وعصمتِه، وأنَّ الخطأَ ليس ذنباً ولا معصية، وأنَّ اللهَ لا يُقرُّهُ عليه، وإنما يصوِّبُه ويصحِّحُه له. واعتبروا (آيات العتاب) للنبي ﷺ مثالاً على ذلك، وأنّه أخطأَ فيما قالَه أو فعلَه، مما عاتبه عليه اللهُ في الآيات، وكان العتابُ تصحيحاً لخطئه!.

وذهبَ فريقٌ آخرُ من العلماء إلى عصمةِ الرسول ﷺ من الخطأ أيضاً، وأنّه لم يَقعْ في أيِّ خَطأ مهما كان، وما عاتبهُ اللهُ عليه في القرآنِ لم يُخطئ فيه، وإنَّ ما فعلهُ صوابٌ وصحيحٌ، ولكنَّ اللهَ في استدراكِه عليه أرشدَه إلى الأَوْلى والأَصح والأفضل والأكمل. وإنَّ تركَ الرسولِ ﷺ للأفضلِ والأَوْلى ليس خطأً، وإنما هو صوابٌ في ذاته، ولكنَّ اللهَ يريدُ له الأكملَ والأفضل.

ونحنُ مع هذا الفريق من العلماء، ونعتقدُ أنَّ الرسولَ ﷺ معصومٌ من الوقوع في الخطأ، وأنَّ اللهَ معه بالتوفيق والتسديد، وأنَّ استدراكَه عليه في بعضِ أقوالِه وأفعالِه ـ وهو قليلٌ جداً ـ لا يَعني وقوعَه في الخطأ، وإنما يعني أنَّه فَعَلَ خلافَ الأَوْلى، مع صحةِ وصوابِ فعْلِه، واللهُ يوجِّهُهُ إلى الأَوْلى.

كلام القاضي عياض حول عصمته ﷺ:

مِنْ أفضلِ من تحدَّثَ عن هذا الموضوع الإمامُ القاضي عياض، في كتابه الرائع: (الشِّفا بتعريفِ حقوق المصطفى ﷺ) حيثُ ناقشَ عصمةَ الرسلِ عليهم الصلاة والسلام مناقشةً مفصَّلة، وعرضَ مختلفَ الآراءِ في هذه المسألة، ووجَّهَ ما نُسِبَ إلى الرسلِ من مخالفاتٍ وأخطاء ومعاصٍ، وتوسَّعَ في توجيهِ ما نُسِبَ إلى الرسول ﷺ من أَخطاء.

ونوردُ خلاصةَ ما قالَه حولَ هذا الموضوع. قال: «قد اسْتبانَ لكَ أيها الناظِرُ بما قَرَّرْناهُ، ما هو الحقُّ من عصمتِه ﷺ: عن الجهلِ باللهِ، وصفاتِه، وكونِه على حالةٍ تُنافي العلمَ بشيءٍ من ذلك كلِّه جملةً، بعدَ النبوَّة عقلاً وإجماعاً، وقبلَها سَمْعاً ونَقلاً، ولا بشيءٍ مما قرَّرَه من أُمورِ الشرع، وأدَّاهُ عن ربِّهِ من الوحي قطعاً، عَقْلاً وشرعاً، وعصمتِه عن الكذبِ وخلْقِ القول، منذُ نبَّأَهُ اللهُ وأرسلَه، قصداً أو غيرَ قصد، واستحالةُ ذلك عليه شرعاً وإجماعاً، ونَظراً وبُرهاناً، وتَنزيهُه عنه قبلَ النبوَّةِ قَطْعاً، وتنزيهُه عن الكبائرِ إجماعاً، وعن الصَّغائرِ تحقيقاً، وعن استدامةِ السهوِ والغفلة، واستمرارِ الغلطِ والنسيانِ عليه فيما شَرَعَه للأُمَّة، وعصمتُه في كلِّ حالاته، من رضا وغضب، وجِدٍّ ومَزْح . . .

فيجبُ عليكَ أَنْ تتلقَّاهُ باليَمين، وتَشُدَّ عليهِ يَدَ الضَّنين، وتَقْدِرَ هذه الفصولَ حَقَّ قَدْرِها، وتَعلَمَ عظيمَ فائدتِها وخطرِها . .

فإنَّ مَنْ يَجْهَل ما يجبُ للنبيِّ ﷺ، أو يجوزُ له، أو يستحيلُ عليه، ولا يَعرفُ صورَ أحكامِه، لا يأمنُ أَنْ يعتقدَ في بعضِها خلافَ ما هي عليه، ولا يُنزِّهُه عما لا يجبُ أَنْ يُضافَ إليه، فيهلكُ من حيثُ لا يدري، ويَسقطُ في هُوَّةِ الدَّرْكِ

الأسفلِ من النار، إذْ ظَنٌّ الباطلِ به، واعتقادُ ما لا يَجوزُ عليه يُحِلُّ بصاحبِه دارَ البوار...»[1].

* * *

(1) الشفا، للقاضي عياض: ٢/٨٤٨ـ٨٤٩.

موقف الرسول ﷺ من سرقة ابن أبيرق

كان (طعمةُ بنُ أُبَيْرِق) منافقاً سارقاً، ولم يَعلمْ رسولُ اللهِ ﷺ بسرقتِه، وجاءَ قومُه يُدافعون عنه أَمامَ رسولِ الله ﷺ، ويتَّهمون غيرَه، فصدَّقَهم ﷺ، ولامَ الذين اتَّهموه بالسرقة. فأَنزلَ اللهُ آياتٍ من سورة النساء، يُعاتبُ فيها رسولَه ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١١٣].

سبب نزول الآيات:

نتعرَّفُ على مناسبةِ نزولِ هذه الآيات، وقصةِ سرقةِ ابنِ أُبيرق، لنعيشَ مع جَوِّ الحادثة، ونُحسنَ فهمَ دلالاتِها.

روى ابنُ جرير الطبري عن محمدِ بنِ إِسحاق، عن عاصمِ بنِ عمر بن قتادة، عن أَبيه، عن جدِّه قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: كان أَهْلُ بيتٍ منّا يُقالُ لهم: بنو أُبيرق: بِشْر وبُشَيْر ومُبَشِّر، وكان بُشَيْرٌ رجلاً منافقاً، وكان يقولُ

الشعرَ يَهجو به أصحابَ رسول الله ﷺ. . . وكانوا أهلَ بيتِ فاقةٍ وحاجةٍ في الجاهليةِ الإسلام.

وقد ابتاعَ عمّي رِفاعَةُ بنُ زيدٍ حِمْلاً من الدَّرْمَك [الدقيق الأبيض للخبز]، فجعله في مَشْرَبةٍ له [عِليَّةٍ في الدَّارِ لحفظِ الأمتعةِ]، وفي المَشْرَبةِ سلاحٌ له: دِرْعان وسَيْفاهما وما يصلحُهما. . .

فَعُدِيَ عليه من تحتِ الليل، فنُقبت المَشْرَبَة، وأُخِذَ الطعامُ والسلاح، فلمَّا أصبحَ أتاني عَمّي رفاعة، فقال: يا بنَ أخي: تعلمُ أنَّهُ قد عُدِيَ علينا في ليلتِنا هذه، فنُقبتْ مشربَتُنا، وذُهبَ بسلاحِنا وطعامِنا. . .

فتحسَّسْنا في الدارِ وسألْنا، فقيل لنا: قد رأَيْنا بني أُبَيْرِق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نراه إلاَّ على بعضِ طعامِكم.

وقال لَنا بنو أُبيرق ونحنُ نسأَلُ في الدار: واللهِ ما نَرى صاحبَكم إلاَّ لبيدَ بن سهم! رجلٌ منّا له صلاحٌ وإسلام. فلما سمعَ لبيدُ بذلك اخترطَ سيفَه، ثم أتى بني أُبيرق، فقال لهم: واللهِ ليخالِطنكم هذا السيفُ، أو لتبينُنَّ هذه السرقة! فقالوا له: إليكَ عنَّا أيها الرجل، فواللهِ ما أنتَ بصاحبِها!!.

فسألْنا في الدار، حتى لم نشكَّ أنَّهم أَصحابُها!!.

فقالَ لي عمي: يا بنَ أخي: لو أَتيتَ رسولَ اللهِ ﷺ فذكَرْتَ ذلك له.

فأَتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله! إنَّ أهلَ بيتٍ منّا أَهلُ جفاء، عَمدوا إلى عمّي رِفاعة فنَقَبوا مَشْرَبَة له، وأخذوا سلاحَه وطعامَه، فلْيردّوا علَيْنا سلاحَنا، فأما الطعامُ فلا حاجةَ لنا فيه. .

فقال رسولُ الله ﷺ: سأنظرُ في ذلك!!.

فلما سمعَ ذلك بنو أُبيرق أَتَوْا رجلاً منهم، يُقالُ له: (أَسيرُ بنُ عُرْوَة)، فكلَّموه في ذلك، واجتمعَ إِليه ناسٌ من أَهلِ الدار.

فأَتَوا رسولَ اللهِ ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! إنَّ قَتادةَ بنَ النعمان وعمَّهُ عَمَدوا إلى أهلِ بيتٍ منّا، أهلِ إسلامٍ وصلاحٍ [يقصدون بني أُبيرق]، يرمونَهم بالسرقةِ من غيرِ بيّنة!!.

فأَتيتُ رسـولَ الله ﷺ فكلَّمْتُه، فقال: عَمَدْتَ إلى أَهلِ بيت، ذُكِرَ منهم إسلامٌ وصلاح، تَرميهم بالسرقة على غيرِ بيِّنةٍ ولا ثَبت!!!.

فرجعْتُ، ووددْتُ لو أني خرجْتُ من بعضِ مالي، ولم أُكلِّم رسولَ الله ﷺ في ذلك!.

فأتيتُ عمّي رِفاعة، فقال: يا بن أخي ما صنعتَ؟.

فأَخبرتُه بما قال لي رسولُ الله ﷺ! فقال: اللهُ المستعان!!.

فلم نلبثْ أنْ أنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. . .

. . . فلما نزلَ القرآن، أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بالسلاح، فردَّهُ إلى رفـاعة. . وكان عمّي رِفاعةُ شيخاً قد عَسَا [كَبُرَ وضَعُف]، وكنتُ أرى إسلامَه مدخولاً، فلما أتيتُه بالسلاح قال: يا بن أخي! هو في سبيلِ الله! فعرفْتُ أنَّ إِسلامَه كان صحيحاً!!.

فلما نزلَ القرآنُ لَحِقَ بُشَيْرٌ بالمشركين، فنزلَ على (سلافَةَ بنتِ سعدِ بن سهل)، فأنزلَ الله فيه قولَه تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٥ ـ ١١٦].

فلما نـزلَ على سلافةَ رَماها حَسَّـانُ بنُ ثابت بأبياتٍ من الشعر، فأَخَذَتْ رَحْلَه، فوضَعَتْه على رأْسِها، ثم خَرجَتْ فرمَتْه بالأَبطح. . ثم قالتْ: أَهديتَ إليَّ شِعْرَ حسّان، ما كنتَ تأْتيني بخير[1]. . .

رواية أخرى لسبب نزول الآيات:

في روايةٍ أُخرى: أنَّ قتادةَ بن النعمان وعَمَّهُ رفاعةَ بنَ زيد رضي الله عنهما غَزَوا مع رسولِ الله ﷺ في بعضِ غزواتِه، فسُرِقَتْ درعٌ لأَحدِهم (رفاعة) فحامت الشبهةُ حولَ رجلٍ من أَهلِ بيتٍ من الأنصار، يقالُ لهم: بنو أُبيرق. فأَتى صاحبُ

(١) تفسير الطبري: ٥/ ٣١٠ ـ ٣١٢.

الدرعِ رسولَ الله ﷺ فقال: إنَّ طعمةَ بنَ أُبيرق سرقَ درعي!.

فلما رأى السارقُ ذلك عمدَ إلى الدرعِ فألَقاها في بيتِ رجلٍ يهوديٍّ (اسمهُ زيدُ بن السمين)، وقالَ لنفرٍ من عشيرته: إنّي غَيَّبْتُ الدرع، وألقيتُها في بيتِ فلانٍ اليهودي، وستوجَدُ عنده.

فانطَلقوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: يا نبيَّ الله! إنَّ صاحبَنا بريء، وإنَّ الذي سرقَ الدرع فلان، وقد أَحطْنا علماً بذلك، فاعْذُرْ صاحبَنا على رؤوسِ الناس، وجادِل عنه، فإنَّه إنْ لم يعصمْهُ اللهُ بكَ يهلك.

ولمَّا عرفَ رسولُ الله ﷺ أنَّ الدرعَ وُجدَتْ في بيتِ اليهوديّ، قامَ فَبَرَّأَ ابنَ أُبيرق، وعَذَرَه على رؤوسِ الناس.

وكانَ أَهْلُهُ قد قالوا للنبيِّ ﷺ قبلَ ظهورِ الدرع في بيت اليهوديّ: إنَّ قتادةَ ابنَ النعمان وعمَّهُ عَمَدا إِلى أهلِ بيتٍ منَّا أهلِ إسلامٍ وصلاح، يرمونهم بالسرقةِ من غيرِ بيِّنة ولا ثَبت!.

قالَ قتادة: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فكلَّمْتُه، فقالَ: عمدتَ إلى أَهلِ بيت، يُذْكَرُ منهم إسلامٌ وصلاح، تَرميهم بالسرقة، على غيرِ ثَبَت ولا بَيِّنَة؟.

فرجعْتُ، ولوددْتُ أني خرجْتُ من بعضِ مالي، ولم أُكلِّمْ رسولَ اللهِ ﷺ في ذلك. فأتاني عمي رِفاعةُ فقال: يا بنَ أخي! ما صنعْتَ؟ فأخبرتُه بما قالَ لي رسولُ الله ﷺ. فقال: اللهُ المستعانُ.

فلم نَلْبَثْ أنْ نزلَ قولُه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥].

فلما نزلَ القرآنُ أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بالسلاحِ، فردَّه إلى رفاعة[1]!.

ابنُ أُبيرق يتَّهمُ اليهوديَّ بالسرقة:

تخبرُ الروايتــانِ السابقتانِ عن حادثةِ سرقة، قامَ بها المنافقُ طُعْمَةُ بنُ أُبيرق

---

(١) انظر تفسير الطبري: ٥/ ٣١٣؛ وفي ظلال القرآن، لسيد قطب: ٢/ ٧٥١ـ٧٥٢.

ـ أَو بُشَيْر بنُ أُبيرق ـ حيثُ سَرَقَ طعاماً وسلاحاً من مَشْرَبَةِ رِفاعةَ بنِ زيد رضي الله عنه، ولما حَقَّقَ أَهلُ رِفاعة في المسألة توصَّلوا إلى أَنَّ الذي قامَ بالسرقةِ هو طُعمة، ولما علمَ طُعمةُ أنَّ الشبهات تحومُ حولَه تخلَّصَ من المسروقات، بأَنْ وضَعَها في بيتِ اليهوديِّ زيدِ بن السمين دونَ عِلْمِه. .

وأخبرَ قتادةُ بنُ النعمان رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ بالسرقةِ من بيتِ عمِّه، وبأنَّ طعمةَ بنَ أُبيرق هو السارق، ووعدَ رسولُ الله ﷺ أنْ ينظرَ في الأمر.

وطلبَ طعمةُ بنُ أُبيرق من أَهلِ عشيرتِه ـ بنو ظفر ـ أَنْ يُدافعوا عنه عند رسولِ الله ﷺ، لأنَّه لم يَسْرِق، والسارقُ هو اليهوديُّ زيدُ بن السمين، والسلاحُ والطعامُ في بيته!.

وأُخرجت المسروقاتُ من بيتِ اليهودي زيدِ بن السمين، ونفى أَنْ يكونَ سارقاً، وأَنْ يكونَ لهُ علمٌ بها، وذكرَ أَنَّ السارقَ وضَعَها في بيتِه ليتَّهمَه بالسرقة.

ولامَ رسولُ الله ﷺ قتادةَ وعمَّهُ رفاعةَ رضي الله عنهما لاتّهامِهما ابنَ أُبيرق بالسرقة، لأنَّ السارقَ هو اليهوديُّ ابن السمين.

نظرة في الآيات النازلة في الحادثة:

أنزلَ اللهُ الآياتِ من سورةِ النساء يعاتِبُ رسولَ اللهِ ﷺ على دفاعِه عن طُعمةَ بنِ أُبيرق، ولومِه لقتادةَ ورفاعة، وبَرَّأت الآياتُ اليهوديَّ من تهمة السرقة، وأدانت السارقَ المنافقَ طُعمةَ بنَ أُبيرق، وأُعيدَ السلاحُ المسروقُ إلى صاحبه رفاعةَ بنِ زيد، فتبرَّعَ به في سبيلِ الله، وهربَ ابنُ أُبيرق إلى المشركين في مكة، وهلكَ بعد ذلك كافراً منافقاً!!.

قالَ اللهُ لرسولِه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

يُذكِّرُهُ اللهُ بإنزالِ القرآنِ عليهِ بالحقّ، وذلك ليحكمَ بين الناسِ الحكمَ الصوابَ الذي عَرَّفَه اللهُ وأعلمَهُ به وأراهُ إياه.

ويؤْخَذُ من قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الإذنُ من اللهِ لرسولِه ﷺ بالاجتهادِ في المسائلِ المعروضةِ عليه، واستنباطِ حُكْمِها من الكتابِ الذي أَنْزَلَه اللهُ عليه.

والرسولُ ﷺ لا يُخطئ في اجتهادِه، لأنَّ اللهَ يريه الحُكمَ الصواب، ويوجِّهه له، ويُرشده إليه.

بعد ذلك ينهى اللهُ رسولَه ﷺ عن أَنْ يدافعَ عن الخائنين: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾. والمرادُ هنا بالخائنين: السارقُ طعمةُ بن أُبيرق، ووصَفَه اللهُ بأنَّه خائنٌ لأنَّه سارق، والسرقةُ خيانة.

ثم دعاهُ اللهُ إلى الاستغفار، فقال له: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

وعادَ إلى نهيهِ عن الدفاع عن السارقين الخائنين، فقالَ له: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

أي: لا تُجادِلْ ولا تُدافعْ عن السارقِ الخائنِ طعمة بن أُبيرق، ولا تَلُمْ قتادةَ بن النعمان الذي اتَّهمَه بالسرقة، فإنَّ ابنَ أُبيرق خائنٌ لسرقته، وقد خانَ المسلمين، وخانَ نفسه، وكلّ مَنْ خانَ أُمّته فقد خانَ نفسه.

وفي قوله: ﴿يَخْتَانُونَ﴾ مبالغةٌ في إثباتِ الخيانة، أكثر من (يخونون)، وهو يدلُّ على التكلُّفِ والتصميم، وتعمُّد السرقةِ والخيانة.

وهؤلاء المختانون لأنفسهم ولغيرهم آثمون، لا يحبُّهم الله، لأنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ خوَّانٍ أثيم! وكيفَ يُجادلُ ويدافعُ عن الذين لا يحبُّهم الله؟.

ويصفُ هؤلاء الخائنين الآثمين بصفةٍ قبيحة، ويرسمُ لهم صورةً منفرة، وذلك في قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

إنَّ هؤلاء السارقين كانوا يستَخْفون من الناس، ويَستترون منهم، خوفَ انكشافِهم، ويَسهرون ليلَهم في التخطيط للسرقة، ولما قاموا بالسرقةِ صاروا يَسهرون ليلَهم في التآمرِ على البريئين واتّهامِهم بالسرقة، وإخفاءِ المسروق عندهم دون علمهم.

ويَذُمُّهم اللهُ لأنَّهم كانوا غافلين عن حقيقة معيةِ الله لهم بعلمِهِ وسمعِه وبصرِه، بحيث كانوا يُخطّطون ويتآمرون في الليل، ولا يستَخْفون من الله، ولا يخشونَه

ولا يستحيون منه، ويُبَيِّتون ما لا يرضى سبحانه من أفعالِهم القبيحةِ وأقوالِهم السيئة.

ويلتفتُ بالخطابِ إلى المؤمنين الذين جادَلوا عن أُولئكَ الخائنين السارقين، ويقول لهم: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٠٩].

أي: أنتم جادلتُم ودافعتُم عنهم في الحياةِ الدنيا، لكن مَنْ يجادلُ ويدافعُ عنهم يومَ القيامة، عندما يوقَفون بين يدي اللهِ للحساب؟ إنهم لن يَجدوا مدافعاً يتوكَّلُ أَمرهم، ويدفعُ عنهم عذابَ الله.

وهذا عتابٌ من اللهِ للمسلمين الذين دافعُوا عن طُعمةَ بنِ أُبيرق، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُدافعَ عنه.

ثلاثة أسس قرآنية عادلة:

بعد عتابِ الرسولِ ﷺ والمسلمين بشأنِ أَحداثِ سرقةِ ابنِ أُبيرق، تُقررُ ثلاثُ آياتٍ ثلاثةَ أُسسٍ عادلة دائمة بشأنِ مؤاخذةِ الناس بأعمالهم:

الأول: دعوةُ المذنبِ إلى التوبةِ والاستغفار، ليغفرَ اللهُ له، وهو في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

الثاني: تقريرُ حقيقةِ فرديةِ التبعة، فكلُّ مذنبٍ يتحمَّلُ تبعةَ ذنبِه وحده، وعاقبةُ ذنبه وسوئه تعودُ عليه وحده، ولا يُحاسَبُ عليها غيرُه، لأنَّ اللهَ عادلٌ في حسابِه، ولا يظلمُ أحداً من خلقه، وهذا في قوله: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١١].

الثالث: جريمةُ مَنْ يرمي البريءَ بذنبه، ويتَّهِمُه بخطيئتِه، حيثُ يحملُ البهتانَ والكذبَ والإثم. وهذا في قوله: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٢].

ورغمَ أنَّ هذه الأُسسَ الثلاثةَ قواعدُ مطردةٌ دائمة، باقيةٌ حتى قيامِ الساعة، لا تغييرَ ولا تَبديلَ لها، إلاَّ أنها موجهةٌ لابنِ أُبيرق وأَهلِه الذين دافعوا عنه، وهم

لا يعلمون أنَّه هو السارق، حيثُ أَوْهَمَهم أنّه بريء، وأنَّ السارقَ هو اليهوديُّ ابنُ السمين. إنَّها تدعوهم إلى التوبةِ والاستغفار، وتُبينُ لهم أنّهم لا يتحمَّلون ذنبَ وجريمةَ سرقةِ ابنِهم طعمةَ بنِ أُبيرق، لأنَّ تبعةَ ذلك تعودُ عليه وحده، وتُقرِّرُ لهم أنَّ جريمةَ ابن أُبيرق كبيرةٌ فظيعة، فهو قد سرقَ السرقة، واتَّهمَ بها رجلاً بريئاً، ولذلك احتملَ بهتاناً وإثماً مبيناً.

وبعد تقريرِ تلك الحقائقِ والقواعدِ عن الحادثة يُذَكِّرُ اللهُ رسولَهُ ﷺ بفضْلِه عليه، وعصمتِه له من محاولاتِ الآخرين إيقاعَه في الخطأ والضلال، وذلك في قوله له: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

لقد عَصَمَهُ اللهُ من محاولتِهم إضلالَه، بإنزالِ هذه الآياتِ عليه، التي تَدعوهُ إلى الحكم بالحق، وتكشفُ له عن حقيقةِ الحادثة، وهذا فضْلُ اللهِ عليه، ورحمتُه به، ولولا ذلك لضَلَّ وجارَ في حكمه، وظلمَ بريئاً باتّهامِه بالسرقة.. وطالما أنَّ اللهَ عصمَه من الخطأ والضلال، فإنَّ الخائنين المتآمرين أضَلُّوا أنفسَهم، وأَوقعوها في العذاب، ولم يَضُرُّوا رسولَ اللهِ ﷺ، لأنَّ اللهَ معه بالحفظِ والتوفيق.

توجيه موقف الرسول ﷺ من سرقة ابن أُبيرق:

بعد بيانِ معاني هذه الآياتِ التسعة النازلةِ في هذه الحادثة نتوقفُ لتوجيهِ موقفِ رسولِ الله ﷺ، وعتابِ اللهِ له.

لقد خَدَعَ طُعمةُ بنُ أُبيرق أَهلَه وأقاربَه من المؤمنين الصالحين، فلما علمَ بالشكوى التي قدَّمَها قتادةُ بن النعمان ضدَّه إلى رسول الله ﷺ، واتّهامِه بالسرقة، أَخَذَ المسروقات وألقاها في بيتِ اليهوديِّ زيدِ بنِ السمين، دون أنْ يَشعرَ أَحَدٌ بذلك.

ثم استدعى أَقاربَه الصالحين وأَخبرَهم أنّه بريءٌ من السرقة، وأنَّ السارقَ هو اليهودي، وأنَّ قتادةَ افترى عليه أمامَ رسول الله ﷺ باتّهامِه بالسرقة، بدليلِ أنَّ المسروقَ في بيتِ ابنِ السمين.

ولما وَجدوا المسروقَ في بيتِ ابنِ السمين حَكَموا أنّه هو السارق، وأنَّ ابنَهم طعمةَ متَّهمٌ بريء!!.

ولم يخطئوا في هذا، لأنَّ المسروقَ وُجِدَ في بيت اليهودي، وهم بشرٌ لا يَعلمون الغيب! وكلُّ الظواهرِ الماديةِ تُبرِّئ طعمةَ، وتُدينُ ابنَ السمين.

على هذا الأساسِ ذهبوا إلى رسولِ الله ﷺ يُدافعونَ عن ابنِهم طُعمة، ويَلومون قتادةَ في اتّهامه له.

ونظرَ رسولُ الله ﷺ في مجرياتِ الحادثة، ولم يأْتِه فيها وحيٌ من الله سبحانه وتعالى، وكلُّ ما أَمامَه من أُمورٍ وأَحداثٍ تَدعو إلى براءةِ طعمةَ بنِ أُبيرق وإدانةِ اليهوديِّ ابن السمين.

لذلك اجتهدَ رسولُ اللهِ ﷺ، وظَنَّ أنَّ ابنَ أُبيرق بريء، ولامَ قتادةَ بن النعمان على اتّهامِه له، لأنَّه ليس معه بيِّنة، وقال له: عمدْتَ إلى أَهلِ بيت، ذُكِرَ منهم إسلامٌ وصلاح، تَرميهم بالسرقةِ على غيرِ بيِّنةٍ ولا ثَبَت!!.

ولم يُخطئ رسولُ الله ﷺ لأنَّ كلَّ ما حولَه يوحي ببراءةِ طعمة، وهو يَقضي وفقَ ما يسمعُ من كلام وخَبر، وهو لا يعلمُ الغيب، إلا ما علَّمه اللهُ منه.

حكم الرسول ﷺ على أساس ما يسمع:

أخبرَ رسول الله ﷺ أنّه بشر، وأنّه يقضي بين المتخاصِمين على أَساسِ ما يَسمَعُ من حُججٍ وبيّنات، وقد لا يُصيبُ في بعضِ قضائِه، ولا يُلامُ على ذلك، لأنَّه اجتهدَ وبذلَ جهدَه، ولم يطالبه اللهُ بالعلم بالغيب.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها: أنَّ رسولَ الله ﷺ سمعَ جَلَبَةَ خصم بباب حُجرته، فخرجَ إليهم فقال: «إنكم تختصِمون إلَيَّ، وإنَّما أنا بَشَـر، ولعلَّ بعضَكم أَنْ يكونَ أَلحَنَ بحجّتِه من بعض، فأقضيَ له على نحوِ مما أسمَعُ منه، فمَنْ قطعتُ له من حَقِّ أَخيهِ شيئاً، فلا يَأْخُذْه، فإِنَّما أقطعُ لهُ بِهِ قِطعةً من النّار! فلْيَحْمِلْها أَو يَذَرْها»[1].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلم، حديث رقم: =

حَذَّرَ رسولُ الله ﷺ مَنْ قضى وَحَكَمَ له، بناءً على فصاحتِه وحجّته، وكان حكمُه له على خلافِ الصواب، لأنَّه بَشَر يَحكمُ على أَساسِ ما يسمع، ويُقررُ أنَّ ذلك الحكمَ الذي يُصدره لا يُبيحُ للمحكومِ له أَخْذَ حقّ أَخيه، فإن أخذَه فإنّه آثمٌ مُعَرَّضٌ للعذاب.

ولا يُلامُ الرسولُ ﷺ على ذلك الحكم، لأنَّه حَكَمَ بهِ وفقَ القرائنِ التي بين يديه، بعدَ اجتهادٍ ونظر، وهو بَشَرٌ لا يعلمُ الغيب.

من خلالِ النظرِ في هذا الحديث نُدركُ أسبابَ ظَنِّ الرسولِ ﷺ براءةَ ابنِ أُبيرق، ولومِ قتادة بن النعمان على اتّهامِه له، وعدمَ خطئِه في هذا الظنِّ واللوم، لأنَّه اجتهد فيه على أساسِ ما سمعه، وكلُّ ما حولَه يوحي ببراءةِ ابنِ أُبيرق وإدانةِ اليهوديِّ ابن السمين.

الآيات تذكير وتوجيه للرسول ﷺ وليس تخطئة له:

عندما ننظر في الآياتِ التي تحدّثَتْ عن الحادثةِ فإننا لا نجدُ فيها اتّهاماً ولا تخطئةً للرسولِ ﷺ في موقفِه، ولا حتى عِتاباً صريحاً له، كلُّ ما فيها تذكيرٌ وتوجيهٌ له ﷺ، ونهيٌ له عن الدفاعِ عن الخائنين السارقين.

النهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ وليس في هذا النهي إدانةٌ ولا تخطئةٌ للرسول ﷺ، بل هو لتذكيره وتوجيهه، وهو كالنهي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فإنَّه لا يُفهم منه أنَّه ﷺ لم يَتَّقِ الله، أَو أنَّه أطاعَ الكافرين والمنافقين!.

كلُّ ما قالَه رسولُ الله ﷺ لقتادةَ بن النعمان أنَّه أَنكرَ عليه اتّهامَهُ لآلِ أُبيرق بالسرعة، دونَ بيّنَةٍ ولا ثَبَت، مع أَنَّه عُرِفَ عنهم الإسلام والصلاح، وهذا الكلامُ صحيحٌ لا غُبارَ عليه، وهو ليس حُكماً أصدرهُ رسولُ الله ﷺ بتبرئةِ طعمةَ بن أُبيرق!.

= ٢٤٥٨؛ وصحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، حديث رقم: ١٧١٣.

وتذكيرُ الرسولِ ﷺ بفضْلِ اللهِ عليه في مثْلِ قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

ولا يُؤْخَذُ من هذا التذكيرِ إدانةٌ ولا تخطئةٌ للرسولِ ﷺ أيضاً.

حتى أَمْرُ اللهِ لرسولِه ﷺ بالاستغفار، في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لا يدلُّ على أنَّ الرسولَ ﷺ أذنبَ ذنباً أَوجبَ عليه الاستغفار، لأنّه ﷺ معصومٌ من الذنوب، واستغفارُه ﷺ صورةٌ من صورِ ذكرِه لله وعبادتِه ﷺ.

إنَّ الآياتِ تُدينُ السارقَ طُعمةَ بنَ أُبيرق، وتُصوِّرُ سوءَ فعلِه في سرقتِه، وفي تبييته الأقوالَ والأفعالَ القبيحة، واتّهامه لليهودي البريء، وتهددُه بالعذابِ يومَ القيامة.

هي درس للمسلمين حتى قيام الساعة:

مع وضوحِ موقفِ رسول الله ﷺ من هذه الحادثة، فقد جاءَ الخطابُ فيها مباشراً للرسولِ ﷺ، مع أنَّ المقصودين بالخطاب هم أُمته، حتى قيامِ الساعة، وذلك لأنَّ الرسولَ ﷺ هو القدوةُ لأُمّته، ومعلومٌ أنَّ خطابَ الرسول ﷺ خطابٌ لأمّته، ما لم يَقُمْ دليلٌ على التخصيص، وكثيرةٌ هي التوجيهاتُ الموجَّهةُ للرسولِ ﷺ، والمقصودةُ بها أُمتُه.

ومع ذلك التوضيح والتوجيه، فإننا نجدُ في الآياتِ لهجةً شديدة، ونبرةً حاسمة، وحِدَّةً عاليةً، لأنَّ موضوعَها يَستدعي هذا الحسمَ والشدةَ والحدَّة، لتقريرِ مبدأ عدمِ اتّهامِ الأبرياء، حتى ولو كانوا من الأعداء، وعدمِ الدفاعِ عن المذنبين الجناة، ولو كانوا من الأقارب أو الأصدقاء.

يقولُ سيد قطب في تعليقه على هذه الحادثة وما نزلَ فيها من آيات: «هذه الآياتُ تحكي قصةً لا تَعرفُ لها الأرضُ نظيراً، ولا تعرفُ لها البشريةُ شبيهاً.. وتَشهدُ ـ وحْدَها ـ بأنَّ هذا القرآنَ وهذا الدينَ لا بدَّ أنْ يكونَ من عندِ الله...

. . . إنَّـه في الوقتِ الذي كـان اليهودُ في المدينـة يُطلقونَ كُلَّ سـهامِهم المسمومة، التي تحويها جعبتُهم اللئيمة، على الإسلام والمسلمين. . . في هذا الوقت الحرج، الخطر، الشديدِ الخطورة، كانتْ هذه الآياتُ كلُّها تتنزَّلُ على رسولِ الله ﷺ، وعلى الجماعةِ المسلمة، لتُنصفَ رجلاً يهودياً اتُّهِمَ ظلماً بسرقة، ولِتدينَ الذين تآمروا على اتّهامه، وهم بيتٌ من الأنصار في المدينة، والأنصارُ يومئذٍ هم عُدَّةُ الرسولِ ﷺ وجُندُه، في مقاومة هذا الكيد. . .»[1].

* * *

(١) انظر كلام سيد قطب الرائع المفيد في تحليل هذه الحادثة والتعقيب عليها، الظلال: ٢/ ٧٥١_٧٥٣.

الفصل الثالث

أمر الرسول ﷺ بالبقاء مع المؤمنين المستضعفين

لما بدأَ الرسولُ ﷺ بدعوتِه اتّبعَه الضعفاءُ والفقراءُ والعبيد، وأَعرضَ عنه قادةُ قريش وزعماؤُهم وأشرافُهم، واعتزُّوا بأَموالِهم وأَولادِهم وجاهِهم.

وأمامَ استمرارِ رسول الله ﷺ بدعوتِهم، أَرادوا أَنْ يُراوغوا ويُناوروا، فعَرَضوا عليه عرضاً خبيثاً، قائماً على الاستكبارِ والاستعلاء.

قالوا له: لقد اتّبعَكَ سفهاؤُنا وعبيدُنا، وإِنْ جلسْنا معهم تجرَّؤوا علينا، فإِنْ أردتَ أَن نتبعَكَ وندخلَ في دينِك فاطردْ هؤلاء، أو اجعلْ لنا مجلساً خاصاً، واجعل لهم مجلساً آخر.

وهَمَّ رسولُ الله ﷺ أَنْ يوافقَهم على طلبهم، من بابِ ترغيبِ قلوبهم، فأَنزلَ اللهُ عليهِ آياتٍ تَنْهاهُ عن الاستجابةِ لهم، وتأْمرَه أَنْ يبقى مع أَتْباعِه المؤمنين المستضعفين.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٤].

سعد بن أبي وقاص يخبر عن سبب نزول الآيات:

هناك روايات في سبب نزول هذه الآيات:

● روى مسلم عن سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه، قال: كنّا معَ رسولِ الله ﷺ ستةَ نفر، فقال المشركون للنبيِّ ﷺ: اطْرُد هؤلاء، لا يَجترئون علينا، قال:

وكنتُ أنا، وابنُ مسعود، ورجلٌ من هذيل، وبلال، ورجلان لستُ أُسَمِّيهما، فوقعَ في نفسِ رسولِ الله ﷺ ما شاء الله أنْ يقع، فحدَّثَ نفسَه، فأَنزلَ اللهُ عزَّ وجلّ قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾(١).

يخبرُ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه في هذه الرواية أنه كان هو ومجموعةٌ من المستضعفين مع رسولِ الله ﷺ، يصحبونَه ويتعلَّمون منه، وكان هذا يزعجُ الملأَ المستكبرين من المشركين، فطلَبوا من رسولِ الله ﷺ أَنْ يطردَ عنه أولئك المستضعفين، لئلا يَجترئوا عليهم، ولعلَّ المشركين أَغْرَوا الرسولَ ﷺ بأَنْ يجلسوا معه ويَدخلوا في دينه، إِنْ طردَ المستضعفين.

وفكَّرَ رسولُ اللهِ ﷺ في طلبِ المشركين، وحَدَّثَ به نفسَه، ووقعَ في قلبِهِ شيءٌ من الميلِ إلى الموافقةِ على طلبهم، بأَنْ يخصِّصَ للمستضعين مجلساً، ويخصصَ للأَشرافِ مجلساً آخر، لا يشاركُهم فيه غيرهم، وأَنْ يفعلَ هذا من بابِ مصلحةِ الدعوةِ، والحرصِ على إسلامِهم.

ولكنَّ اللهَ تداركَه، وأَزالَ هذه الأفكارَ من نفسه، قبلَ أَنْ تتحولَ إلى تصرُّفٍ وتنفيذ، وأَنزلَ عليه هذه الآياتِ من سورةِ الأنعام، ينهاهُ فيها عن طردِ المؤمنين المستضعفين، ويُخبرُه بخطأ المستكبرين في نظرتِهم وميزانِهم.

ابن مسعود يخبر عن سبب نزولها:

● عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: مَرَّ الملأُ من قريشٍ على رسولِ الله ﷺ، وعندَهُ خَبَّابٌ وصهيبٌ وبلالٌ وعمار، فقالوا: يا محمّد! أَرضيتَ بهؤلاء؟ فأَنْزَلَ اللهُ فيهم قولَه تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾.

وفي روايةٍ أُخرى عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: مَرَّ الملأُ من قريشٍ برسول الله ﷺ، وعنده خَبَّابٌ وصهيبٌ وبلالٌ وعمار، وغيرُهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد! أَرضيتَ بهؤلاء من قومك؟ اطْرُدْهُم، فلعلَّكَ إنْ

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل سعد بن أبي وقاص، حديث رقم: ٢٤١٣؛ وابن حبان؛ والحاكم.

طردْتَهم أَنْ نتبَّعك . . فأنزلَ اللهُ قولَه تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام : ٥٢ ـ ٥٣][١] .

يُخبرُ ابنُ مسعود رضي الله عنه : أَنَّ الملأَ من المشركين أَنكروا على رسولِ الله ﷺ جلوسَه مع المستضعفين ، واختيارَه لهم بدلَ الأشرافِ والكبراء ، وتساءلوا بسخريةٍ وتكذيب : أهؤلاء الذين مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا؟ وهل يُعقلُ أَن يكونوا أفضلَ عندَ اللهِ منَّا؟ إنَّنا أفضلُ وأكرمُ منهم! ونحنُ لن نكونَ تَبَعاً لهم ، ولن نجلسَ معهم! .

وطلبوا من الرسولِ ﷺ أَنْ يَطردَهم من مجلسِه ، وعند ذلك يفكِّرون ، وقد يَدخلونَ في دينِه ويتَّبعونه .

وقبلَ أَنْ يميلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى الموافقةِ على طلبِهم ، من بابِ تأليفِ قلوبهم ، أَنزلَ اللهُ عليه الآيات ينهاهُ عن ذلك ، ويأمره بالبقاءِ مع المؤمنين المستضعفين .

وننظر الآن نظرةً سريعة في الآياتِ التي أَنزلَها اللهُ على رسولِه ﷺ في هذه المناسبة .

توجيه الله لرسوله ﷺ بشأنِ المؤمنين المستضعفين:

يأمرُ اللهُ رسولَه ﷺ أن ينذرَ بالقرآنِ المؤمنين الصالحين ، ليزدادوا إيماناً وتقوى ، ووصَفَهم بأنَّهم يؤمنون بيومِ القيامة ، ويَخافون الحشرَ والوقوفَ بين يدي الله ، ويعلمون أنَّه لا يوجَدُ وليٌّ ولا شفيعٌ يدفعُ عنهم عذابَ الله ، ولذلك يعملونَ الأعمالَ الصالحة ليفوزوا في ذلك اليوم ، هؤلاء الصالحون يستفيدونَ من الإنذارِ بالقرآن . قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١] .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩ .

وبعدما أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ بإنذارِ أُولئكَ الصالحين بالقرآن، نهاه عن طردِهم من مجلِسه، استجابةً لطلبِ المستكبرين من المشركين: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

لقد أثنى اللهُ عليهم بأنَّهم يَدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعشي، أَيْ: يَعبدونَه ويُصلُّون له ويذْكُرونه اليومَ كلَّه، ابتداءً من الغداةِ وهي أَول النهار، إلى العشيِّ وهي آخرُ النهار، فهم مع اللهِ عابدينَ مصلّين ذاكرين طيلةَ اليوم.

وهم في دعائهم وصَلاتِهم وعبادتِهم مخلصون لله، يريدون وجْهَهُ وحْدَه، ولا يريدون شيئاً من متاعِ الحياةِ الدنيا.

وهذا الثناءُ من الله عليهم علّةٌ للنهي عن طردِهم وإِخراجِهم، فهم بسبب هذه الصفاتِ يستحقُّون التكريمَ والتفضيل، وليس الطردَ والإخراج، وهم بذلك أفضلُ من كبراءِ وزعماءِ المشركين، وإنْ لم يملكوا شيئاً من متاع الدنيا!.

وذكَّرَ اللهُ رسولَه ﷺ بأنَّه لا يُحاسَبُ على أفعالِ أولئك المستضعفين المؤمنين الظاهرة والباطنة، لأنَّ حسابهم على الله، وهذا تعليلٌ للنَّهي عن طردهم: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

فإذا طَردَ ﷺ أولئك المؤمنين المستضعفين كان ظالماً، لأنَّ طردَهم ظلم، واستجابةٌ للظالمين المشركين: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وبمناسبةِ نهي الرسولِ ﷺ عن الاستجابةِ لطلبِ المشركين ونهْيِه عن طردِ المؤمنين، أَخبرت الآياتُ أنَّ اللهَ فتنَ الكبراءَ المستكبرين الكفارَ بالمستضعفين الصالحين، حيثُ حَسدوهم واحتقروهم، واعتبروهم أَدنى منهم فضلاً وكرامةً ومنزلة، ولهذا تساءلوا باستنكارٍ قائلين: أَهؤلاءِ المستضعفون الأَذلاَّء مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا؟! وهل من المعقولِ أَن يكونوا أفضلَ عندَ اللهِ منّا؟!. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

والجوابُ على استغرابِ واستهجانِ المشركين بالإيجاب، فاللهُ مَنَّ على المستضعفين من وسطِ مجموعِ المشركين، وسببُ المِنَّةِ عليهم وتفضيلِهم هو شكرُهم لله وحسنُ عبادتِهم وإِخلاصِهم له. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وبعدَما نهى اللهُ رسولَه ﷺ عن الاستجابةِ لطلبِ المشركين بطردِ المؤمنين، أمرهُ أَنْ يُكرمَ المؤمنين إكراماً آخر، وذلكَ بأَنْ يُبادرهم بالسؤالِ عندما يجيئون إليه، ويبشِّرَهم برضا اللهِ عنهم، ومغفرتِه لهم، ورحمتِه بهم، ليزدادوا عبادةً لله، ونشاطاً في طاعته، ويُكثروا من التوبةِ والاستغفار. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تأكيد سورة الكهف على ذلك:

بمعنى هذه الآيات من سورةِ الأنعامِ آيتان من سورةِ الكهف. قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٨ـ٢٩].

يأمرُ اللهُ رسولَه ﷺ أَن يبقى مع المؤمنين الصالحين، وعَبَّرَ عن ذلك بالصبر، وهو الحبس: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾، والتعبيرُ عن البقاءِ معهم بالصبرِ لأهمية هذا الأمرِ ومشقّتِه، بحيثُ يحتاجُ إلى صبرٍ للنفس، وحبسِها على ما تكره، ومجاهدتِها وأَخذِها بالشدةِ لتلتزمَ وتبقى، ولا تتفلّتَ أَو تخالف.

وبعدَ الأمرِ بالصبرِ والبقاءِ جاءَ النهيُ عن تركهم وتجاوزهم: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أَي: لا تُجاوِزْهم، ولا تَعْدُهُم إلى غيرهم من الكبراءِ والزعماء، ولا تُعرِضْ عنهم ذاهباً إلى الآخرين من أصحابِ الدنيا!.

واجتماعُ أُسلوبَي الأَمْرِ والنهي لأهميةِ هذا الموضوع ومشقَّتِه: الأَمْرُ بالصبرِ على البقاءِ مع المستضعفين والصالحين، والنهيُ عنَ الإعراضِ عنهم وتجاوزِهم إلى غيرهم.

فإنْ أَعرضَ عنهم إلى غيرهم كان مريداً للحياةِ الدنيا وزينتها، فإنَّ الرغبةَ في

زينةِ الدنيا سببٌ للإعراضِ عن المستضعفين الصالحين، والرسولُ ﷺ لا يفعلُ ذلك، لأنَّه زاهدٌ في الدنيا وزينتِها، راغبٌ في الآخرة.

ولذلكَ قالَ اللهُ له في موضع آخر من القرآن: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طـه: ١٣١].

ونهى اللهُ رسولَه ﷺ عن طاعةِ الكافرين المستكبرين، عندما يطلبون منه طردَ المؤمنين المستضعفين من مجلسِه، لأنَّ موازينَهم جاهلية، وطلباتِهم ظالمة، وقلوبَهم محجوبةٌ عن الحق، فهم غافلون، مُتَّبعون للهوى، وحياتُهم خاطئةٌ بعيدةٌ عن الهدى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وأَمرهُ اللهُ أَنْ يُقدِّمَ الدعوةَ للكفارِ كما هي، بعزةٍ وكرامة، وبوضوحٍ وحسمٍ وتحديد، مجرَّدةً من المداهنةِ والمساومة والإغراء، وذلك بأَنْ يقولَ لهم: إنَّ ما معي هو الحق، آتاني ربي وربُّكم إياه، وأَمرني أَنْ أَدعوكم إليه، وعليكم أَنْ تُفكروا فيه، ولا تنظروا إلى أَتْباعي الذين آمنوا بي، ولا تَحتقروهم أَو تَنْتَقصوهم، ولا يمنعنَّكُم ما هم عليه من فقرٍ من قَبولِ الحق، فإنِ فعلْتُم ذلك كنتم من الخاسرين الهالكين، المعذَّبين بنارِ جهنَّم. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

لقد جمعت الآيتان بينَ أَمرَيْن ونهيَيْن، لأَهميةِ البقاءِ مع المؤمنين المستضعفين، وعدمِ الاستجابةِ لطلباتِ المستكبرين بطردهم:

الأمران هما: قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾.

والنَّهيان هما: قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾.

أبو بكر رضي الله عنه يعتذر للمؤمنين المستضعفين:

لقد وَعى الصحابةُ هذا التوجيهَ الربانيَّ للرسولِ ﷺ، فكانوا يُكرمونَ المستضعفين من المسلمين، ويَعرفون فَضْلَهم، ويُقدمونهم على الأَشراف

المستكبرين، ويَحرصون على عدمِ إغضابِهم. ونكتفي من ذلك بحادثتين: حادثةٍ مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حياةِ النبيِّ ﷺ، وحادثةٍ مع عمرَ رضي الله عنه في خلافتِه.

روى مسلمٌ عن عائذِ بن عمرو رضي اللهُ عنه: «أنَّ أبا سفيان أَتى على سلمانَ وصهيبٍ وبلالٍ في نفر، فقالوا: واللهِ ما أَخَذَتْ سيوفُ اللهِ من عنقِ عدوِّ الله مأْخَذَها! فقالَ أبو بكر: أتقولون هذا لشيخِ قريشٍ وسيّدِهم؟ فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَه.. فقال ﷺ: يا أبا بكر: لعلَّكَ أَغضبْتَهم! لئن كنتَ أَغضبْتَهم لقد أغضبْتَ ربَّك!! فأَتاهم أبو بكر فقال: يا إِخْوَتاه! أَغْضَبْتُكم؟ قالوا: لا! يَغفرُ اللهُ لك يا أخانا...»[1].

كانتْ هذه الحادثةُ في المدينة، بعدما نقضتْ قريشٌ عهدَها مع رسولِ الله ﷺ، الذي عقدَه معها في صلحِ الحديبية، حيثُ جاءَ أبو سفيان زعيمُ قريش إلى المدينة، ليجددَ العهدَ ويُخادعَ الرسولَ ﷺ والمسلمين، ولكنه فشل في مهمته.

وبينما كان يسيرُ في أحدِ طرقِ المدينة، مَرَّ على نفرٍ من المسلمين الضعفاء الفقراء، منهم سلمانُ الفارسي وصهيبُ الرومي وبلالُ الحبشي، رضي الله عنهم، فواجَهوه بما يَكره، وهدَّدوه بالقتالِ والقتل، وقالوا: ما أَخَذَتْ سيوفُ اللهِ من عنقِ عدوِّ الله مأْخَذَها!.

فلامَهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه على كلامِهم، وقالَ لهم: كيف تقولونَ هذا لسيدِ قريش؟!.

ولما أَخبرَ أبو بكر رسولَ الله ﷺ بالحادثة حَذَّرَه من أَنْ يكونَ في كلامِه قد أَغضبَهم، وأَخبرَه أنَّه إنْ فعلَ ذلك فقد أَغْضَبَ اللهَ! لأنَّ اللهَ يغضبُ لغضبِ أوليائه!.

وخافَ أبو بكر رضي الله عنه، وأَتاهم مسرعاً معتذراً، لئلا ينالَ غضبَ الله، فأخبروه أنهم لم يغضبوا عليه، ودَعَوْا له بالمغفرة.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل سلمان وصهيب وبلال، حديث رقم: ٢٥٠٤.

ودلَّ هذا على عُلوِّ منزلتِهم وعظمةِ فضلهم عندَ الله، بحيثُ جعلَ اللهُ من غضبِه سبحانَه غَضَبَهُمْ.

عمر رضي الله عنه يقدِّم المستضعفين السابقين للإسلام:

لما كانَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه أميرَ المؤمنين استأذَنَ عليه فريقان من المسلمين، فريقٌ من المستضعفين السابقين إلى الإسلام، بلال وسلمان وصهيب، رضي الله عنهم، وفريقٌ من المتأخِّرين في الإسلام، الذين كانوا مستكبرين قبلَ أَنْ يُسلِمُوا، أبو سفيان وسهيلُ بن عمرو وعكرمةُ بن أبي جهل، رضي الله عنهم! فأَذِنَ عمرُ رضي الله عنه للسابقين إلى الإسلام لأنَّهم أفضلُ وأكرمُ من المتأخّرين، وأَدخلَهم إلى مجلسه، وبقي السادةُ الثلاثةُ منتظرين على الباب، لم يُؤْذَنْ لهم بالدخول!.

فتأثَّرَ أبو سفيان رضي الله عنه، وأَحَسَّ بجرحٍ لكبريائه، وقالَ لإخوانِه: واللهِ ما رأيتُ ذُلاً مثلَ هذا اليوم، كيفَ يأذنُ لهؤلاءِ العبيد قبلَنا؟!.

فردَّ عليه سهيلُ بنُ عمرو رضي اللهُ عنه ردّاً حكيماً، حيثُ قالَ له: نحن الذين جَنَيْنا على أنفسِنا، لقد دُعُوا إلى الإسلامِ ودُعينا، فلَبّوا هم الدعوةَ وأَسلموا قبلَنا، ونحنُ تأخَّرْنا! فما موقفُكم يومَ القيامةِ إذا دُعوا لدخولِ الجنةِ قبلَكم؟ ليس أَمامَنا إلاَّ أنْ نخرجَ للجهادِ في سبيلِ الله، لعلَّنا ننالُ الشهادة!.

وتوجَّهوا إلى الشام، وحارَبوا في معركةِ اليرموك، وأَبلوا فيها بلاءً عظيماً، واستُشهدَ فيها عكرمةُ بنُ أبي جهل، وسهيلُ بن عمرو، رضي اللهُ عنهما.

الرسول ﷺ لم يطرد المسلمين المستضعفين:

ونختم كلامَنا على هذا الموقف للرسولِ ﷺ بتقريرِ أنَّه لم يرتكبْ خطأً، لأنَّه لم يوافق الكفارَ المستكبرين على طلبهم، ولم يطرد المستضعفين من مجلسِه، وكلُّ ما في الأمرِ أنَّه حدَّثَتْه نفسُه بشيء، ووقَعَ في قلبه ما شاء الله أَنْ يقع - كما قالَ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه - ولعلَّه مالَ إلى الموافقةِ على طلبِهم، لحرصِه على إيمانهم، ولكنَّ اللهَ تداركَه، فأَنزلَ عليه آياتٍ من سورةِ الأنعام تنهاهُ عن ذلك، وأكَّدَها بآياتٍ من سورةِ الكهف.

لقد شاءَ اللهُ لرسولِه ﷺ الأفضلَ والأكمل، وأَرْشَدَهُ إليه، فالتزَمَه ﷺ، مقرّراً الميزان الربَّانيَّ الصحيحَ في التكريم والتفضيل، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد روى مسلمٌ عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى صورِكم وأَموالِكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبِكُم وأَعمالِكم...»[1].

* * *

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، حديث رقم: ٢٥٦٤.

الفصل الرابع

عتاب الرسول ﷺ بشأن أسرى بدر

استشارَ رسولُ الله ﷺ مستشاريه من كبارِ الصحابةِ في التصرفِ المناسبِ بأَسرى بدر، فأشارَ عليه بعضُهم بقتْلِ الأسرى، وأشارَ عليه آخرون بأَخْذِ الفِداءِ منهم، فأخذَ بالرأيِ الثاني وأَخذَ الفداءَ منهم وأَطلقَ سراحَهم، فأَنزلَ اللهُ آياتٍ من سورةِ الأنفال، يعاتبُ فيها رسولَهُ ﷺ والمسلمين على ذلك.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٧١].

وقبلَ أَنْ ننظرَ في هذه الآياتِ ونوجِّهَ ما فيها من عتاب، نذكُرُ بعضَ الرواياتِ في مناسبةِ نزولِها، وفي حادثةِ استشارةِ الرسولِ ﷺ لأَصحابه بشأْنِ الأَسرى.

ابنُ عباس رضي الله عنهما يروي عن الاستشارة في الأسرى:

روى مسلم بإِسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «... قتلَ المسلمون من المشركين سبعين، وأَسَروا سبعين..

قال ابن عباس: ولما أسروا الأسرى، قالَ رسولُ الله ﷺ لأَبي بكر وعمر: ما ترَوْنَ في هؤلاء الأُسارى؟.

فقالَ أبو بكر: يا نبيَّ الله! هم بنو العَمِّ والعشيرة، أَرى أَنْ تأخذَ منهم فدية، فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى اللهُ أَنْ يهديَهم للإِسلام!.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: ما ترى يا بنَ الخطاب؟.

قلت: لا واللهِ يا رسولَ الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر؛ ولكني أرى أنْ تمكِّنَّا فنضربَ أعناقَهم! فتمكِّنَ علياً من عقيلٍ فيضربَ عنقَه، وتمكِّنَني من فلانٍ ـ نسيباً لعمر ـ فأضربَ عنقه، فإنَّ هؤلاءِ أئمةُ الكفرِ وصناديدُها!.

فَهَوِيَ رسولُ اللهِ ﷺ ما قالَ أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلتُ (يعني ما قال عمر..).

فلما كان من الغد جئتُ، فإذا رسولُ الله ﷺ وأبو بكر قاعدَيْن يبكيان. قلتُ: يارسولَ الله! أخبرْني من أيِّ شيءٍ تبكي أنتَ وصاحبك، فإنْ وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإنْ لم أَجدْ بكاءً تباكيتُ لبكائكما.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أبكي للذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك من أخذهم الفداء، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة ـ شجرةٍ قريبةٍ من نبيِّ الله ﷺ ـ وأنزل اللهُ عزَّ وجلّ قولَه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فأحلَّ اللهُ الغنيمة لهم»[1].

رواية ابن مسعود عن الاستشارة:

عن عبدِ اللهِ بنِ مسعود رضي الله عنه قال: «لما كانَ يومُ بدرٍ وجيءَ بالأسرى، قالَ رسولُ الله ﷺ: ما تقولون في هؤلاء الأسَارى؟.

فقالَ أبو بكر: يارسولَ الله! قومُكَ وأهلُك، استَبْقِهم واستأْنِ بهم، لعلَّ اللهَ أَنْ يتوبَ عليهم.

وقال عمر: يارسول الله! كذَّبوك وأخرجوك، قَرِّبهم فاضربْ أَعناقَهم.

وقال عبدُ اللهِ بن رواحة: يارسول الله! انظرْ وادياً كثيرَ الحطب، فأَدْخِلْهُم فيه، ثم أَضْرِمْه عليهم ناراً!.

قال: فقال العباس: قطعت رحِمَكَ. قال: فدخل رسول الله ﷺ، ولم يَرُدَّ عليهم شيئاً.

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم: ١٧٦٣، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة.

فقال ناسٌ: يأخذُ بقولِ أبي بكر، وقالَ ناسٌ: يأخذُ بقولِ عمر، وقال ناسٌ: يأخذُ بقولِ عبدِ الله بن رواحة.

قال: فخرجَ عليهم رسولُ الله ﷺ، فقال: إنَّ اللهَ لَيُلينُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ ألينَ من اللَّبن، وإنَّ اللهَ ليشددُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ أشَدَّ من الحجارة. وإنَّ مَثَلَكَ يا أبا بكر مَثَلُ إبراهيم عليه السلام، حيثُ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وإنَّ مَثَلَكَ يا أبا بكر كمَثَلِ عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وإنَّ مثلكَ يا عمر كمثلِ نوحٍ عليه السلام، حيثُ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وإنَّ مَثَلَكَ يا عمرُ كمَثَلِ موسى، قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

ثم قالَ رسولُ الله ﷺ: أنتم اليومَ عالةٌ، فلا ينفَلِتَنَّ أَحَدٌ منهم إلاَّ بفداءٍ أو ضربِ عنق...»[1].

يُخبرُنا عبدُ الله بنُ عباس وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم: أنَّ رسولَ الله ﷺ استشارَ كبارَ أَصحابِه في التصرفِ المناسب بشأْنِ أَسرى بدر، وكان عددهم سبعين أسيراً، وهذا معناه: أنَّ اللهَ لم يوحِ له بشيء في شأنِ الأسرى، ولو أوحى له بشيء لما استشارَ أَصحابَه.

ثلاثة آراءٍ أمام رسولِ الله ﷺ:

لقد تكلَّم ثلاثةٌ من الصحابة، وعَلَّلَ كلٌّ منهم رأْيَه الذي قَدَّمَه:

أشارَ أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه بأنْ يأخذَ الفداءَ من الأَسرى، ويُعيدَهم بعد ذلك إلى مكة. وعلَّل رأيه بأنَّ الأَسرى هم أقاربُ للمهاجرين، لأَنَّهم بنو العمِّ

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم: ٣٤٥٢، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، باب مسند عبد الله بن مسعود.

والعشيرة والأهلِ، والأَوْلى أَن لا يُقْتَلوا، ودعا الرسول ﷺ إلى أَنْ يستأنيَ بهم ويُعطيهم فرصةً أُخرى، لعلَّ اللهَ أَنْ يتوبَ عليهم ويشرحَ صدورهم للإِسلام، وبما أَنّهم حاربوا المسلمين ووقعوا في الأَسر، فالرأيُ أَنْ يأخذَ المسلمون منهم الفداء، ويَستفيدوا من الفداءِ في الحشدِ لقتالِ الكفار، لاسيما أَنَّهم عالةٌ فقراء بحاجةٍ لذلك المال.

وأشارَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه بأَنْ يضربَ أَعناقَهم، لأَنَّهم قادةُ الكفار وصناديدُهم، ورأى أَنْ يقتلَ كلُّ مسلمٍ مهاجرٍ قريبَه الأَسيرَ الكافر، مبالغةً في البراءةِ من الكفار والشدةِ عليهم، واقترحَ أَنْ يأمرَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه بقتْلِ أخيه عقيل، وأَنْ يأْمرَه هو بقتلِ نسيبه ـ الذي لم يذكر اسمَه ـ وأَنْ يأمرَ حمزةَ بنَ عبد المطلب رضي الله عنه بقتلِ أَقربِ الناسِ إليه.

وعَلَّلَ عمرُ رضي الله عنه رأْيَهُ العنيفَ الشديدَ بأَنَّ هذه أولُ معركةٍ للمسلمين ضدَّ المشركين، ولا بدَّ أَنْ يُخوِّفوا المشركينَ ويُرْهبوهم بقتْلِ أَسْراهم، وأَنْ يُضْعفوهم، وأَنْ يَعلموا أَنَّه ليس في قلوبِ المسلمينَ هوادةٌ للمشركين أو تهاونٌ معهم.

وقدَّمَ عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ الأنصاريُّ رضي الله عنه رأياً ثالثاً قريباً من رأي عمرَ في الشدةِ، حيث أشارَ على رسول الله ﷺ أَنْ يختارَ وادياً كثيرَ الحطب، وأَنْ يحرقَهم فيه بالنار!.

ولما قامَ رسولُ الله ﷺ من المجلسِ، صارَ الصحابةُ يفكِّرون في أيِّ رأيٍ من الآراءِ الثلاثةِ يأخذُ به.

وخرجَ ﷺ وعَلَّقَ على أَصحابِ الآراءِ الثلاثة، وشَبَّهَ كُلَّ واحدٍ منهم بموقفِ نبيٍّ من أَنبياءِ الله، واستشهدَ على ذلك بآيةٍ من كتابِ الله.

أَخبرَ أبا بكر رضي الله عنه أَنَّ قلْبَهُ لَيِّنٌ في الله، وأَنَّه في لينِه يبتغي وَجْهَ الله، وهو في لينِه مِثْلُ النبيَّيْن الكريمَيْن إبراهيم وعيسى عليهما السلام.

وأخبرَ عمرَ وابنَ رواحة رضي الله عنهما أَنَّ قلبَيْهما شديدانِ في الله، وأَنَّهما في هذه الشدةِ يبتغيان وجْهَ الله، وشَبَّهَ عمرَ في شدَّتِه بنوحٍ عليه السلام، وشبَّهَ ابنَ رواحةَ في شدَّتِه بموسى عليه السلام.

ومالَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى رأيِ أبي بكر رضي الله عنه، ويبدو أنَّ رأيَ أبي بكر كان يمثّـلُ أغلبيّةَ الصحابة، وأَمَرَ ﷺ بأخذِ الفداء من الأسرى.

واتَّصلَ الأَسرى المشركون بأَهلهم، وطلبوا منهم إِرسالَ الفداءِ المطلوب، والذي يُقدِّمُ فداءَه للمسلمين يُطلَقُ سراحُه، ويعودُ إلى مكة.

وفي اليومِ التالي أتى عمرُ رضي الله عنه إلى النبيِّ ﷺ: وكان بجانبه أبو بكر رضي الله عنه، وفوجئ عمرُ بهما يبكيان، فاستغربَ وسألَ الرسولَ ﷺ عن سببِ بكائِهما، فأَخبرَه ﷺ أنَّهما يبكيانِ لأنَّ اللهَ عَرَضَ إيقاعَ العذابِ بالمسلمين لأَخذِهم الفداءَ من الأسرى، وتأثَّرَ عمرُ بذلك وبكى معهما.

وأنزلَ اللهُ الآياتِ في عتابِ الرسولِ ﷺ والمسلمين.

الأسر بعد الإثخان في الأرض:

بعدما عشنا أجواءَ نزولِ آياتِ العتاب، وحادثةِ الاستشارةِ بشأنِ الأسرى، ننظرُ في هذه الآيات:

أيُّ نبيٍّ مجاهدٍ يكونُ هدفُه من جهادِه نصرةَ دينه، ونشْرَ رسالته، وهزيمةَ أَعدائِه، والأَصْلُ أَنْ يقتلَ الأَسرى الكفارَ في بدايةِ جهاده لهم وانتصاره عليهم، لأنَّ أَصحابَه يكونون قليلين، وأَعداءَه يكونون كثيرين أقوياء، فيكونُ قتْلُ أَسراهم إِضعافاً وتخويفاً لهم.

ولقد قرَّرَ اللهُ هذا المعنى في قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وهذه الجملةُ خبرية، وليستْ خطاباً من اللهِ لنبيِّه ﷺ، ومعناها: لا يليقُ بأيِّ نبيٍّ من الأنبياءِ أَنْ يأخذَ أَسرى من الكفارِ قبلَ أَنْ يُثخنَ في الأرض، ولا يستقيم له فعلُ ذلك، فالأَوْلَى أَنْ لا يفعلَه.

وإذا كان هذا غيرَ مناسبٍ للأنبياء السابقين، فإنه غيرُ مناسبٍ للنبيِّ الخاتمِ محمد ﷺ، لأنَّ الجهادَ أَصيلٌ في رسالته، والحروب بينه وبين أَعدائه مستمرةٌ متواصلة.

وكلمةُ «نبيٌّ» في الجملةِ: نكرة، والتنكيرُ للتعميم، ليوحي بأنَّ هذا الحكمَ سارَ عليه كلُّ نبيٍّ من السابقين، حاربَ أعداءَه وانتصرَ عليهم، وهذا التنكيرُ تكريماً لرسولِ الله ﷺ، وتلطُّفاً في الإخبارِ عنه، وفي عتابه، حتى لا يُواجَهَ بالعتابِ مواجهة.

والمقصودُ من الجملةِ المسلمون، وليسَ شخص رسولِ الله ﷺ، لأنَّ الرسولَ ﷺ شاورَهم، والأغلبيَّةُ منهم هم الذين أشاروا عليه بأَخْذِ الفداء، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يُمثِّلُ رأيَ الأغلبية في ما أَشارَ به.

ومعنى: ﴿يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: يَغلبَ الكفارَ في المعركة، ويُريهم الغلظةَ والشدة، ويوقعَ القتلَ والجراحَ في أَفرادهم.

وردَ في (المعجم الوسيط) ما يلي: «ثَخُنَ: غَلُظَ وصَلُب. وأَثْخَنَ في الأمرِ: بالغَ فيه، وأَثْخَنَ في العدو: بالغَ في قتاله. وأثخنَ في الأرض: بالغَ في قتلِ أعدائِه»[1].

ولم يَرِد (الإثخان) في القرآن إلاّ في موضعين، والموضعان يتحدَّثان عن قتالِ الأعداءِ وقتلهم، وأخذ الأسرى منهم بعد إثخانهم.

الموضعُ الأول هنا في سورة الأنفال. والموضعُ الثاني في سورة محمد، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

عتاب المؤمنين لميلهم للفداء:

بعد الإخبارِ عن تلكَ الحقيقةِ المتعلقةِ بالأسرى تلتفتُ الآيةُ بالخطابِ من الله للمسلمين: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وهذا الخطابُ عتابٌ من اللهِ للمؤمنين، الذين رَغِبوا في أَخْذِ الفداء من الأسرى، ووصفَهم بأنَّهم يريدون عَرَضَ الدنيا، ولذلك أشاروا بأَخْذِ الفداء، واللهُ يريدُ لهم نعيمَ الآخرة.

---

(١) المعجم الوسيط، ص٩٤.

وعَرَضُ الدنيا هو المال، وسُمِّيَ عَرَضاً لسرعةِ زوالِه، لأنَّ الشيءَ العارضَ سريعُ المرور، لا يقفُ ولا يمكثُ، والانتفاعُ بالمالِ سريعٌ قليل، وهو ظلٌّ زائل، وهو مذكورٌ في مقابلِ نعيمِ الآخرة الباقي، وثوابِها الدائم، وفرْقٌ بين المتاعِ الزائل والنعيمِ الدائم، وشتَّانَ بينَ ما يُريدُه المؤمنون لأنفسهم من الزائل، وما يريدُه اللهُ لهم من الباقي.

وقالَ اللهُ للمؤمنين هذا من بابِ عتابِه لهم، وإنكارِه عليهم، وليس من بابِ إدانتِهم والحكمِ عليهم، وإلاَّ فإنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه الذي أشارَ بأَخْذِ الفداء كان زَاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، مخلِصاً لله، ولمَّا أشارَ بأخذِ الفداءِ علَّلَ ذلك بمصلحةِ الإسلامِ، وليس الرغبة في المال، ولذلك قالَ للرسول ﷺ عن الأسرى: هم قومُكَ وأَهلك، استَبْقِهم واستأْنِ بهم، لعلَّ اللهَ أنْ يتوبَ عليهم.

عفو الله عن المؤمنين وحل الفداء لهم:

بعدما عـاتب اللهُ المؤمنينَ بهذه النبـرةِ الشـديدةِ أخبرَهم بفضْلِه عليهم بالعفو فقال: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٨].

والمرادُ بالكتابِ السابقِ من اللهِ هنا: حكمُ اللهِ في اللوحِ المحفوظِ بعفوهِ عنهم، وعُذرِهم فيما أشاروا به مجتهدين، وعدمِ عقابِ أحدٍ إلا بعد تكليفِه ونهيه، ومخالفتِه لما نهاه عنه، ولم يَنْهَهم في حكمٍ سابقٍ عن أخذِ الفداء، فلولا ذلك الحكمُ الإلـٰهيُّ السابقُ بذلك لعاتبَ الصحابةَ لأَخذِهم الفداء.

وما أجملَ ما قالَه الإمامُ الطبريُّ في المرادِ بكتاب الله هنا: «يقول تعالى ذكره لأهل بدر، الذين غَنموا وأَخذوا من الأسرى الفداء: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ...﴾: أي: لولا قضاءٌ من اللهِ سبقَ لكم يا أهلَ بدرٍ في اللوحِ المحفوظ، بأنَّ اللهَ مُحِلٌّ لكم الغنيمة، وأنَّ اللهَ قضى فيما قضى أنَّه لا يُضِلُّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يُبينَ لهم ما يتقون، وأنه لا يُعذِّب أحداً شَهِدَ المشهدَ الذي شَهِدتموه ببدرٍ مع رسولِ الله ﷺ ناصرين دينَ الله، لنالكم من الله بأَخذِكم الغنيمةَ والفداءَ عذابٌ عظيم...»[1].

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/ ٥٣.

وختمَ اللهُ آياتِ العتابِ بمنِّهِ على المسلمين بإباحةِ ما أَخذوا من الغنائم والفداء، ودعاهم إلى أَنْ يأخذوا نصيبَهم منه، وأَنْ يأكلوه حلالاً طيباً، فقال: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٩].

ووصفَ الغنيمةَ والفداءَ بوصفيْن:

الأول: حلال. أي: أَنَّه مباحٌ لهم، يجوزُ لهم أَكْلُه والانتفاعُ به دون عتابٍ ولا عقابٍ ولا حرج.

الثاني: طيب. أي: لذيذ هنيء، يستمتعون ويتلذذون به.

ودلَّت الآياتُ على إباحةِ أَخْذِ الفداءِ من الأَسرى، وانتفاع المسلمين به، على أَنْ يكونَ أَخذُ الأَسرى بعد الإثخانِ في الأَعداء، وأَنزلَ اللهُ آيةً تؤكدُ ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ﴾ [محمد: ٤].

ابن كثير يلخِّص حكم الأسرى:

لخص الحافظ ابن كثير حكمَ الأَسرى الذي تقررُه آيةُ سورةِ الأنفالِ وآيةُ سورة محمد، وهديُ رسولِ الله ﷺ في التعامل مع الأَسرى، فقال: «وقد استقرَّ الحكمُ في الأسرى عند جمهور العلماء: أَنَّ الإمامَ مخيَّرٌ فيهم:

إنْ شاءَ قَتَل، كما فعلَ رسولُ الله ﷺ ببني قريظة.. وإنْ شاءَ فادى بمال، كما فعلَ رسولُ الله ﷺ بأَسرى بدر.. أو بمن أُسِرَ من المسلمين.. كما فعلَ رسولُ الله ﷺ في تلك الجاريةِ وابنتِها، اللتيْن كانتا في سبْيِ سلمةَ بنِ الأكوع رضي الله عنه، حيث ردَّهما، وأَخذ في مقابلهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين.. وإنْ شاءَ استرقَّ مَنْ أَسَر.. هذا هو مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألةِ خلاف آخر بين الأئمة...»[(١)].

أي: أَنَّ الحكمَ النهائـيَّ في الأَسـرى أَنَّه يُفَوَّضُ فيـه الإمامُ ومَنْ حولَه من مستشاريه، ويَختارُ ما فيه مصلحةُ المسلمين: القتلُ، أو الفداءُ بمال، أو مبادلةُ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٢٧.

الأَسرى بين الطرفين، أو المنُّ وإطلاقُ سراحهم دون مقابل، أو أَخْذُهم عبيداً أرقَّاء.

ثمانية أدلة على عدم خطأ الرسول ﷺ بشأن الأسرى:

بعد ذلك نقف لنتساءل: هل أخطأ رسولُ الله ﷺ في تصرُّفه بالأَسرى وأَخذِه الفداء منهم؟ وما معنى العتابِ شديدِ اللهجةِ في الآيات؟.

الرسولُ ﷺ لم يخطئ في ما فعل، وإنما كان على صوابٍ فيه، ودليلُ صوابه ما يلي:

١ ـ لم يكنْ عندَ رسولِ الله ﷺ حكمٌ أو توجيهٌ سابقٌ في الأَسرى، لأنَّها أَوَّلُ مرةٍ يأخذُ فيها المسلمون أَسرى من الكافرين، ولو كان عندهم حكمٌ سابقٌ من الله لنفَّذه وأمضاه، ولما استشارَ فيه أصحابَه.

٢ ـ كان ﷺ باستشارتِه لأَصحابِه منفِّذاً لأَمرِ اللهِ بذلك، في قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد كانَ ﷺ يستشيرُ أَصحابه كثيراً، وفي غزوةِ بدرٍ التي نتجت عنها مسألةُ الأَسرى استشارهم مراتٍ عديدة قبلَ الغزوة وبعدها. وهو محسنٌ في استشارته لهم وليس مخطئاً.

٣ ـ قُدِّمَتْ له ثلاثةُ آراء، رأيُ أبي بكر ورأيُ عمر ورأيُ عبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، وكلُّ واحدٍ علَّلَ رأيَه ودلَّلَ عليه، وكلٌّ منهم أراد مصلحة المسلمين، وكلٌّ منهم مجتهدٌ في رأيه، بدليل أنَّ الرسولَ ﷺ شَبَّهَ كلَّ واحدٍ منهم بنبيٍّ من الأنبياء، فاللَّيِّنُ كان لَيِّناً في الله كإبراهيم وعيسى عليهما السلام، والشديدُ كان شديداً في الله، كنوحٍ وموسى عليهما السلام. وهذا معناه: أنَّه لم يُخطئ أَحدٌ في رأيه الذي قدَّمَه.

٤ ـ كان رأيُ أبي بكر رضي الله عنه يمثلُ أغلبيةَ الصحابة، ولذلك مالَ إليه رسولُ الله ﷺ، ولا خطأَ في رأي الصديق كما قلنا.

٥ ـ ميلُ الرسولِ ﷺ إلى رأيِ الصّدّيق، لأنَّه يتّفقُ مع شخصيتِه ﷺ المفطورةِ على الرحمة، حيثُ أَرسلَهُ اللهُ رحمةً للعالمين، وطالما خُيِّرَ بين أمرين ليس فيهما نصٌّ اختارَ المتفقَ مع شخصيته الرحيمة، فما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بين أَمريْن إلاَّ

اختار أيسرَهما، ما لم يكن إثماً، فإن كانَ إثماً كانَ أبعدَ الناسِ عنه، كما تقولُ عائشةُ رضي الله عنها في وصفه.

٦ ـ دليلُ عدم خطئِه ﷺ في أخذِهِ الفداءَ إباحةُ اللهِ ذلك لهم بآيةٍ صريحة، هي قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [الأنفال: ٦٩].

ولو لم يكنْ ذلك حلالاً لما أباحَه اللهُ لهم، ولأمرَهم بردِّه، وهذا الرأيُ موافقٌ لما في حكم اللهِ الأزلي، الذي أشارَ له قولُه تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

٧ ـ لم يُعاتب الله رسولَه ﷺ في الآياتِ عتاباً مباشراً، إنما أخبرَ عنه إخباراً بصيغةِ الغائب تكريماً له، وذلك في قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾.

العتابُ في الآيةِ موجَّهٌ للمؤمنين، بلفظ صريح، ولهجةٍ شديدة، كما ظهرَ في قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وعتابُه للمؤمنين ليس تخطئةً لهم، لأنَّهم مأمورونَ بالاجتهادِ فيما لا نصَّ فيه، ومعلومٌ أنَّ مَنْ أخطأَ فله أجرٌ واحد، وليس عليه إثم.

٨ ـ ومع أنَّ رأيَ الصّدِّيقِ رضي الله عنه في أَخْذِ الفداءِ صوابٌ وصحيح، وأنَّ موقفَ رسولِ الله ﷺ صحيحٌ أيضاً، إلاَّ أنَّ الأصوبَ والأصحَّ هو رأيُ عمر رضي الله عنه، الذي أشارَ بقتلِ الأسرى، الأَصوبُ في هذه الحالة، التي كانت المرةَ الأُولى في أَخذِ الأسرى من الكفار، والتي لم يُثخن فيها المسلمون في الأرض.

اللهُ يرشده إلى ما هو أولى:

لقد كان عتابُ اللهِ للمؤمنين رغم صحةِ وصوابِ تصرّفهم؛ لأنَّه يرشدُهم إلى الأفضل والأصوب والأصح، ويريدُ منهم ذلك.

وكان هذا العتابُ توجيهاً من اللهِ لرسولِه ﷺ إلى الأفضلِ والأَوْلى.

وخلاصةُ الأمرِ في هذه المسألة:

لم يكن عندَ رسولِ اللهِ ﷺ توجيهٌ سابقٌ من اللهِ بشأْنِ الأَسرى، واستشارَ أَصحابَه تنفيذاً لأمرِ الله بذلك، وكانت الآراءُ الثلاثةُ المقدَّمةُ له صحيحةً وصائبة، لأَنَّه شَبَّهَ كلَّ واحدٍ من الثلاثة بنبيٍّ من أنبياءِ الله، وأَخْذُهُ برأيِ الصِّدّيق رضي الله عنه صحيحٌ صواب، وهو المتفقُ مع شخصيتِه الرحيمة، وهذا الموقفُ يتفقُ مع حكمِ الله السابق بإباحةِ أخذِ الفداء من الأَسرى، ولذلك أحلَّهُ اللهُ للمسلمين، واعتبره حلالاً طيباً.

كلُّ ما هنالك أنَّهُ كان الأَوْلَى والأَفضلُ والأَصحُّ والأَصوبُ لهم في تلك الحادثة الأَخْذَ برأيِ عمر رضي الله عنه وقتلَ الأسرى، ولذلك جاءَ العتابُ للمسلمين ـ ولرسول الله ﷺ من خلالهم ـ بإرشادِهم إلى ذلك الأَولى والأَفضل.

ابن القيم يوجّه موقف الرسول ﷺ:

وما أجملَ ما قال الإمامُ ابن القيّم حولَ هذه المسألة: «وقد تكلَّمَ الناسُ في أيِّ الرأيين كان أَصوب: فرجَّحتْ طائفةٌ قولَ عمر، لهذا الحديث، ورجحتْ طائفةٌ قولَ أبي بكر، لاستقرارِ الأمرِ عليه، وموافقتِه الكتابَ الذي سبق من الله بإِحلال ذلك لهم، ولموافقتِه الرحمةَ التي سبقَت الغضب، ولتشبيهِ النبيِّ ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، عليهما السلام، وتشبيهه لعمرَ بنوحٍ وموسى، عليهما السلام، ولحصولِ الخيرِ العظيمِ الذي حصلَ بإسلامِ أكثرِ أولئكَ الأَسرى، ولخروجِ مَنْ خرجَ من أَصلابهم من المسلمين، ولحصولِ القوةِ التي حصلتْ للمسلمين بالفداء، ولموافقةِ رسولِ اللهِ ﷺ لأبي بكر أولاً، ولموافقةِ اللهِ له آخراً، حيث استقرَّ الأمرُ على رأيه، ولكمالِ نظرِ الصدّيق، فإنَّه رأى ما يستقرُّ عليه حكمُ اللهِ آخراً، وغلَّبَ جانبَ الرحمةِ على جانبِ العقوبة.

قالوا: وأما بكاءُ النبيِّ ﷺ، فإنما كانَ رحمةً لنزولِ العذابِ بمن أَرادَ بذلك عَرَضَ الدنيا، ولم يُرِدْ ذلك رسولُ اللهِ ﷺ، ولا أبو بكر، وإنْ أرادَه بعضُ الصحابة، فالفتنةُ كانت تَعُمّ، ولا تصيبُ مَنْ أرادَ ذلك خاصة»[1].

* * *

(١) زاد المعاد، لابن قيم الجوزية: ٣/ ١١١.

الفَصْلُ الخَامِسُ

إِذْنُ الرَّسول ﷺ لِلْمتخلِّفين عن تبوك

لمّا توجَّهَ الرسولُ ﷺ إلى غزوةِ تبوك في السنةِ التاسعة من الهجرة، أَخبرَ المسلمينَ بوجهتِه، ليستعدُّوا للخروج، واستنفرهم للجهادِ والتوجُّهِ إلى تبوك.

ولبّى المؤمنون نداءَ الرسولِ ﷺ، وخرجوا معه للجهاد، ولكنَّ المنافقين تثاقَلوا عن الجهاد، ورَغِبوا في القعود، ولم يحبُّوا أَن يكونَ قعودُهم مخالفةً صريحةً لأمرِ النبيِّ ﷺ، حتى لا ينكشفوا أمامَ المسلمين، وأرادوا أن يحصلوا على إذنٍ من رسولِ الله ﷺ بذلك، فاستأْذَنوه في القعودِ، فأَذِنَ لهم.

وأنزلَ اللهُ آياتٍ من سورةِ التوبةِ فضحَ فيها المنافقين، وبيَّنَ مكائدَهم وجرائِمَهم، ولذلك سُمِّيَت السورةُ الفاضحةَ، وتحدَّثَتْ آياتُ السورةِ عن حقيقةِ أعذارِ المنافقين وكذِبهم فيها، وعاتبَ رسولَه ﷺ لأنَّه أَذِنَ لهم في القعود.

الزمخشري يسيءُ تفسيرَ آية العتاب:

آية العتابِ هي قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وبينما أحسنَ كثيرٌ من المفسرين فهمَ الآية وما فيها من عتابٍ للرسولِ ﷺ، إلاّ أنَّ بعضَ المفسّرين أَساءَ فهمها وتفسيرَها، وقَدَّمَ كلاماً لا يتّفقُ مع الأدبِ مع رسولِ الله ﷺ!. واعتبرَها بعضُهم إدانةً من اللهِ لرسولِه ﷺ، وإثباتاً لخطئِه، وأَثاروا منها شبهةً ضدَّه ﷺ.

فها هو الزمخشريُّ يفسرُ قولَه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بقوله: «كنايـةٌ عن الجناية، لأنَّ العفوَ رادفٌ لها، ومعناه: أَخطأْتَ وبئسـما فعلْتَ!! وقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾: بيانٌ لما كنى عنه بالعفو. ومعناه: ما لَكَ

أَذنتَ لهم في القعودِ عن الغزوِ حين استأذنوك، واعتلّوا لك بعللهم، وهلا استأْنيتَ بالإذن، حتى يتبينَ لك مَن صَدَقَ في عذْرِهِ ممنْ كَذَبَ فيه. . . »[١].

ولقد أساءَ الزمخشريُّ في هذا التفسير، ولم يلتزمْ بالأدبِ مع رسولِ الله ﷺ، فاللهُ خاطبَ رسولَه بخطابِ الرأفةِ والرقةِ واللطف، فقال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، والزمخشريُّ تكلَّم عنه بالغلظةِ والقسوةِ وسوءِ الأدب!.

وما أَجملَ قولَ أبي حيان في الدعوةِ إلى تجاهلِ كلام الزمخشريّ: «وكلامُ الزمخشريِّ في تفسير الآية مما يجبُ اطراحُه، فضلاً عن أنْ يُذكَرَ فيردّ عليه»[٢].

مناسبة نزول آية العتاب:

حتى نحسنَ فهمَ آيةِ العتاب، وتوجيهَها، لا بدَّ أنْ ننظرَ إليها من خلالِ السياقِ الذي وردَتْ فيه، والجوِّ العامِّ الذي نزلَتْ فيه أيضاً.

قال الإمامُ ابنُ إسحاقَ في السيرةِ: «إنَّ رسولَ الله ﷺ أمرَ أصحابَه بالتَّهيُّؤ لغزوِ الروم، وذلك في زمانٍ من عسرةِ الناس، وشدةٍ من الحر، وجدْبٍ من البلاد، وحين طابت الثمار، والناسُ يحبّون المقامَ في ثمارِهم وظلالِهم، ويَكرهون الشخوصَ [الخروج] على الحالِ الذي هم عليه. . وكانَ رسولُ الله ﷺ قلَّما يخرجُ في غزوةٍ إلاَّ كنَّى عنها، وأخبرَ أنَّه يريدُ غيرَ الوجْهِ الذي يصمدُ [يتوجَّه] له. . إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنَّه بيَّنَها للناسِ، لبُعدِ الشُّقَّةِ، وشدَّةِ الزمان، وكثرةِ العدوِّ الذي يصمدُ له [الروم] ليتأهَّبَ الناسُ لذلك أُهبته، فأَمرَ الناسَ بالجهاز، وأَخبرَهم أنَّه يريدُ الروم. .

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يوم، وهو في جَهازه ذلك للجَدِّ بن قيس، أحدِ بني سَلِمَة: يا جَدّ! هل لك هذا العام في جلادِ بني الأَصْفر؟ [في قتال الروم]. . فقال: يارسولَ الله! أَوتأْذَنُ لي ولا تفتنّي؟ فوالله لقد عَرفَ قومي أنَّه ما من رَجل بأشدَّ عُجْباً بالنساءِ مني، وإِني أخشى إنْ رأيتُ نساءَ بني الأَصفر أن لا أصبر عنهن! . . فأعرضَ عنه رسولُ اللهِ ﷺ، وقال: قد أَذنْتُ لك! فأَنزلَ اللهُ فيه قولَه تعالى:

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/ ٢٧٤.

(٢) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان: ٥/ ٤٢٧.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

.. وقالَ قومٌ من المنافقين بعضُهم لبعض: لا تَنْفِروا في الحَرِّ. زهادةً في الجهاد، وشكّاً في الحق، وإرجافاً برسولِ الله ﷺ. فأنزلَ اللهُ فيهم قولَه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١][1].

آيات سورة التوبة تفضح المنافقين:

في هذا الجَوِّ أنزلَ اللهُ آياتٍ في فضحِ المنافقين، وكشفِ زيفِهم، وتكذيبِهم في أعذارِهم، وتحذيرِ المسلمين من مكائدِهم..

قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٢ ـ ٤٩].

وقال الله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ٤/ ١٣١ ـ ١٣٢.

﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٨٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦ ـ ٨٧].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٣ ـ ٩٦].

ذمّ المنافقين والمتخلّفين عن الغزوة:

حتى نعرفَ حكمةَ إذنِ الرسولِ ﷺ للمنافقين بالتخلُّفِ عن غزوةِ تبوك لا بدَّ أن ننظرَ في هذه الآياتِ التي تتحدَّثُ عن المتخلّفين المتثاقلين، المستأذنين بالتخلّف، ثم المعتذرين عنه.

بدأت المجموعةُ الأُولى من الآياتِ بذمِّ المنافقين المتخلِّفين، فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾. أي: لو كان الخروجُ للغزوِ الذي دعوتَهم إليه نفعاً مادياً من متاع الدنيا وزينتِها قريبَ المنال، سهلَ المأخذ، لخرجوا معك، ولو كان السفرُ الذي سيسافرونه سَفَراً قصيراً وَسَطاً لاتَّبعوك، لا لأجلك ولا لأجلِ الجهاد، وإنما لأجلِ المنفعة، واتّباعاً للهوى والمصلحة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾.

وعندما دعوتَهم للخروجِ إلى تبوك لم يستجيبوا لك، لأنَّ المسافةَ بعيدة، والوصولَ إليها يكلّفُهم كثيراً من الجهدِ والمشقة: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾.

وهم لم يُصرّحوا بهذا السببِ في عدمِ خروجِهم للجهاد، وعندما تسألَونهم عن السبب سيبررون ذلك بعدمِ قدرتِهم واستطاعتِهم واستعدادِهم، وسيَحلفون

باللهِ أنَّهم لو استطاعوا الخروجَ للجهادِ لخرجوا: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾.

وهم كاذبون في كلامِهم واعتذارِهم وحلفهم، وبذلك يوقعون أنفسهم في الهلاكِ والخسارة، لأنَّ مَنْ كَذَبَ فقد أَهلكَ نفسَه، فكيفَ إذا حلفَ باللهِ الأَيْمانَ المغلَّظةَ وهو كاذب: ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

وقد جاءَ المنافقون الكاذبون للرسولِ ﷺ قبلَ خروجه إلى تبوك، يستأْذنونَه في القعود، معتذرِين بأَعذارٍ واهية، ورأى الرسولُ ﷺ أنَّ من المصلحةِ أَنْ يأذنَ لهم بذلك، فعاتبَهُ اللهُ لإذنِه لهم بالقعود، وكان الأَوْلَى أَنْ يتأنَّى بالإِذْن، ليعرفَ الصادقين من المستأذنين بالقعود، الذين قَعَدَ بهم عذرٌ قاهر، ويعرفَ الكاذبين في استئذانِهم وأَعذارِهم: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

بين استئذان المؤمنين واستئذان المنافقين:

لقد فرَّقت الآياتُ بين فريقين، فريقِ المؤمنين وفريقِ المنافقين، فالرسولُ ﷺ استنفرَ الفريقين للجهاد، وأَمرهم بالخروجِ إلى تبوك، فماذا كان موقفُ الفريقين؟.

المؤمنون باللهِ واليومِ الآخر، سارَعوا في تنفيذِ الأمرِ والخروجِ للجهاد، ولم يأتوا للرسولِ ﷺ ليستأْذنوه في الخروج للجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، لأنَّ الرسولَ ﷺ كلَّفهم بذلك، ولا معنى للاستئذانِ في فعلِ أمرٍ واجب، فالصلاةُ واجبةٌ مَثلاً، وليس من المعقولِ أنْ يأتيَ مسلمٌ يستأذنُ الإمامَ قائلاً: أَتأذنُ لي في أداءِ الصلاة!!.

ولذلك أثنى اللهُ على هؤلاءِ المؤمنين الصادقين، المسارعين بالخروج للجهاد، وتنفيذِ الأمر دون استئذان للجهاد: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

أما المنافقون الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فإنهم لما سمعوا أَمْرَ الرسولِ ﷺ بالخروجِ للجهاد، جاؤوه ليستأذنوه في القعودِ وعدمِ الخروج،

واعتذروا له بالأعذارِ الواهيةِ ليبرروا بها قعودَهم، والذي دفعهم إلى عدم الخروجِ وطلبِ الإذنِ بالقعودِ هو عدمُ إيمانهم بالله واليوم الآخر، والريبُ والشكُّ الذي سيطرَ على قلوبهم، فصاروا يتردَّدون في ذلك الريب. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

وقد كَذَّبَ اللهُ أولئكَ المنافقين المستأذنين في أعذارِهم، وبيّنَ أنّهم قادرون على الخروج إلى الجهاد، لأنّهم يملكون المالَ والنفقةَ والعُدَّة، فلو أرادوا الخروجَ لأعدُّوا عدَّتَه من السلاحِ والنفقة، ولكنهم لا يريدون ذلك: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُۥ عُدَّةً﴾.

عدم خروج المنافقين خير للمسلمين:

بما أنَّ اللهَ يعلمُ ما في نفوسِ المنافقين من كيدٍ ومكرٍ وتآمرٍ على المسلمين المجاهدين، فقد كرهَ انبعاثَهم وخروجَهم للجهاد مع المؤمنين، وثبّطَهم وكَسّلَهم، وأَضعفَ رغبتَهم، وقتَلَ همّتهم، فقعدوا متخلِّفين مع القاعدين من العجائز والنساء والأطفال: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

وكانَ عدمُ خروجِ المنافقين للجهادِ خيراً للمسلمين، ولذلك أخبرَ اللهُ المسلمين بأنَّ المنافقين لو خرجوا معهم للجهادِ فلن يجاهدوا، وإنما سيَزيدون المؤمنين خَبالاً وفَساداً وشراً واضطراباً، وسيُسرعون بينهم بإيقاعِ الفتنةِ والفرقةِ والخذلان. وفي المسلمين أفرادٌ قلائل يسمعونَ لهم في ذلك الحين، ويتأثّرون بهم، وسيؤدّي هذا إلى إضعافِ المجاهدين، ولذلك أرادَ اللهُ بالمسلمين الخيرَ في عدم إخراج المنافقين معهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والدليلُ على أنَّ المنافقين حريصون على فتنةِ المسلمين وتخذيلهم صدورُ ذلك منهم قبلَ الخروجِ إلى تبوك، فقد ابتغوا الفتنةَ يومَ أُحُد، حيثُ انفصلَ زعيمُ المنافقين عبدُ اللهِ بن أُبَيّ بثلثِ الجيش، ولم يشتركْ في الغزوة: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾.

وقد بذلوا كلَّ جهودِهم في حربِ رسولِ الله ﷺ والقضاءِ على دعوتِه، منذُ أن هاجرَ إلى المدينة، ودبَّروا الحيلَ والمكائدَ والمؤامرات، ولكنَّ اللهَ أفشلَهم وأبطلَ كيدَهم. . وظهرَ أَمْرُ اللهِ وانتصرَ دينُه وهم كارهون: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

تهديد المنافق (الجد بن قيس):

ختمت هذه المجموعة من الآيات [٤٢ ـ ٤٩] بعرْضِ نموذجٍ لاعتذارِ واستئذانِ أَحَدِ المنافقين الكاذبين، إنه (الجِدُّ بنُ قيس)، حيثُ دعاهُ الرسولُ ﷺ للخروجِ إلى تبوك، لكنّه طلبَ الإذنَ له بالقعود، لئلا يُفْتَنَ بنساءِ الروم الجميلات: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

روى الطبريُّ عن الزهريِّ: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال ـ وهو في جهازه ـ للجَدِّ ابن قيس أخي بني سَلِمَة: هل لك يا جَدُّ في جلادِ بني الأصفر؟. . فقال: يارسولَ الله! أَلا تأْذَنُ لي ولا تفتنّي! فواللهِ لقد عرفَ قومي ما رجلٌ أَشَدُّ عُجْباً بالنساءِ مني، وإني أَخشى إنْ رأيتُ نساء بني الأصفر أن لا أصبرَ عنهن! فأَعرضَ عنه رسولُ الله ﷺ، وقال: قد أَذنتُ لك!.

فأنزلَ اللهُ فيه قولَه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: إن كان يخشى الفتنةَ من نساءِ بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنةِ بتخلُّفِه عن رسولِ الله ﷺ أعظم. . .»[1].

ولما أذنَ رسولُ الله ﷺ للمنافقين بالقعود، وخرجَ مع أصحابِه المجاهدين إلى تبوك، فرح أُولئكَ المنافقون المتخلفون بمقعدِهم في المدينة، وإيثارهم الراحةَ والسلامة، واعتبروا عدمَ نفيرِهم في حَرِّ الصيف مكسباً ونجاة، فهددَهم اللهُ بنارِ جهنَّم وحرِّها، وأخبرهم أنهم ذاهبون إليها، عند ذلك سينقلبُ فرحُهم حزناً، وضحكُهم بكاءً: قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ

---

(١) تفسير الطبري: ١٦٩/١.

حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٨٢].

وأمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن لا يستصحبَهم معه في أيِّ غزوةٍ قادمة، لأنَّهم رضوا بالتخلُّفِ والقعودِ أولَ مرة، فقال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

وبعدما عادَ الرسولُ ﷺ من غزوةِ تبوك سالماً، وصارَ يحاسبُ المتخلّفين في المدينة، جاءَ المنافقون الكاذبون بأعذارٍ كاذبةٍ، وفضحَهم اللهُ بقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

بين اعتذار المؤمنين واعتذار المنافقين:

فرّقت الآياتُ بين الذين لم يخرجوا مع الرسولِ ﷺ لعذرٍ مقبول، كضعفٍ أو عجزٍ أو مرض، أو عدمِ وجودِ عُدَّةٍ للسفرِ والخروج، وبين الذين لم يخرجوا بسبب التثاقُل والكسل، فاستأْذنوا للقعود، مع أنَّهم أغنياءُ قادرون على الخروج.

قال تعالى عن الذين تخلفوا بعذر: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

وذَمَّ اللهُ المتخلّفين من دون عذر، الذين استأذنوا الرسولَ ﷺ في القعود ورضوا بأَنْ يكونوا مع الخوالف، مع أنَّهم أغنياءُ يقدرونَ على الخروج، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

وتوجَّهت الآياتُ بعد ذلك بالخطابِ للمؤمنين، لتكشفَ وتفضحَ المنافقين الكاذبين المتخلّفين، وأخبرتْهم أنّهم عندما يعودون للمدينة سيأتيهم المنافقون

معتذرين، وعلَّمَتْهم ماذا يقولون لهم رداً على اعتذارهم. فقال تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩٤].

وأَخبرَهم أنَّ المنافقين المتخلِّفين سيحلفونَ لهم الأيمانَ المغلَّظةَ الكاذبةَ يبررون قعودَهم، بهدفِ قبولِ عذرِهم والإعراضِ عنهم، وتَدعوهم إلى الإعراضِ عن أولئكَ المنافقين وإهمالهم، احتقاراً وتصغيراً لهم. فقال تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

الذين لم يخرجوا للجهاد خمسة أصناف:

لم يكن الذين لم يخرجوا مع رسولِ الله ﷺ إلى تبوك كلُّهم منافقين، وليسوا صنفاً واحداً، ويمكنُ تقسيمُهم إلى الأقسامِ التالية:

١ ـ مَنْ أَمَرَهُ الرسولُ ﷺ بالبقاءِ في المدينة، وهو عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، حيثُ أَمَّرَهُ الرسولُ ﷺ على المدينة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه قال: «خَلَّفَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب في غزوةِ تبوك، فقال: يا رسولَ الله! أتُخلِّفُني في النساء والصبيان، فقال: ألا ترضى أنْ تكونَ منّي بمنزلةِ هارون من موسى، غيرَ أنّه لا نبيَّ بعدي...»[1].

٢ ـ المتخلِّفونَ من أصحابِ الأعذار، الذين أَعذرهم الله لعجزِهم وعدمِ استطاعتِهم، كالضعفاءِ والمرضى والنساء والأطفال، والذين لم يجدوا دابةً يَركبونها ويَخرجون عليها.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، حديث رقم: ٤٤١٦؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب، حديث رقم: ٢٤٠٤.

وينطبقُ على هؤلاء المعذورين قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

٣ ـ الذين تَخلفوا بغيرِ عذرٍ من المؤمنين الصادقين، وكان تخلُّفُهم قليلاً، ثم استعلوا على ضعفِهم وكسلِهم، وقَويَ إيمانُهم والتزامُهم، فلحقوا بالرسولِ ﷺ إلى تبوك، وانضمُّوا إلى الجيش.

وفي مقدمةِ هؤلاء أبو خيثمة الأنصاريُّ رضي الله عنه، وكان قد تأَخَّرَ في أَرضِه بين نَخْلِه وزوجتَيْه، فبينما هو على وشكِ الجلوسِ في الظلِّ أَمامَ البيت، تذكَّرَ رسولَ الله ﷺ وهو وأصحابُه في الحر، فركبَ فرسَه ولحقَ بهم، وأدركهم وهم في تبوك.

روى مسلم عن كعبِ بن مالك الأنصاريِّ رضي الله عنه في قصةِ تخلُّفه عن غزوةِ تبوك هو وإِخوانُه، أَنَّه قالَ عن أبي خيثمة: «... فبينما رسولُ اللهِ ﷺ على ذلك، رأى رجلاً مُبَيِّضاً يزولُ به السَّراب. فقالَ رسولُ الله ﷺ: كُنْ أبا خيثمة! فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري.. وهو الذي تصدَّقَ بصاعِ التمرِ حين لمزَه المنافقون»[1]

٤ ـ الذين تخلَّفوا بغيرِ عُذْرٍ من المؤمنين الصادقين، ولكنهم لم يلتحقوا بالرسولِ ﷺ، ولما سأَلَهم عن سببِ تخلُّفِهم، صَدَقوه الحديث، وأَخبروه أَنَّ السببَ هو الكسلُ والتثاقل.

فأَمرَ رسولُ الله ﷺ المسلمينَ بمقاطعتهم، ثم أَنزلَ اللهُ آياتٍ في قَبول توبتهم، وكانوا ثلاثةً من الأنصار، هم: كعبُ بن مالك، ومُرارةُ بن الربيع، وهلالُ ابن أُمية، رضي الله عنهم. وهم الذين أَشارَ لهم قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث رقم: ٢٧٦٩.

وقد أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ قصةَ هؤلاء المخلَّفين الثلاثة الصادقين، وتوبةَ اللهِ عليهم، التي رواها أحدهم، وهو كعب بن مالك رضي الله عنه[1].

٥ ـ المتخلِّفون بغيرِ عذر، من المنافقين الذين في قلوبهم مرض، الكاذبون في كلامهم وأعذارِهم وأيمانِهم، وهم الذين أنزلَ اللهُ الآياتِ العديدةَ في كشفِهم وفضحِهم.

وهؤلاء الذين استأذنوا رسولَ الله ﷺ في القعود، ورأى ﷺ من الحكمةِ أَنْ يأذنَ لهم.

وهم الذين عاتبَ اللهُ رسولَه ﷺ فيهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

صياغة آية العتاب:

من لطائف التعبيرِ في الآية افتتاحُها بالإعلامِ بالعفو، حيث قالَ اللهُ له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى فضلِه وعلوِّ منزلتِه عندَ الله.

وفي هذا الخطاب إشارةٌ إلى خفَّةِ موجبِ العتاب، كأنَّه قالَ له: ما كان ينبغي لكَ أَنْ تأذنَ لهم.

والاستفهامُ في قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إنكاري، والهدفُ منه عتابُ الرسولِ ﷺ، وهو صيغةٌ لطيفةٌ في الإنكار، تُشيرُ إلى أنَّ الإذنَ لهم بالقعودِ لابدَّ أَنْ يكونَ له سبب، رجا منه رسولُ الله ﷺ مصلحةَ المسلمين.

لقد أَرشدَ اللهُ رسولَه ﷺ في هذه الآية إلى أنَّ الأَوْلى كان عدمَ العجلةِ والمسارعة بالإذن للمنافقين بالقعود، والتأنّي والتمهُّل في الإذن، حتى يتبيَّنَ ويتَّضحَ له المؤمنون الصادقون في أَعذارِهم، والمنافقون الكاذبون في أَعذارِهم.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، حديث رقم: ٤٤١٨؛ وصحيح مسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث رقم: ٢٧٩٩.

أو: كان الأَوْلى أَنْ لا يأذنَ لهم بالقعود، ويأْمرهم بالخروج معه للجهاد، وعندما يُخالفون أَمْرَه ويقعدون، سينكشفُ أَمرُهم أَمامَ المسلمين، ويَعرفونَهم على حقيقتِهم.

توجيه إذن الرسول ﷺ للمتخلّفين:

نختمُ كلامَنا على إِذنِ الرسولِ ﷺ للمنافقين بتوجيهِ ذلك الإذن، ونتعرّفُ على الحكمةِ من إِذنِه لهم بالقعود والتخلُّف.

كانَ رسولُ اللهِ ﷺ متوجِّهاً مع أَصحابِه إلى تبوك، وسيغيبُ عن المدينة مدةً طويلة، وليس في المدينة من الرجالِ المؤمنين إلاّ عددٌ قليلٌ من الضعفاءِ والمرضى والعاجزين والنساء والأطفال، وفيها مجموعة من المنافقين.

وجاءَ المنافقون إلى رسولِ اللهِ ﷺ يستأْذنونه في القعود، وهم مصرّون على القعود حتى لو لم يأْذَن لهم فيه، ولو أَمرهم بالخروجِ فسوفَ يُعلنونَ المخالفةَ والعصيان ولن يخرجوا.

قال مجاهد في الآية: نزلَتْ هذه الآيةُ في أُناسٍ قالوا: استَأْذِنوا رسولَ الله ﷺ، فإنْ أَذِنَ لكم فاقْعُدوا، وإِنْ لم يأذَنْ لكم فاقعُدوا..[1].

عرفَ رسولُ الله ﷺ إصرارَ هؤلاء على القعود، وهو الآن بين خياريْن: فإمَّا أَنْ يأْذَنَ لهم في القعود، وإمَّا أَن يأْمرهم بالخروج.

ولو أمرَهم بالخروجِ معه فماذا سيحصل؟ سيعلنون المخالفةَ والتمرُّدَ والعصيان، ولن يخرجوا معه.

فهل من المصلحـةِ أَنْ يَخرجَ الرسولُ ﷺ من المدينةِ مع رجالِه وجنودِه، ويغيبَ عنها حوالي شهر، وفيها مجموعةٌ من المنافقين المخالِفين المتمرّدين؟ وكيفَ سيتركُ هؤلاء العصاةَ المتمرّدين في عاصمةِ الإسلام، يَعيثون فيها فساداً، ويتَّفقون مع اليهود؟ وكيفَ سيكونُ وضْعُ الأَمنِ والاستقرارِ في هذه المدة، التي يتحرَّكُ فيها المتمرّدون، ولا يَجدون رجالاً يدفعونهم؟.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦٠.

إذنْ ليس من الحكمةِ تكليفُ هؤلاء المستأْذِنين بالخروج، وعدمُ الإذنِ لهم بالقعود، لأنَّهم قاعدون في المدينة، أُذِنَ لهم في ذلك أم لم يُؤذَنْ لهم.

لقد تصرَّفَ رسولُ اللهِ ﷺ بالحكمة، وبما فيه مصلحةُ المسلمين، فأَذِنَ لهم بالقعود احتقاراً لهم، وإعراضاً عنهم، وبذلك فوَّتَ الفرصةَ عليهم، وأَمَّنَ المدينةَ في غيبته، وقضى على محاولاتهم الإفسادَ فيها.

إنَّهم جالسون في المدينة، مأْذونٌ لهم من رسولِ الله ﷺ، فهم في الظاهرِ مُطيعونَ للرسول ﷺ، وليسوا عاصينَ له، متمرّدين عليه.

وقد تولَّى اللهُ بعد ذلك فضْحَهم وكشْفَهم، وبيانَ أكاذيبهم وانحرافاتهم، بما أَنزلَ من الآيات على رسولِه ﷺ، وما أَنْ عاد المسلمون إلى المدينة حتى تعرَّفوا على مكائدِ أُولئك المنافقين.

عتاب الرسول ﷺ لإرشاده لما هو أولى:

إذا كانَ الأمرُ كذلك، وكان رسولُ الله ﷺ على صوابٍ في إذنِه لهم بالقعود، ولم يخطئ أَو يُذنبْ في ذلك، فلماذا عاتَبَه اللهُ إذن، وقالَ له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾؟.

لقد أرشدَ اللهُ رسولَه ﷺ إلى ما هو أَوْلى، فرغْمَ أَنَّ تصرُّفَه صحيحٌ وصواب، لكنَّ اللهَ يريدُ له دائماً، الأَصوبَ والأَصحَّ والأَفضلَ والأكمل.

الأَوْلى له كما قال اللهُ له أَنْ لا يأذنَ لهم بالقعود، وأن يتأنَّى ويتمهَّل في ذلك، ليتَّضحَ ويتبيَّنَ له الأمر، فيعرفَ المؤمنين الصادقين في أعذارِهم، لعجزِهم عن الخروجِ لمرضٍ أو ضعفٍ أو فقر، ويعرفَ الكاذبين في أَيمانِهم وأَعذارِهم، وبذلكَ يُميِّزُ الصادقين من الكاذبين.

قالَ القاسمي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «اعلمْ أنَّ في تصديرِه تعالى الخطابَ ببشارةِ العفو، دونَ ما يوهم العتاب، من مراعاةِ جانبه عليه الصلاة والسلام، وتعهُّدِه بحسنِ المفاوضة، ولطفِ المراجعة، ما لا يخفى على أُولي الألباب.

قالَ سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف، بدأَ بالعفو قبلَ ذِكْرِ المغْفُوّ.

وقال مكّي: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾: افتتاحُ كلام، مثل: أصلحَكَ الله، وأعزَّكَ الله.

وقال الداودي: إنها تكرمةٌ من اللهِ لنبيّه ﷺ.

وما اشتهرَ من كونِ العفوِ لا يكونُ إلاَّ عن ذنبٍ غيرُ صحيح، والواجبُ تفسيرُه في كلِّ مقامٍ بما يناسبُه.

وقالَ الشهاب: وهو يستعملُ حيثُ لا ذنب. كما تقولُ لمن تعظِّمه: عفا الله عنك، ماذا صنعتَ في أمري؟.

وقالَ القاضي عياض: وأَمَّا قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾: فأَمْرٌ لم يتقدمْ للنبيّ ﷺ فيه من الله نهي، ولا عَدَّهُ الله عليه معصية.

وقال نِفْطَوَيْه: وقد حاشاهُ اللهُ من ذلك، بل كان مخيَّراً بين أَمريْن، لأنَّه كان له أَنْ يفعلَ ما يشاء، فيما لم يَنزلْ عليه وحي»[1].

* * *

(١) تفسير القاسمي: ٨/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

الفصل السادس

صلاة الرسول ﷺ على زعيم المنافقين

كان عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ زعيماً للمنافقين، وكان شديدَ العداوةِ للرسول ﷺ، لأنَّه يراهُ حَرَمَه ملكاً في المدينة، فقد كانَ زعيماً لقومِه الخزرج قبلَ الهجرة، وقد اتفقَ الأَوْسُ والخـزرَجُ على أنْ يُتَوِّجـوه ملكاً عليهم، للقضـاءِ على خلافاتِهم ونزاعاتِهم، وبينما كانوا يُعِدُّون لحفْلِ تتويجِه ملكاً عليهم شرحَ اللهُ صدورَ فريقٍ منهم للإسلام، فبايَعوا الرسولَ ﷺ بيعةَ العقبةِ الأُولى وبيعةَ العقبةِ الثانية، ونتجَ عن ذلك هجرةُ الرسول ﷺ إلى المدينة.. وبذلك فاتت فرصةُ الزعامةِ على عبدِ الله بن أُبيّ. ولذلك أكلَ الحقدُ على رسولِ الله ﷺ قلبَه، وصارَ يكيدُ له ويتآمرُ عليه.

عداوة زعيم المنافقين لرسول الله ﷺ:

بعدما نصرَ اللهُ المسلمين في غزوةِ بدر عرفَ ابنُ أُبيّ استحالةَ القضاءِ على الإسلام بالمواجهة العلنية، فاتّفقَ مع اليهودِ ومع رجالٍ من قومه الحاقدين على الدخولِ في الإسلام، لحربه من الداخل!.

وأسَّسَ ابنُ أُبيّ حركةَ المنافقين بعد غزوة بدر بقوله: «هذا أَمْرٌ قد توَجَّه». أيْ: أَمْرُ الإسلام في صعودٍ وقوة، ولابدَّ من الوقوفِ أَمامَ انتشارِه بالدخولِ فيه. فأَعْلَنَ هو وجماعتُه إِسلامَهم بأَلسنتهم، وأَخفوا في قلوبهم الكفر، وهدفُهم من ذلك خداعُ المسلمين. وقد كذَّبَهم اللهُ في هذا الإعلان بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨ ـ ٩].

والمنافقون كفارٌ في الحقيقة، ولا ينفعُهم الجهرُ بالإسلام، ولهذا هم في الدَّرْكِ الأسفلِ من النارِ يومَ القيامة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

واستمرَّ عبدُ الله بن أُبي مع المنافقين الذين معه في العداوةِ للمسلمين، ورسْمِ المكائدِ والمؤامرات ضدَّهم، من السنةِ الثانية حتى السنةِ التاسعةِ للهجرة، حيث توفيَ في آخرِ تلك السنة.

وكان لعبدِ الله بن أُبيّ ولدٌ مؤمنٌ صالح، أسماه أَبوه (الحُباب)، فَغَيَّرَ رسولُ الله ﷺ اسمَه، وسمَّاه (عبد الله)، وكان عبدُ الله الابنُ محبّاً لله ورسوله، ويكرهُ أباه (عبد الله) لنفاقِه وكفره وعداوتِه.

وبعدَ عودةِ الرسولِ ﷺ من تبوك في السنةِ التاسعةِ من الهجرة مرضَ عبدُ الله ابنُ أُبيّ مرض الموت، وجاءَه الرسولُ ﷺ يعوده، ولما تُوفّيَ عبدُ الله بنُ أُبي في ذي القعدة من السنةِ التاسعة، صلّى رسول الله ﷺ عليه صلاةَ الجنازة، بعدَ حوارٍ دار بينَه وبينَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه.

وأنـزلَ اللهُ بعد ذلـكَ آيـةً صريحـةً يَنهاهُ فيها عن الصـلاةِ على أَحَـدٍ من المنافقين، والقيام على قبرِه عند دفنِه. قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

فكيفَ صلّى رسولُ اللهِ ﷺ على منافقٍ كافر، هو زعيمُ المنافقين؟ وهل أَخطأَ في ذلك أم لا؟.

نتابعُ هذا الموضوعَ من خلالِ آياتِ القرآن، وأحاديث رسولِ الله ﷺ، لنتعرّفَ على تلك الحادثة، ونُحسنَ تحليلها، تمهيداً لتوجيهها بإذن الله!.

زعيم المنافقين يرفض الاعتذار من رسول الله ﷺ:

عندما كان المنافقون يرتكبون المخالفات، ويتآمرون على المسلمين، كان القرآنُ يدعوهم إلى المجيءِ إلى الرسولِ ﷺ معتذرين تائبين، ويطلبوا منه أَنْ يستغفرَ اللهَ لهم. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وكان المنـافقون يرفضونَ تلبيـةَ الدعوةِ عنـاداً واستكباراً، لأنَّهم يرون أنفسهم أكرمَ وأعزَّ من رسولِ الله ﷺ، فكيف يأتونَ إليهِ معتذرين، طالبين منه العفوَ والصفحَ واستغفارَ الله لهم؟.

ومن الحوادثِ الدالةِ على استكبارِهم ما أشارَ له قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٥ ـ ٦].

وقد أنزلَ اللهُ هاتيْن الآيتيْن في فعلةٍ قبيحةٍ لزعيمِ المنافقين عبدِ الله بنِ أُبيّ، أَوردَها الإمامُ ابنُ كثير في تفسيره. قال: «قالَ محمدُ بنُ إسحاقَ عن محمدِ بن شهاب الزهري: لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة، بعدَ مرجعِه من غزوةِ أُحُد، وقفَ عبدُ الله بنُ أُبيّ بين يديه عندما صعدَ المنبر، وكان لابنِ أُبيّ مَقامٌ يقومُه بين يدي النبي ﷺ يومَ الجمعة؛ فيمدحُه ويطلبُ من الناسِ نصرتَه، كذباً ونفاقاً، يقولُ لهم: هذا رسولُ الله ﷺ بين أَظهركم، أَكرمكم اللهُ وأَعزَّكم به، فانصُروه وعَزّروه واسمَعوا له وأَطيعوا، ثم يجلس!!.

ولما صنعَ ما صنع يومَ أُحُد، وانفصلَ بثلثِ الجيش، وخذلَ رسولَ الله ﷺ، انكشفَ أَمره للمسلمين، ولما قامَ يتكلّمُ أَمامَ رسولِ الله ﷺ يومَ الجمعة كعادته، أَخذَ المسلمون بثيابه، وقالوا له: اجلسْ يا عدوَّ الله، لستَ أهلاً لتتحدَّثَ بين يدي رسولِ الله ﷺ، وقد فعلْتَ ما فَعَلْتَ يومَ أُحُد!.

فخرجَ وهو يتخطّى رقابَ الناس، ويقول: واللهِ لكأنّما قلتُ كلاماً قبيحاً، لقد قمتُ أَشُدُّ أمره!!.

فلقيهُ رجالٌ من الأَنصار وهو غضبان بباب المسجد، فقالوا: ويلكَ ما لكَ؟ قال: قمتُ أَشُدُّ أَمره، فوثبَ عليَّ رجالٌ من أَصحابِه، يَجذبونني ويُعَنِّفونني!!.

فقالوا له: ويلك، ارجعْ يستغفرْ لك رسولُ الله ﷺ.

فقال: واللهِ ما أُريدُ أَنْ يستغفرَ لي!!.

فأنزلَ اللهُ هذه الآياتِ من سورة المنافقون»[1].

أَخبرَ اللهُ فيها أَنَّه إذا طُلِبَ من المنافقين أَنْ يأتوا إلى رسولِ الله ﷺ معتذرين

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥/ ٣٦٠ ـ ٣٦١.

عن أفعالِهم القبيحة، فإنَّهم لا يلبّون تلك الدعوة، ويلْوُونَ رؤوسهم، ويَصُدُّون ويُعرضون عناداً واستكباراً.

وهم الخاسرون بذلك، لأنَّهم يحرمون أنفسَهم من دعاءِ الرسولِ ﷺ واستغفارِه، وبذلك يُهلكونَ أنفسَهم.

وقد أخبرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنَّه لا ينفعُهم استغفارُه، لأنَّهم كافرون في الحقيقة، ولو أرادَ الرسولُ ﷺ أن يستغفرَ اللهَ لهم، فإنَّ اللهَ لا يستجيبُ له فيهم، لأنَّ استغفارَه في الكافرين لا يُقبَل، فقال له: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

نهى الله المؤمنين عن الاستغفار للكافرين:

نهى اللهُ المؤمنينَ عن الاستغفارِ للكافرين، ولو كانوا أَقربَ الناسِ إليهم، لأنَّ دعاءَهم واستغفارهم لهم غيرُ مقبولٍ عندَ الله. فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

أَي: لا يجوزُ للرسولِ ﷺ والمسلمين الذين معه أَنْ يَستغفروا للكافرين المشركين، الذين ماتوا على ذلك، ولو كانوا أقربَ الناسِ إلى المؤمنين، لأنَّهم بموتهم كفاراً يكونون من أصحابِ الجحيم، ولا يَدخلونَ الجنّةَ أبداً، لأنَّ اللهَ حرَّمَها على كلِّ كافر! ولذلك لم يستغفرْ رسولُ الله ﷺ لأَقربِ الناسِ إليه من الكافرين، كعَمِّه أبي طالب، الذي ماتَ كافراً.

ولا يجوزُ لأحدٍ من المسلمينَ أَنْ يحتجَّ على استغفارِه لقريبه الكافر بفعلِ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقد استغفرَ إبراهيمُ عليه السلام لأَبيه آزر، لأنَّه وعدَه أنْ يستغفرَ اللهَ له، طامِعاً في إيمانِه، وقد نَفَّذَ إبراهيمُ عليه السلام وعده، فاستغفرَ لأبيه تنفيذاً للوعد ورغبةً في إيمانه، ولكنَّ أباه أصرَّ على كفره، وماتَ على ذلك، عند ذلك تبرَّأَ إبراهيمُ عليه السلام من أَبيه، لأنَّه عدوٌّ لله.

وإذا كان قريبُ المسلم ما زالَ حيّاً فله أَنْ يدعوَ له بالهداية، طمعاً في إيمانِه، وأَنْ يستغفرَ اللهَ له، أَما إذا ماتَ كافراً، فإنَّه لا يجوزُ له أَنْ يستغفرَ له، لأنَّه

تبيَّنَ له أنَّه من أصحابِ الجحيم.

قالَ ابنُ عباس رضي الله عنهما: كان المسلمون يستغفرون لأقاربهم المشركين، حتى أنزلَ اللهُ الآية: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ ﴾ فأمسكوا عن الاستغفارِ لأمواتِهم، ولم ينههم عن الاستغفارِ للأحياءِ حتى يموتوا.

وماتَ رجلٌ يهوديّ، وله ابنٌ مسلم، فلم يخرج ابنُه المسلمُ في جنازته! وذكرَ ذلك لابنِ عباس رضي الله عنهما، فصوَّبَ فعْلَه، وقال: كان لهُ أَنْ يدعوَ له بالصلاح ما دامَ حياً، فإذا ماتَ وَكَلَهُ إلى شأنه.

وقالَ أبو هريرة رضي الله عنه: رحمَ اللهُ رجلاً استغفرَ لأبي هريرة، ولأُمِّه! فقيل: ولأبيه؟ قال: لا تَستغفروا لأبيه، لأنَّ أباهُ ماتَ كافراً![(1)].

أما الذين ما زالوا أحياء من الكافرين والمنافقين، فلم يَنْهَ اللهُ المسلمينَ عن الدعاءِ والاستغفارِ لهم، مع أنَّ الاستغفارَ للمعاندين المستكبرين منهم لا ينفعهم!

استغفار الرسول ﷺ للمنافقين لا ينفعهم:

أخبرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن استغفارَه للمنافقين لا ينفعُهم، لأنَّهم كفارٌ معاندون رافضون للهدى.

ووردَ ذلك الإخبارُ في سورةِ المنافقون: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المنافقون: ٦]، ثم وردَ التأكيدُ عليه بعد ذلك في سورةِ التوبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٨٠].

إنَّ المنافقينَ ليسوا أهلاً لاستغفارِ رسولِ الله ﷺ، ولا يستحقّون فضْلَه وبركتَه، لفسقِهم ونفاقِهم وكفرِهم، ولذلك سوَّى اللهُ له بين استغفارِه لهم وعدمِه، فسواءٌ عليهم أَستغفرَ لهم أم لم يستغفر لهم، وعلى الحالتين لن يغفرَ اللهُ لهم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٩٢ـ٣٩٣.

والمرادُ بالأمرِ في قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الخبر، فهي جملةٌ إنشائيةٌ في الظاهر، لكنها خبريةٌ في المعنى، بهدف استواءِ الأمريْن - الاستغفارِ وعدمِه - في عدمِ انتفاعِهم به.

وأرادَتْ الآيةُ أنْ تبينَ عدمَ انتفاعِهم بالاستغفار، مهما كان كثيراً عديدَ المرات، فقالَ اللهُ لرسوله ﷺ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

والراجحُ في قوله: ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ أنه لا يرادُ حقيقةُ العدد، وأنّه ليس له مفهومُ مخالفة، بأنَّه لن يغفرَ اللهُ للمنافقين إن استغفرَ لهم رسولُ الله ﷺ سبعين مرة، أما إذا زادَ على السبعين فإنه يغفرُ لهم!.

الراجحُ أنَّ هذا ليس مراداً، وأنَّ عدد (سبعين) يُرادُ به الكثرة، فلن يغفرَ اللهُ لهم لكفرِهم ونفاقِهم مهما كان عددُ مراتِ استغفارِ رسولِ الله ﷺ لهم، سواءٌ كان العددُ أقلَّ من سبعين مرة، أو كان أكثرَ من سبعين مرة!.

وهذا ما فهمه رسولُ الله ﷺ، أنّه لن ينفعَهم استغفارُه، ولن يغفرَ اللهُ لهم، حتى لو زادَ على السبعين.

روى البخاريُّ عنه ﷺ أنّه قالَ لعمرَ رضي الله عنه: «إنِّي خُيِّرْتُ فاخْتَرْتُ، ولو أعلمُ أنّي إنْ زِدْتُ على السَّبعينَ يُغفرُ له لزدتُ عليها...»[1]. وسيمرُّ مَعنا تفصيلُ هذا الحديث بعدَ قليلٍ إنْ شاءَ الله.

فالعددُ لا مفهومَ له، لأنَّه مرادٌ به التكثير، والتيئيسُ من قَبولِ الاستغفارِ لهم وانتفاعِهم به، مهما كان عددُ مراته.

ومع ذلك فَهِمَ رسولُ الله ﷺ أنَّ اللهَ خيَّرَه في استغفاره للمنافقين وعدمِ استغفارِه، وذلك في قوله له: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ولم ينْهَهُ عن ذلك، لأنَّ حرفَ (أو) في الجملةِ دالٌّ على التخيير.

الرسول ﷺ يعود ابن أُبيّ وهو يحتضر:

في ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة، وبعد عودةِ الرسولِ ﷺ من تبوك،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، حديث رقم: ٤٦٧٠.

مرضَ زعيمُ المنافقين عبدُ اللهِ بنُ أُبيّ مرضَ الموت، فجاءَ ابنُه الصالحُ عبدُ اللهِ إلى رسولِ الله ﷺ، وأَخبرَه بمرض أبيه، فذهبَ رسولُ الله ﷺ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبيّ يعودُه وينصحُه.

روى أبو داود عن أُسامةَ بن زيد رضي الله عنهما قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ يَعودُ عبدَ اللهِ بنَ أُبيّ في مرضِه الذي ماتَ فيه. فلما دخلَ عليه عرفَ فيه الموت. فقالَ له: قد كنتُ أنهاكَ عن حُبِّ يهود! فقال: فقد أبغضَهم أَسعدُ بنُ زُرارة، فَمَهْ...[1].

وفي لفظٍ آخر قال: فقد أَبغضَهم أَسعدُ بنُ زُرارة فمات!.

أرادَ رسولُ الله ﷺ أَنْ ينصحَ ابنَ أُبيّ، لعلَّه ينتصح، فذكَّرَه بأنَّه كان ينهاهُ عن حبِّ يهود! وهذا معناهُ: أنَّ حُبَّ اليهود قد سيطرَ على قلبِ ابنِ أُبيّ، وتمكَّنَ منه، لِما بينَه وبينهم من ولاءٍ وتحالُف، ومن المعلوم أنَّ اليهودَ هم الذين أوجدوا حركة المنافقين ودَعَموها، ولذلك كان الارتباطُ وثيقاً بين عبدِ اللهِ بنِ أُبيّ وبين اليهود، ولم يستمعْ لنهي النبيّ ﷺ له عن محبّتِهم وموالاتِهم!.

ولما ذكَّرَه الرسولُ ﷺ بأَخطارِ محبته لليهود ردَّ عليه بوقاحة: إنَّ محبتَهم لن تضرَّ أحداً، وإنَّ بغضَهم لن ينفعَ أحداً، فقد كانَ أسعدُ بن زرارة يُبغضُ اليهودَ ويَكرههم، ولم ينفَعْه ذلك فقد مات!!.

وقد كانَ أسعدُ بنُ زُرارة رضي الله عنه من خِيارِ الأَنصارِ وأفاضل الصحابة، وكان يُبغضُ اليهودَ ويَكرههم ويُحاربهم، وكان شديدَ الحبِّ للرسولِ ﷺ.

وأرادَ ابنُ أُبيّ أَنْ يطعنَ في ابنِ زُرارة رضي الله عنه، وأَنْ يُبينَ خسارتَه في بغضِ اليهود، وأنَّ بُغضَهم لم يدفعْ عنه الموت! وما درى الجاهلُ أَنَّ الموتَ آتٍ لا محالة، لليهود وغيرهم، ولمن يحبُّهم ولمن يبغضُهم، والمهمُّ هو ما بعدَ الموت، فمن ماتَ وهو يحبُّ اليهودَ خابَ وخسر، ومَنْ ماتَ وهو صالحٌ يُبغضُ اليهودَ أفلحَ وفاز!!.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب العيادة، حديث رقم: ٣٠٩٤.

لماذا كفن الرسول ﷺ ابن أُبي بثوبه؟:

بعد ذلك توفي زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، فجاءَ ابنُه الصالحُ عبدُ الله إلى النبيِّ ﷺ، وأَخبرَه بموتِ أبيه، وطلبَ منه أَنْ يعطيَه قميصَه، ليكفِّنَه فيه، فاستجابَ له رسولُ الله ﷺ، وأَعطاهُ قميصَه، وكُفِّنَ عبدُ الله بنُ أُبَيّ المنافقُ الكافرُ في قميصِ رسولِ الله ﷺ!.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لما تُوفي عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ، جاءَ ابنُه إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: يارسول الله! أعطِني قميصَكَ أُكفِّنْه فيه، وصَلِّ عليه، واستغْفِرْ له؛ فأعطاهُ النبيُّ ﷺ قميصَه...»(١).

والسببُ الذي حملَ رسولَ الله ﷺ على أَنْ يكفِّنَ المنافقَ الكافرَ بثوبِه هو الردُّ على يَدٍ كانَتْ لابنِ أُبيّ عنده.

ففي غزوةِ بدر وقعَ العباسُ عَمُّ رسولِ الله ﷺ في الأَسر، وكان طويلاً جسيماً ضخمَ الجثة، وبحثوا له عن قميصٍ على مقاسِه، فلم يَجدوا إلا قميصَ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيّ، الذي كان جَسيماً مثلَه، فأَعطوْهُ إياه، وأرادَ رسولُ الله ﷺ أنْ يكافئَه على تلك اليد.

روى البخاريُّ عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: لما كان يومُ بدر، أُتِيَ بأُسارى، وأُتيَ بالعباس، ولم يكنْ عليه ثوب، فنظرَ النبيُّ ﷺ له قميصاً، فوجَدوا قميصَ عبدِ اللهِ بنِ أُبيّ يَقْدُرُ عليه، فكساهُ النبيُّ ﷺ إياه..

فلذلك نزعَ النبيُّ ﷺ قميصَه الذي أَلبسَه!.

قال ابنُ عُيينة: كانتْ له عند النبيِّ ﷺ يد، فأَحَبَّ أَنْ يكافئه(٢).

الروايات في صلاة الرسول ﷺ على ابن أُبيّ:

لما تُوفي عبدُ الله بنُ أُبيّ زعيم المنافقين، دعا ابنُه الصالحُ عبدُ اللهِ رسولَ الله ﷺ إلى الصلاةِ عليه، لئلا يكون مَعَرَّةً عند الناس، ولبَّى رسولُ الله ﷺ الدعوة، ووقفَ أَمامَ المسلمين ليصلِّي الجنازةَ على ابنِ أُبيّ، وحاورَه عمرُ بنُ الخطاب

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن في القميص، حديث رقم: ١٢٦٩؛ وصحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، حديث رقم: ٢٧٧٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الكسوة للأسارى، حديث رقم: ٣٠٠٨.

رضي الله عنه، وذكَّره بعداوةِ عبدِ اللهِ بنِ أُبيّ وجرائِمه، ولكنَّ الرسولَ ﷺ غلَّبَ جانبَ الرحمةِ والشفقةِ من رسالتِه وشخصيتِه، فصلّى عليه، ومشى في جنازتِه، ووقف على قبرِه.. فأنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ اللهِ بن عمر رضي الله عنهما قال: «لما تُوفيَ عبدُ الله بن أُبيّ ابن سلول جاءَ ابنُه عبدُ الله بنُ عبدِ الله إلى رسولِ الله ﷺ، فسألَه أَنْ يُعطيَه قميصَه يُكفن فيه أَباه، فأعطاه، ثم سألَه أَنْ يُصلّيَ عليه، فقام رسولُ الله ﷺ ليصلي عليه، فقامَ عمرُ فأخذَ بثوبِ رسولِ الله ﷺ، فقال: تُصلّي عليه وقد نَهاكَ اللهُ أَنْ تصليَ عليه؟.. فقالَ رسولُ الله ﷺ: إنما خيَّرني الله فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ وسأزيدُ على السبعين!. قال: فإنَّه منافق.

فصلّى عليه رسولُ الله ﷺ. وأنزلَ الله عليه قولَه تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾»[(١)].

وروى البخاريُّ عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما مات عبدُ الله ابنُ أُبيّ ابن سلول، دُعيَ رسولُ الله ﷺ ليصليَ عليه.. فلما قامَ رسولُ الله ﷺ وثبتُ إليه، فقلتُ: يارسولَ الله! أتصلّي على ابنِ أُبيّ، وقد قالَ يومَ كذا وكذا وكذا، أُعَدِّدُ عليه قولَه؟ فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، وقال: أَخِّرْ عَنّي يا عمر!.

فلمَّا أكثرتُ عليه، قال: إني خُيِّرْتُ، فاخترتُ، لو أَعلمُ أَني إنْ زدتُ على السبعين يُغْفَر له لزدْتُ عليها!.

فصلَّى عليه رسولُ الله ﷺ، ثم انصرف، فلم يمكثْ إلا يسيراً حتى أنزلَ الله عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾.. فعجبتُ بعدَ ذلك من جُرأتي على رسولِ الله ﷺ»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾، حديث رقم: ٤٦٧٠؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر بن الخطاب، حديث رقم: ٢٤٠٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾، حديث رقم: ٤٦٧١.

لماذا صلَّى الرسولُ ﷺ على ابن أُبيّ؟!:

عرفنا أنَّ رسولَ الله ﷺ كفن عبد الله بن أُبيّ بقميصه، سَداداً ليدٍ كانتْ له عنده، ومكافأةً له مقابلَ إعطائِه قميصَه لعمِّه العباس يوم بدر.

وأما صلاتُه عليه بعد وفاتِه فقد حاورَه بشأْنِها عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فلما وقفَ ﷺ للصلاةِ عليه، والمسلمون خلْفَه، قامَ إليهِ عمرُ رضي الله عنه، وأخَذَ بثوبِه، ودعاهُ إلى عدمِ الصلاةِ عليه، لأنّه منافقٌ كافر، وصارَ يذكِّره بجرائمِه ضدَّ الإسلام والمسلمين، ويقول له: هو الذي قال كذا، وقال كذا، وفعل كذا، وفعل كذا.. فقال له: أَخِّرْ عنّي يا عمر؛ أي: دَعْني فإني سأُصلي عليه.

فذكَّرَه عمرُ رضي الله عنه بشيءٍ آخر، وقال له: أتصلي عليه وقد نهاكَ ربُّكَ عن ذلك؟.

يقصد عمرُ رضي الله عنه بالنهيِ آيةَ الاستغفار، في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ فقد فهمَ منها عمرُ النهيَ عن الاستغفارِ للمنافقين، والنهيَ عن الصلاةِ عليهم، لأنَّ الصلاةَ نوعٌ من الاستغفار والدعاء. وفَهْمُه هذا مأخوذٌ من جملة: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾؛ فمهما زادَ عددُ مراتِ صلاتِه واستغفارِه، فإنَّ ذلك لا ينفعُهم؛ لأنّهم كفروا بالله ورسوله ﷺ.

لكنَّ الرسولَ ﷺ فهمَ من الآيةِ السابقةِ التخييرَ بين الاستغفارِ لهم وتركه، ولذلك ردَّ على عمر قائلاً: لقد خيَّرَني ربي، فاخترْتُ.

والتخييرُ مأخوذٌ من حرف (أو). أي: أنتَ بالخيارِ بين الاستغفارِ وعدمه، فإن استغفرْتَ لهم لا شيءَ عليك، وإنْ لم تستغفرْ لهم لا شيءَ عليك!.

ومع فهمه من الآية التخيير، فإنه يعلمُ أنَّ استغفارَه لهم لن ينفعَهم، حتى لو فعلَ ذلكَ سبعين مرةً أو أكثر، لأنّهم كفار، لأنَّ اللهَ قال له: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

واختيارُه الاستغفارَ لهم، مع علمِه أنَّه لن ينفعَهم، من بابِ رحمتِه بهم، ولذلك قال لعمر رضي الله عنه: «لو أَعلَمُ أنّي إنْ زِدْتُ على السبعين يُغفر له لزدْتُ عليها...».

لقد بعثَ اللهُ رسولَه ﷺ رحمةً للعالمين، وكان يتمنَّى لو استفادَ الجميعُ من هذه الرحمة، ولذلك فعلَ لعبد اللهِ بن أبيّ ما فعلَ من هذا الباب.

توجيه استغفار الرسول ﷺ لابن أُبيّ:

وقد وجّه الزمخشري استغفارَ الرسولِ ﷺ للمنافقين هذا التوجيه: قال: «فإنْ قُلْتَ: كيفَ خَفِيَ على رسولِ الله ﷺ وهو أفصحُ العرب، وأخْبَرُهم بأساليب الكلام وتمثيلاته، والذي يُفهمُ من ذكْرِ هذا العدد كثرةُ الاستغفار، كيف وقد تلاهُ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فَبَيَّنَ الصارفَ عن المغفرة لهم، حتى قال: قد رخَّصَ لي ربي فسأزيدُ على السبعين؟.

قلتُ: لم يَخْفَ عليـك ذلك، ولكنّه خيـل بما قال، إظهاراً لغايـةِ رأْفَتِه ورحمتِه على من بُعِثَ إليه، كقولِ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وفي إظهارِ النبيِّ ﷺ الرأفةَ والرحمةَ لطفٌ لأمّتِه، ودعاءٌ لهم إلى ترحُّمِ بعضِهم على بعض»(١).

إذن: لم يُخطئ رسولُ الله ﷺ في استغفارِه لعبد اللهِ بن أُبيّ زعيم المنافقين، لأنَّه فعلَ ذلك من بابِ فرْطِ رحمتِه ورأْفتِه وشفقتِه، ولأنَّ اللهَ لم ينهَهُ عن الاستغفارِ للمنافقين نهياً مباشراً صريحاً، ولأنّه فهم من الآية التخيير وليس النهيَ، فاختارَ ما يتفقُ مع رحمتِه ورأْفتِه، مع علمِه أنَّ الاستغفارَ لن ينفعَهم، لأنَّهم كافرون منافقون.

توجيه صلاة الرسول ﷺ على ابن أُبيّ:

أما توجيه صلاته على عبد الله بن أبي، فإنّه لم يُخطِئ في ذلك أيضاً، ولم يُخالِفْ فيها أمرَ الله:

إنَّ اللهَ لم يَنْهَهُ عن الصلاةِ على المنافقين، والآيةُ التي تنهى عن ذلك أنزلَها اللهُ عليهِ بعدَ صلاتِه وليسَ قبلها، والآية التي كانتْ أُنزلَتْ قبل صلاتِه على ابنِ أُبيّ تحدّثَتْ عن الاستغفار وليس الصلاة: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٩٥ـ٢٩٦.

لقد فَهِمَ منها تخييرَ اللهِ لهُ الاستغفارَ لهم وتَرْكَه، والصلاةُ صورةٌ من صورِ الاستغفار، فصَلاتُه على ابنِ أُبَيّ وفقَ فهمِه التخييرَ من تلك الآية، وهو يختارُ المتفقَ مع رحمتِه! وهو في صلاتِه مطبِّقٌ لما فهمَه من الآية، ولا يُلامُ على اجتهادِه، ولا على فعلٍ قامَ به ليسَ عنده فيه توجيهٌ من الله.

ولما أنزلَ اللهُ عليه آيةً ينهاهُ فيها عن الصلاةِ على المنافقين والقيام على قبورِهم، التزمَ بذلك التوجيهِ الرباني، ولم يُخالفه، فكانَ إذا ماتَ أَحَدُ المنافقين لم يُصَلِّ عليه رسولُ الله ﷺ، ولم يمشِ في جنازتِه، ولم يَقُمْ على قبرِه، ملتزماً في ذلك بتوجيهِ اللهِ له.

وقبل أن يُقبَض ﷺ أخبرَ أمينَ سرِّه (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه بأسماء المنافقين، لئلا يصلّي على أحدٍ منهم أَحَدٌ من بعده.

الزمخشري يحسن توجيه الحادثة:

وما أجمل ما قاله الزمخشري في توجيهِ صلاتِه ﷺ على عبدِ الله بن أُبيّ:

قال: «فإنْ قُلْتَ: كيفَ جازَ له تكرمةُ المنافقِ وتكفينُه في قميصه؟.

قلتُ: كان ذلك مكافأةً له على صنيعٍ سبقَ له.. وإجابةً له إلى مسألَتِه إيّاه، فقد كانَ ﷺ لا يَرُدُّ سائلاً، وكان يتوفّرُ على دواعي المروءة، ويعملُ بعاداتِ الكرام، وإكراماً لابنه الصالح، فقد رُوِيَ أنَّه قالَ له: أَسأَلُكَ أنْ تُكفِّنَه في بعضِ قمصانِك، وأَنْ تقومَ على قبرِه، لا يَشمتُ بنا الأعداء!.

علماً أنَّه يعلمُ أنَّ تكفينَه في قميصِه لا ينفعُه مع كفرِه، فلا فرقَ بين قميصِه وبين غيرِه من الأكفان، وليكون إلباسُه إيّاهُ لطفاً لغيره!!.

وكذلك تَرَحُّمُه واستغفارُه، كان للدعاءِ إلى التراحمِ والتعاطفِ، لأنهم إذا رأَوه يترحَّمُ على مَنْ يُظهرُ الإيمانَ وباطنُه على خلافِ ذلك، فإنَّ ذلك يدعوهم إلى أنْ يتعطَّفوا على مَنْ واطأَ قلبُه لسانَه..

فإنْ قلتَ: كيفَ جازت الصلاةُ عليه؟.

قلتُ: لم يتقدَّمْ نهيٌ عن الصلاةِ على المنافقين، وكانوا يُجْرَوْنَ مجرى المسلمين لظاهرِ إيمانِهم، لما في ذلك من المصلحة.

وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: ما أَدري ما هذه الصلاة، إلاَّ أنّي أَعلمُ أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يُخادَع!»[1].

والخلاصةُ: صلَّى رسولُ الله ﷺ على عبدِ اللهِ بن أُبيّ قبلَ أَنْ يَنهاهُ اللهُ عن ذلك، لأنَّه فهمَ أنَّ اللهَ يخيِّرُه بين الاستغفارِ والدعاء والصلاةِ وبين الترك، فاختارَ الفعلَ على الترك، لاتفاقِه مع طبيعتِه الرحيمة، ولم يرتكبْ في ذلك خطأً أو ذنباً، ولما أَنزلَ اللهُ بعدَ ذلك آيةً صريحةً تنهاهُ عن الصلاةِ على المنافقين، التزمَ بها ولم يُخالِفْها!.

* * *

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٩٦ـ٢٩٨.

الفَصْل السَّابع

ثباتُ الرّسول ﷺ أمام مساومات الكفّار

بَلَّغَ رسولُ اللهِ ﷺ قومَهُ دعوةَ الله، التي أمرَهُ اللهُ بتبليغِها لهم، ولكنّهم لم يَقبلوا معظمَ ما فيها من حقائقَ ومبادئ، وحاوَلوا أَنْ يُساوموه ويهادنوه ويداهنوه، وقَدَّموا له مختلفَ الإغراءاتِ المادية والمعنوية، ودعَوْهُ إلى أَنْصافِ الحلولِ للالتقاءِ في منتصفِ الطريق، ولكنَّ الرسولَ ﷺ ثبتَ على الحق، ولم يُغَيِّرْ أَو يُبَدِّل، ولم يُداهِن أَو يساوم، وامتنَّ اللهُ عليهِ بهذا الثبات، الذي لم يكن ليتحققَ من دونِ تثبيتِ اللهِ له.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٧].

عتبة بن ربيعة يساوم رسول الله ﷺ:

لقد ساومَ المشركونَ الرسولَ ﷺ مساوماتٍ عديدة، قدَّموا له فيها إغراءاتٍ كثيرة، وعَرَضوا عليه أَنْ يُعطوهُ كلَّ ما يريد، ليتخلَّى عن الحقِّ الذي معه، أو يتنازلَ عن شيءٍ منه، ولكنَّ اللهَ ثبَّتَه أمامَ كلِّ ما قدَّموه له.

وقد روى ابنُ إسحاقَ بعضَ مساوماتِهم وإغراءاتِهم، ونكتفي هنا بذكْرِ أَشهرِها:

روى ابنُ إسحاق عن محمدِ بن كعب القرظي أنَّ عُتبةَ بنَ ربيعةَ كان جالساً يوماً في نادي قريش، وكان رسولُ اللهِ ﷺ جالساً في المسجدِ وحْدَه.

فقالَ عُتبةُ لهم: يا معشرَ قريش! ألا أَقومُ إلى محمد فأُكلّمه، وأعرضَ عليه أُموراً، لعلّه يَقبلُ بعضَها، فنُعطيَه أيّها شاء، ويَكفَّ عنا؟.

وذلك حينَ أسلَمَ حمزة، ورأَوا أصحابَ رسولِ الله ﷺ يزيدون ويكثُرون.

فقالوا: بلى، يا أبا الوليد، قُمْ إليه فكَلِّمْه..

فقامَ عتبةُ إليه، فقال له: يا بنَ أخي! إنَّكَ منّا حيثُ قد علمتَ من الشرفِ في العشيرة، والمكانِ في النسب، وإنَّكَ قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيم، فَرَّقْتَ به جماعتَهم، وسفَّهْتَ به أَحلامَهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكَفَّرْتَ به مَنْ مضى من آبائهم.. فاسمعْ منّي أعْرِض عليكَ أموراً تنظرُ فيها، لعلّكَ تَقبلُ بعضاً منها..

فقالَ له رسولُ الله ﷺ: قُلْ يا أبا الوليد، أَسمع.

قال: يا بنَ أخي! إنْ كنتَ إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمرِ مالاً، جَمَعْنا لك من أموالنا، حتى تكونَ أكثرَنا مالاً.. وإنْ كنتَ تريدُ به شَرَفاً سوَّدْناكَ علينا، حتى لا نقطعَ أَمْراً دونَك.. وإنْ كنتَ تريدُ به مُلْكاً ملَّكْناكَ علينا.. وإن كانَ هذا الذي يأتيكَ رَئِيّاً تراه، لا تستطيعُ ردَّه عن نفسِك، طلَبْنا لك الطبَّ، وبذلْنا فيه أموالَنا حتى نُبرئَكَ منه، فإنه ربما غلبَ التابعُ على الرجلِ حتى يُداوَى منه..

حتى إذا فرغَ عتبة، ورسولُ الله ﷺ يستمعُ منه، قال له: أَفرَغْتَ يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع منّي. قال: أفعلُ!.

فتلا عليه رسولُ الله ﷺ صدْرَ سورة فصلت: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ...﴾ [فصلت: ١ـ٤] ثم مضى رسولُ الله ﷺ فيها، يقرؤُها عليه.. فلما سمعَها عتبة، أنصتَ لها، وألقى يديْه خلفَ ظهرِه معتمداً عليهما، يسمعُ منه، ثم انتهى رسولُ الله ﷺ إلى السجدة، فسجد..

ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعْتَ، فأنتَ وذاك.

فقامَ عتبة إلى أصحابِه، فقالَ بعضُهم لبعض: نحلفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغيرِ الوجْهِ الذي ذهبَ به!.

فلما جلسَ إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟.

قال: ورائي أنّي سمعْتُ قولاً، واللهِ ما سمعتُ مثلَه قطّ، واللهِ ما هو بالشِّعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشرَ قريش: أطيعوني، واجعلوها بي، وخَلّوا بينَ هذا الرجلِ وبين ما هو فيه، فاعتَزِلوه، فواللهِ ليكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإنْ تُصِبْهُ العرب فقد كُفِيتُموه بغيرِكم، وإنْ يَظْهرْ على العربِ فملكُه مُلكُكم، وعِزُّهُ عِزُّكم، وكنتم أسعدَ الناسِ به!.

قالوا: قد سَحَرَكَ واللهِ يا أبا الوليد بلسانه!.

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بَدا لكم[1]..

تقدِّمُ لنا هذه الحادثةُ نموذجاً من مساوماتِ المشركين للرسولِ ﷺ، وإغراءاتِهم له ليتخلّى عن دعوتِه.

فعُتبةُ بنُ ربيعة عرضَ عليه كلَّ ما يُريد، من مالٍ وشرفٍ ومُلكٍ وعلاجٍ وجاه، وهذا العرضُ لا يقفُ أمامَه تجار المبادئ والأفكارِ والدعوات، الذين يُريدون الحياةَ الدنيا وزينتها.. ولكنَّ الرسولَ ﷺ قابَلَ ذلك بالثباتِ على الحق، وأسمعه آياتٍ من سورة فصلت، جَعلتْ عتبةَ يعودُ إلى قومه متأثّراً بما سمع.

زعماء المشركين يساومون رسولَ الله ﷺ:

أورد ابنُ إسحاقَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «اجتمعَ عُتبةُ بنُ ربيعة، وشَيْبَةُ بنُ ربيعة، وأبو سفيان، والنَّضْرُ بن الحارث، والوليدُ بن المغيرة، وأبو جهل، والعاصُ بن وائل، وأُميةُ بن خَلَف... وغيرهم.

ثم قالَ بعضُهم لبعض: ابعثوا إلى محمد، فكَلِّموه وخاصِموه حتى تُعْذَروا فيه، فبَعَثوا إليه قائلين: إنَّ أشرافَ قومِكَ قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فأْتِهم..

فجاءَهم رسولُ الله ﷺ سريعاً، وهو يظنُّ أنه قد بدا لهم فيما كلَّمَهم فيه بَداء، وكان حريصاً عليهم، يُحبُّ رشدَهم، ويعزُّ عليه عنتُهم..

ولما جلسَ إليهم قالوا له: يا محمد! إنَّا قد بعَثْنا إليك لنكلِّمَك، وإنَّا واللهِ

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ٢١٣-٢١٤.

ما نعلمُ رجلاً من العربِ أَدخلَ على قومِه مثلَ ما أَدخَلْتَ على قومك: لقد شتمتَ الآباء، وعِبْتَ الدين، وشتمتَ الآلهة، وسفَّهْتَ الأحلام، وفَرَّقْتَ الجماعة، فما بقي أَمرٌ قبيحٌ إلا قد جئْتَه فيما بيننا وبينك..

فإنْ كنتَ إنّما جئتَ بهذا الحديثِ تطلبُ به مالاً، جمَعْنا لك من أموالِنا، حتى تكونَ أكثَرَنا مالاً.. وإنْ كنتَ إنما تطلبُ به الشرف فينا، فنحن نُسَوِّدُك علينا.. وإنْ كنتَ تريدُ بهِ مُلْكاً، مَلَّكْناكَ علينا.. وإنْ كان هذا الذي يأتيكَ رِئِيّاً تَراهُ قد غلبَ عليك، بذلْنا لك أموالَنا في طلبِ الطّبِّ لك، حتى نبرئك منه...

فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلبُ أَموالَكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملكَ عليكم.. ولكنَّ اللهَ بعَثَني إليكم رسولاً، وأنزلَ عليَّ كتاباً، وأَمَرَني أَنْ أكونَ لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغْتُكم رسالاتِ ربّي، ونصحتُ لكم.. فإنْ تقبلوا منّي ما جئتُكم به، فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أصبرْ لأمرِ الله، حتى يحكمَ اللهُ بيني وبينكم..

قالوا: يا محمد! إنْ كنتَ غيرَ قابلٍ منّا شيئاً مما عرَضْناهُ عليك، فإنَّك قد علمتَ أنّه ليس من الناسِ أحدٌ أضيقَ بلداً، ولا أقلَّ ماء، ولا أشدَّ عيشاً منّا.. فسَلْ لنا ربَّكَ، الذي بعثَكَ بما بعثك به، فلْيُسَيِّرْ عنا هذه الجبالَ التي ضيَّقَتْ علينا، ولْيَبسطْ لنا بلادَنا، ولْيفجِّرْ فيها أنهاراً كأنهارِ الشام والعراق، ولْيبعثْ لنا مَنْ مضى مِنْ آبائنا، ولْيكنْ فيمن يُبعثُ لنا منهم قصَيُّ بنُ كِلاب، فإنَّه كانَ شيخَ صِدْق، فنسألَهم عما تقول: أحقٌّ هو أمْ باطل.. فإن صَدَقوك، وصنعْتَ ما سألْناكَ صدَّقْناك، وعرَفْنا به منزلتَك من الله، وأنَّه بعثَكَ رسولاً كما تقول.

فقال لهم ﷺ: ما بهذا بُعثتُ إليكم، إنما جئتُ من الله بما بعثَني به، وقد بلَّغْتُكم ما أُرسلتُ به إليكم، فإنْ تقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإنْ تَرُدُّوهُ عليَّ أَصْبِرْ لأمْرِ الله، حتى يحكمَ اللهُ بيني وبينكم!.

قالوا: فإذا لم تفعلْ هذا لنا، فخذْ لنفسك.. سَلْ ربَّكَ أَنْ يبعثَ معكَ مَلكاً، يُصَدِّقك بما تقول، ويراجعنا عنك.. وسَلْهُ فلْيجعلْ لك جِناناً وقصوراً، وكنوزاً من ذهبٍ وفضة، يُغنيكَ بها، فإنّكَ تقومُ بالأسواق كما نقومُ، وتلتمسُ المعاشَ كما نلتمسُه.. حتى نعرفَ فضْلَكَ ومنزلَتَك من ربّك إنْ كنتَ رسولاً كما تزعم.

فقالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسألُ ربَّه هذا، وما بُعثتُ إليكم بهذا، ولكنَّ اللهَ بعثَني بشيراً ونذيراً، فإنْ تقبلوا ما جئتُكم به فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإنْ تردُّوه عليَّ أَصْبِرْ لأمرِ الله، حتى يحكمَ اللهُ بيني وبينكم. .

قالوا: فأَسقِطْ علينا السماءَ كِسَفاً، كما زعمتَ أنَّ ربَّكَ إنْ شاءَ فعل، فإنَّا لا نؤمنُ لك إلاَّ أنْ تفعل. .

فقالَ رسولُ الله ﷺ: ذلك إلى اللهِ، إنْ شاءَ أنْ يفعلَه بكم فَعَل!.

قالوا: يا محمد! أما علمَ ربُّكَ أنَّا سنجلسُ معك، ونسألكَ عما سألْناكَ عنه، ونطلبُ منك ما نطلب، فلماذا لم يتقدَّم إليك ويُعلِّمْك ما تراجعُنا به، ويُخبرْكَ ما هو صانعٌ بنا، إذ لم نقبلْ منك ما جئْتَنا به!.

وإنَّه قد بَلَغَنا أنَّه يُعلِّمُك هذا رجلٌ باليمامة يُقالُ له: الرحمان، وإنَّا واللهِ لا نـؤمنُ بالرحمان أبـداً. . وقد أَعْذَرْنا إليك يا محمد، وإنَّا واللهِ لا نتركُكَ حتى نهلكَكَ أو تُهلكَنا!!.

فلما قالوا ذلك لرسولِ الله ﷺ قامَ عنهم، وقامَ معه عبدُ اللهِ بن أبي أُمية المخزومي ـ وهو ابنُ عمّته ـ فقال له: يا محمد! عَرَضَ عليكَ قومُك ما عرَضوا، فلم تقبَلْهُ منهم، ثم سألوكَ لأنفسهِم أُموراً، ليعرفوا بها منزلتَك من اللهِ كما تقول، ويُصَدِّقوك ويتَّبعوك، فلم تَفعل، ثم سألوكَ أن تُعَجِّلَ لهم بعضَ ما تخَوِّفُهم به من العذاب، فلم تفعل.

فواللهِ لا أُؤمنُ بك أبداً، حتى تتخذَ إلى السماءِ سُلَّماً، ثم ترقى فيه، وأنا أَنظرُ إليك، ثم تأْتي معك بأربعةٍ من الملائكة، يَشهدون لك أنك كما تقول!. . وايْمُ الله، لو فعلْتَ ذلك ما ظننتُ أنّي أُصَدِّقُك!! ثم انصرَفَ عنه.

وانصرفَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أهلِه حزيناً آسفاً، لِما فاتَه مما كان يطمعُ به من قومِه حين دعوه، ولِما رآه من مباعدتِهم إياه»[1].

---

(١) السيرة النبوية: ١/ ٢١٥ ـ ٢١٧.

أحببنا أَنْ ننقلَ الحوارَ كاملاً، كما جرى بين رسولِ اللهِ ﷺ وبين المشركين، لنقفَ على تفاصيلِ مساوماتِهم له، وثباتِه على الحقّ، ونتعرَّف على مقدارِ ما كان يُعاني ﷺ من المشقةِ والضيق والأذى، وكيف واجهَ هذا كلّه بالصبر والثبات.

عرض المشركين السخيف على رسولِ الله ﷺ:

نضيف إلى المثالين السابقين هذا المثالَ الثالثَ المضحك، الدالَّ على سخافةِ المشركين وقلَّةِ عقولِهم، فيما قَدَّموه له من عروضٍ سخيفة.

قالَ ابنُ إسحاق في السيرة: «واعترضَ رسولَ اللهِ ﷺ وهو يطوفُ بالكعبة: الأسودُ بنُ المطلب، والوليدُ بن المغيرة، وأُميّةُ بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنانٍ في قومِهم..

فقالوا له: يا محمد! هلمَّ فلْنعبُدْ ما تَعبُد، وتَعْبُد ما نَعبُد، فنشترِكَ نحنُ وأَنتَ في الأمر، فإنْ كان الذي تعبدُ خيراً مما نَعبد، كنا قد أَخذنا بحظِّنا منه، وإنْ كانَ ما نعبدُ خيراً مما تعبد، كنتَ قد أخذتَ بحظِّكَ منه!.

فأنزلَ اللهُ تعالى قولَه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]»(١).

قطَعَ اللهُ عروضَهم السخيفةَ بالمفاصلةِ التامةِ بين الرسولِ ﷺ وبين المشركين، ولذلك أَمَرَه أَنْ يواجههم بسورة (الكافرون)، ويصارحَهم بأنَّهم كافرون، وعلى باطل، وهو لا يعبدُ ما يعبدون هم من آلهةٍ باطلة، وله دينُه الحقُّ الذي أمرَهُ اللهُ به.

وأخبرَه في سورة (القلم) بأنهم يحبون المساومة والمداهنة، ونهاهُ عن طاعتهم، فقال له: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨ ـ ٩].

إنَّهم على استعدادٍ للتخلّي عن كثيرٍ من عقيدتِهم وتصوّراتِهم الجاهلية، مقابلَ أَنْ يتخلّى هو عن بعضِ ما يَدعوهم إليه! على استعدادٍ أَنْ يدهنوا ويلينوا،

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٥.

ويُحافِظوا فقط على ظاهرِ الأمر، لكي يدهنَ هو لهم ويَلينَ. فهم ليسوا أصحابَ عقيدةٍ يؤمنون بأنها الحق، وإنما هم أصحابُ ظواهر، يُهمهم أَنْ يحافظوا عليها.

إنّها المساومة، والالتقاءُ في منتصفِ الطريق.. كما يَفعلون في التجارة، وفرقٌ بين الاعتقادِ والتجارة كبير! إنَّ صاحبَ العقيدةِ لا يتخلّى عن شيءٍ منها، لأنَّ الصغيرَ منها كالكبير، بل ليس في العقيدةِ صغيرٌ وكبير. إنها حقيقةٌ واحدة متكاملةُ الأجزاء، لا يطيعُ فيها صاحبُها أحداً، ولا يتخلّى عن شيءٍ منها أبداً!!.

.. ولم يساومْ ﷺ في دينِه، وهو في أحرجِ المواقِفِ العصيبةِ في مكة، وهو محاصَرٌ بدعوتِه، وأصحابُه القلائل يُتخطّفون ويُعَذَّبون، ويُؤذَون في اللهِ أَشدَّ الإيذاء، وهم صابرون.. ولم يسكتْ عن كلمةٍ واحدة ينبغي أَنْ تُقالَ في وجوهِ الأقوياءِ المتجبّرين، تأليفاً لقلوبِهم، أَو دفعاً لأذاهم[1].

اقتراح المشركين تغيير القرآن أو تبديله:

من مساوماتِ الكفار السخيفة، واقتراحاتِهم العجيبة، أَنَّهم عندما كانوا يسمعونَ آياتِ القرآنِ من رسولِ الله ﷺ، كانوا يطلبون منه أَنْ يأتيَ بقرآنٍ آخرَ غيرِه، أَو يُبدلَ في بعضِ سورِه وآياتِه وموضوعاتِه.. وأمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يَرُدَّ على طلبِهم بأنَّه ليس له أَنْ يفعلَ ذلك، لأنَّه يتلقّى الوحيَ من الله، ويبلّغهم ما آتاهُ اللهُ إيّاه.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٥ـ١٧].

عندما كان الكفارُ يسمعونَ القرآنَ من رسولِ الله ﷺ كانوا يطلبونَ منه طلباً سخيفاً، يقومُ على اللهوِ والهزل، يَطلبونَ منه تغييرَ القرآنِ أو تبديلَه.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٦/٣٦٥٨ـ٣٦٥٩.

الزمخشري يحلل الاقتراح:

قال الزمخشري: «غاظهم ما في القرآن من ذَمِّ عبادةِ الأوثان، والوعيدِ للمشركين، فقالوا: ائتِ بقرآنٍ آخر، ليسَ فيه ما يُغيظُنا من ذلك لنتبِعَك، أو بَدِّلْه، بأَنْ تجعلَ مكانَ آيةِ عذاب آية رحمة، وتُسقطَ ذكْرَ الآلهة وذمَّ عبادتها!.

فأَمرَهُ اللهُ أَنْ يُجيبَ عن التبديل، لأنَّه داخلٌ تحتَ قدرةِ الإنسان، وهو أنْ يضعَ مكانَ آيةِ عذاب آيةَ رحمة، وأَنْ يُسقطَ ذكْرَ الآلهة...

وأما الإتيانُ بقرآنٍ آخر، فغيرُ مقدورٍ عليه للإنسان: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ أي: ما ينبغي وما يَحلُّ لي أَنْ أُبَدِّلَه من قِبَلِ نفسي..

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾: لا آتي ولا أَذَرُ شيئاً من ذلك، إلاَّ متّبعاً لوحيِ اللهِ وأوامرِه، إنْ نُسخَتْ آيةٌ تبعْتُ النسخ، وإنْ بُدِّلَتْ تبعْتُ التبديل، وليس إليَّ تبديلٌ ولا نسخ، وإني أخافُ إنْ عصيتُ ربّي بالتبديل أو النسخ من عند نفسي عذابَ يومٍ عظيم.

فإن قلتَ: أما ظهرَ وتبيَّنَ لهم العجزُ عن الإتيانِ بمثلِ القرآنِ حتى قالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾؟.

قلتُ: بلى، ولكنّهم كانوا لا يعترفونَ بالعجز، وكانوا يقولون: لو نشاءُ لقلْنا مثلَ هذا!.. ويقولون: افترى على الله كَذِباً، فينسبونَه إلى الرسول ﷺ، ويزعمونَه قادراً عليه وعلى مثْلِه..

.. فإنْ قلتَ: فما كان غرضُهم وهم أَدهى النـاسِ وأَمْكَرُهم في هذا الاقتراح؟.

قلتُ: الكيدُ والمكرُ. وأمَّا اقتراحُ إبدالِ قرآنٍ بقرآن، ففيه أنّه من عندك، وأنكَ قادرٌ على مثله، فأَبْدِلْ مكانَه آخر..

وأما اقتراحُ التبديل والتأخير، فللطمع، ولاختبارِ الحال، وأنّه إنْ وُجدَ منه تبديل، فإمَّا أَنْ يُهلكَه اللهُ فينجوَ منه، أو لا يهلكُه فيسْخَروا منه، ويَجعلوا التبديلَ حجةً عليه، وتصحيحاً لافترائه على الله»[1].

---

(١) الكشاف: ٢/ ٣٣٤.

أرادَ المشركون العبثَ واللعبَ عندما طلبوا من الرسولِ ﷺ أَنْ يُبدّلَ في آياتِ القرآن، أَوْ أَنْ يُبَدِّلَه بقرآنٍ آخر! وأمرَهُ اللهُ بقطع هذا العبث، بأَنْ يُخبرَهم أنَّ التبديلَ والتغييرَ ليس بيدِه، فما يكونُ له أَنْ يفعلَ ذلكَ، لأنَّ القرآنَ كلامُ الله، هو الذي يُنزلُ من آياتِه ما يشاء، ويَنسخُ منها ما يشاء، ويؤخِّرُ منها ما يشاء، إليه يرجعُ الأمرُ كلُّه.

أما الرسولُ ﷺ فما هو إلا متبعٌ للوحي، يتلقّى الآياتِ التي تأتيه من الله، ويبلِّغُها لهم، والتبديلُ والتغييرُ تحريفٌ وتلاعبٌ بالقرآن، وهو جريمةٌ كبيرة، ومعصيةٌ آثمة، يُعذِّبُ اللهُ مَنْ يرتكبُها العذابَ الأليم، والرسولُ ﷺ يخافُ عذابَ يومٍ عظيم إنْ أقدمَ على ارتكابِ تلك المعصية!.

وأَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يُذَكِّرَ المشركين بحياتِه السابقة قبلَ النبوّة، والتي يعرفونها بالتفصيل، فقد لبث فيهم أربعين سنةً كاملة، لم يَدَّعِ فيها النبوّة، ولم يُسمعْهُم فيها آياتٍ من القرآن، ولو كان القرآنُ من تأليفِه هو لأَسمعَهم إياه قبل الأربعين من عمره!.

ثبت الله رسوله ﷺ على الحق:

إنَّ اللهَ هو الذي ثبّتَ الرسولَ ﷺ على الحق، وجعلَهُ يواجهُ مساوماتِ وإغراءاتِ وعروض الكافرين بمزيدٍ من الثبات.

وقد امتنَّ اللهُ على رسولِه ﷺ في تثبيتِه على الحق، وأخبرَه أنَّه لولا فضْلُه عليه بذلك التثبيتِ لاستجابَ للمشركين، فقال له: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٧].

أكثرَ المشركون من مساوماتِهم للرسولِ ﷺ، وتقديمِ إغراءاتِهم له، بهدفِ فتنتِه وصرفِه عن الحق، وقد كادوا أَنْ يفتنوه عن الحق، لولا فضْلُ اللهِ عليه، بعصمتِه وحفظه وتثبيتِه.

قالَ اللهُ لرسولِه ﷺ: كادَ المشركونَ أَنْ يَفتنوكَ ويَصرفوك عن الحقِّ الذي أوحيناهُ إليك، من كثرةِ ما قَدَّموهُ لك من مساومات، وهدفُهم من ذلك أَنْ تفتريَ علينا غيرَه، وأَنْ تكذبَ فيما تقدمُه لهم!.

ولو نجحوا في ذلك وصرفوك عن الحق وافتريتَ علينا ما قدَّمْتَه لهم، فسوف يُحبونك ويُوافقونك، ويَتّخذونَك خليلاً وصديقاً وحبيباً، لأنَّك استجبتَ لهم والتقيتَ معهم في منتصفِ الطريق.

ولولا تثبيتُنا لك على الحقِّ لركنْتَ إليهم شيئاً قليلاً، ومِلْتَ إلى قَبولِ بعضِ ما يقدمونَه لك، من بابِ الرغبةِ في هدايتِهم، والتقرُّبِ إليهم طمعاً في إيمانهم!.

ولو مِلْتَ إلى عروضهم، وركنتَ قليلاً إليهم لأذقناك ضِعفَ العذابِ في الحياة، بزيادةِ المصائب والعقوباتِ عليك، وضِعفَ العذابِ في المماتِ بعد موتِك، ولن تجدَ لك ناصراً ينصرُك ويدفعُ عنك العقاب.

وأخبرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنه بعدما يئسَ المشركون من صرفِه عن الحق، لجؤوا إلى سلاحٍ آخر ضدَّه، وهو إخراجُه من مكة، فقالَ له: كادوا أَنْ يستفزُّوكَ ويُكرهوكَ على الخروجِ من مكة، ليستريحوا منك، ويُبطلوا دعوتَك، ولو فَعلوا ذلك لأهلكناهُم وقضَينا عليهم، حيث لن يَلبثوا بعدَك في مكة إلا فترةً قصيرةً وزماناً قليلاً، لأنَّ هذه هي سُنَّتُنا في الرُّسُلِ الذين من قبلِك، ولا تبديلَ ولا تحويلَ لتلك السنّة، فقد أَهلكْنا قومَ عادٍ لما أَخرجوا نبيّهم هوداً عليه السلام، وأَهلكنا قومَ ثمود لَمَّا أخرجوا نبيَّهم صالحاً عليه السلام.

ولا يُفهمُ من الآياتِ أنَّ الرسولَ ﷺ هَمَّ أَنْ يستجيبَ لطلباتِ المشركين ومساوماتهم، وأنَّه أوشكَ أن يتنازلَ عن بعضِ الحق الذي معه، لولا فضلُ اللهِ عليه، فقد واجَهَ تلك المساومات بالثباتِ على الحق، وكلُّ ما يُفهمُ من الآياتِ امتنانُ اللهِ على رسولِه ﷺ بتثبيتِه وحِفْظِه وتأْييدِه.

ابن عاشور يحلل الموقف:

وقد أحسنَ محمد الطاهر ابن عاشور في قوله: «... ولولا أَنْ عَصَمْناكَ من الخطأ في الاجتهاد، وأريناكَ أَنَّ مصلحةَ الشدة في الدين، والتنويهَ بأَتْباعه ـ ولو

كانوا من ضعفاءِ أهل الدنيا ـ لا تعارضُها مصلحةُ تأليفِ قلوبِ المشركين. . فإنَّ إظهارَ الهوادةِ في أَمرِ الدين تُطمِعُ المشركين في الترقّي إلى سؤالِ ما هو أَبعدُ مدى مما سألوه، فمصلحةُ ملازمةِ موقفِ الحزم معهم أرجحُ من مصلحةِ ملاينتِهم وموافقتِهم. .

ولولا ذلك كلِّه لقد كدتَ تركنُ إليهم قليلاً، أي تميل إليهم، أي: توعدُهم بالإجابةِ إلى بعضِ ما سألوك، استناداً لدليلِ مصلحةٍ مرجوحةٍ واضحة، وغفلةٍ عن مصلحةٍ راجحةٍ خفية، اغتراراً بخفّةِ بعضِ ما سألوه، في جانبِ عِظَمِ ما وُعدوا به من إيمانِهم!.

. . . وركونُ الرسولِ ﷺ إليهم غيرُ واقع، ولا مقارب الوقوع، وقد نفَتْهُ الآيةُ بأربعةِ أمور، هي: (لولا) الامتناعية. وفعْلُ المقاربة (كاد) المقتضي أنّه ما كانَ يقعُ الركون ولكن يقعُ الاقترابُ منه. والتحقيرُ المستفادُ من كلمة (شيئاً). والتقليلُ المستفادُ من كلمةِ (قليلاً).

أي: لولا إفهامُنا إياكَ وَجْهَ الحقِّ لخيفَ أَنْ تقتربَ من ركونٍ ضعيفٍ قليل، ولكنَّ ذلك لم يقع. . ودخلَتْ (قَدْ) في حَيِّزِ الامتناع: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ فأصبحَ تحقيقُها معدوماً. . أي: لولا أَنْ ثبّتناكَ لتحقَّقَ قربُ ميلِك القليل، ولكنَّ ذلك لم يقع، لأنّا ثبّتناك. . . »[1].

سيد قطب يستخرج منه الدروس للدعاة:

وثباتُ الرسولِ ﷺ أمامَ مساوماتِ وإغـراءاتِ الكفارِ درسٌ للدعـاةِ من بعدِه، فأصحابُ السلطانِ حريصونَ على مداهنتِهم ومساومتِهم، ليتخلّوا عن بعضِ الحقِّ الذي عندهم، ليلْتقوا مع الآخرين في منتصف الطريق، وإنْ فعلوا ذلك يكونون قد تخلّوا عن الحقّ، وساروا مع الباطل.

قال سـيد قطب في اسـتفادتِه هذا الدرسَ الدعـويَّ من الآيـات: «هذه المحاولاتُ التي عصمَ اللهُ منها رسولَه، هي محاولاتُ أصحابِ السـلطان مع أصحابِ الدعواتِ دائماً. . محاولةُ إغرائهم لينحرفوا ـ ولو قليلاً ـ عن استقامةِ الدعوةِ وصلابتِها، ويَرضوا بالحُلولِ الوسط التي يُغْرُونهم بها، في مقابلِ مغانمَ كثيرة.

---

(١) تفسير ابن عاشور: ١٥/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

ومن حملـةِ الدَّعَوات مَنْ يُفتنُ بهذا عن دعوتِه، لأنه يرى الأَمْرَ هيِّنـاً، فأصحابُ السلطانِ لا يَطلبونَ إليه أنْ يَتركَ دعوتَه كلية، إنما هم يطلبون تعديلاتٍ طفيفة، ليلتقيَ الطرفان في منتصف الطريق. . وقد يدخلُ الشيطانُ على حاملِ الدعوةِ من هذه الثغرة، فيصوِّرُ أنَّ خيرَ الدعوةِ في كسبِ أصحابِ السلطانِ إليها، ولو بالتنازلِ عن جانبٍ منها. .

ولكنَّ الانحرافَ الطفيفَ في أَولِ الطريق يَنتهي إلى الانحراف الكاملِ في نهايةِ الطريق. . وصاحبُ الدعوةِ الذي يقبلُ التسليمَ في جزءٍ منها ولو يسير، وفي إغفالِ طرفٍ منها ولو ضئيل، لا يملكُ أَنْ يَقفَ عندما سَلَّمَ به أولَ مرة، لأنَّ استعدادَه للتسليمِ يتزايدُ كلَّما رجعَ خطوةً إلى الوراء.

والمسألةُ مسألةُ إيمانٍ بالدعوةِ كلِّها، فالذي يَنزلُ عنِ جزءٍ منها مهما صَغُر، والذي يسكُتُ عن طرفٍ منها مهما ضَؤُلَ، لا يمكنُ أنْ يكونَ مؤمناً بدعوتِه حقّ الإيمان. فكلُّ جانبٍ من جوانبِ الدعوةِ في نظر المؤمن هو حقٌّ كالآخر، وليس فيها فاضلٌ ومفضول، وليس فيها ضروريٌّ ونافلة، وليسَ فيها ما يمكنُ الاستغناءُ عنه. . وهي كلٌّ متكاملٌ يفقدُ خصائصَه كلَّها حين يفقدُ أحدَ أجزائِه، كالمركبِ يفقدُ خواصَّه كلَّها إذا فُقِدَ أحدُ عناصرِه.

وأصحابُ السلطانِ يستدرجونَ أصحابَ الدعوات، فإذا سَلَّموا في الجزءِ فقدوا هيبتَهم وحصانتَهم، وعَرَفَ المتسلِّطون أنَّ استمرارَ المساومةِ وارتفاعِ السعر يَنتهيان إلى تسليم الصفقةِ كلِّها!.

والتسليمُ في جانبٍ ـ ولو ضئيل ـ من جوانبِ الدعوةِ لكسبِ أصحابِ السلطانِ إلى صفِّها هو هزيمةٌ روحية بالاعتماد على أصحابِ السلطانِ في نصرةِ الدعوة، واللهُ وحده هو الذي يَعتمدُ عليه المؤمنون بدعوتِهم، ومتى دَبَّت الهزيمةُ في أعماقِ السريرة، فلنْ تنقلبَ الهزيمةُ نصراً»[1].

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٢٤٥.

نسيان الرسول ﷺ قول: إن شاء الله

قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

يوجِّهُ اللهُ رسولَه ﷺ إلى أَنْ يُعلقَ كلَّ وعدٍ يعدُه في المستقبل بمشيئةِ الله، فإذا قال: سَأَفعلُ ذلك الشيءَ غداً، علَّقَهُ بالمشيئة، واستثنى، وقال: إنْ شاءَ الله. فإذا نسيَ أنْ يستثني ويقولَ: إنْ شاءَ الله، فعليهِ أنْ يذكرَ اللهَ عندما يتذكَّرُ ذلك.

وفي هاتين الآيتيْن عتابٌ من الله لرسوله ﷺ، على وَعْدٍ وَعَدَهُ ونسيَ أنْ يقول: إنْ شاءَ الله.

وهذا الوعدُ متعلِّقٌ بإنزالِ سورةِ الكهفِ التي ورَدَتْ فيها هاتان الآيتان، فلْنُوردْ سببَ نزولِ السورة، ولْنَتعرَّفْ على ذلك الوعد، الذي تعلَّقَ به هذا العتاب.

سبب نزول سورة الكهف:

روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعثتْ قريشٌ النَّضْرَ ابن الحارث وعُقبةَ بنَ أبي مُعَيْط إلى أحبارِ اليهود في المدينة، ليسألوهم عن رسولِ الله ﷺ، وقالوا لهم: سَلوهم عن محمد ـ ﷺ ـ وصِفوا لهم صفتَه، وأَخْبِروهم بقولِه، فإنّهم أهلُ الكتابِ الأوّل، وعندهم علمُ ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى قَدِما المدينة، فسألوا أحبارَ اليهودِ عن رسولِ الله ﷺ، ووَصفوا لهم أمره وبعضَ قولِه، وقالوا لهم: إنكم أَهلُ التوراة، وقد جئْناكم لِتُخبرونا عن صاحبنا هذا!.

فقالَتْ لهم أَحبارُ اليهود: سَلوهُ عن ثلاثةٍ نأمُرُكم بهنّ، فإنْ أَخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مُرسَل، وإنْ لم يفعلْ فالرجلُ متقوِّل، فَرَوْا فيه رأْيَكم! . سَلوه عن فتيةٍ قد ذهبوا في الدهر الأوَّل، ما كان من أمْرِهِم، فإنه قد كانَ لهم حديثٌ عجيب؟ وسَلوهُ عن رجلٍ طوّاف، بلغ مشارقَ الأرضِ ومغاربها، ما كانَ نبؤُه؟ وسَلوهُ عن الروحِ ما هي؟ .

فأقبلَ النَّضْرُ وعُقْبَةُ حتى قَدِما مكة، فقالا: يا معشرَ قريش: قد جئْناكم بفصْل ما بيننا وبين محمد، قد أمَرَنا أحبارُ اليهودِ أَن نسأَلَه عن أُمور، وأَخبروهم بها.

فجاؤوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا محمد: أَخْبِرْنا عن: فتيةٍ ذهبوا في الدهرِ الأول، كانتْ لهم قصةٌ عَجَب، وعن رجلٍ كان طوافاً بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغارِبَها، وأَخبِرْنا عن الروح ما هي؟ .

فقالَ لهم رسولُ الله ﷺ: أُخبِرُكم بما سأَلْتم عنهُ غداً! .

ونَسِيَ أنْ يقول: إنْ شاءَ الله! .

ولمَّا جاءَ الغدُ لم يأْتِهِ جبريلُ بالجواب، ومكثَ رسولُ الله ﷺ خمسَ عشرةَ ليلة لا يأْتيه الوحي! .

فأرجفَ أهلُ مكة، وقالوا: وَعَدَنا محمد غداً، واليومَ مضى خمسَ عشرةَ ليلة، ولم يُخبرْنا محمد عن ذلك.

وأحزنَ رسولَ الله ﷺ تأخُّرُ الوحي عنه، وشَقَّ عليه ما يتكلَّمُ به أَهلُ مكة.

ثم جاءَهُ جبريلُ عليه السلام من اللهِ عزَّ وجلّ بسورَةِ الكهف، وفيها معاتبتُه على حزْنِه عليهم، وخَبَرُ ما سأَلوه عنه من أَمْرِ الفتية، والرجلِ الطوّاف، أما الروحُ فقد قال الله عنها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥][1].

تحالف المشركين واليهود ضد رسول الله ﷺ:

تدلُّ هذه الحادثةُ العجيبةُ على تَتَلْمُذِ المشركين على اليهود، وتحالُفِ

(١) تفسير الطبري: ١٥/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

الفريقيْن معاً ضدَّ رسول الله ﷺ والإسلام والمسلمين، فها هم مشركو قريش يَلجؤون إلى اليهود، يتعلَّمون منهم الكيدَ ضدَّ رسولِ اللهِ ﷺ، وأَمَرَهم اليهودُ بتوجيهِ ثلاثةِ أسئلة، لا يعلمُ جوابَها إلا نبيّ: عن أهلِ الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فجاءَ المشركون فرحين إلى رسول الله ﷺ، ليسأَلوه ويُحرِجُوه ويُفحِموه، ولما سمعَ الأسئلةَ الثلاثة وعَدَهم أَنْ يأْتيهم بالجوابِ في الغد، أَمَلاً منه في أَنْ يُنزلَ اللهُ عليه جبريل، ومعه الجواب! ولكنَّ اللهَ قَدَّرَ أَنْ يَنسى ﷺ الاستثناءَ في الوعد، فلم يقل: أُجيبكم غداً إِنْ شاءَ الله!.

وعاتبَ اللهُ رسولَه ﷺ على ذلك، فَأَخَّرَ عنه الوحيَ خمسَ عشرةَ ليلة، مع أَنَّه بحاجةٍ شديدة إلى الجواب، لأَنَّه في امتحانٍ صعب، مُوجَّهٍ له من اليهود والمشركين، وهم ينتظرونَ جوابَه، ليَبْنوا على ذلك نتيجةً تتعلَّقُ به وبدعوته. وهو وَعَدَهم بتقديم الجواب في الغد.

وكلَّما مَرَّ يومٌ يزدادُ المشركون تَنَدُّراً بالنبيِّ ﷺ، وتهكُّماً عليه، وهو يزدادُ حزناً على تأَخُّرِ الوحي وكلامِ المشركين، حتى انقضى خمسة عشرَ يوماً، وهذا تقديرُ اللهِ العزيزِ الحكيم، الذي أرادَ بتأخيرِ الوحيِ أَنْ يتعلَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ - والمسلمون من بعده - هذا الدرسَ البليغ!.

وأَسعَفَ اللهُ رسولَه ﷺ بعد ذلك بالجواب، لأَنَّه لا يتخلَّى عنه، وأَنزلَ عليه سورةَ الكهف، وفيها الجوابُ على قصّةِ أصحابِ الكهف، وعلى قصّةِ ذي القرنين، أمّا الروح فقد جاءَ الجوابُ عن سؤالها في سورةِ الإسراء، وهو أَنَّه لا يمكنُ لأحد من المخلوقين أَنْ يعرفَ حقيقتَها، لأَنَّ اللهَ استأْثَرَ بالعلمِ بها.

نظرة في الآيات النازلة في الحادثة:

وقدَّم رسولُ الله ﷺ الجوابَ للمشركين، وأَسمعَهم الآياتِ النازلةَ عليه، ونجحَ في الامتحانِ الصعبِ بأَمْرِ الله، وأيقنوا - هم واليهود - أنَّه رسولُ الله، وأَنَّ القرآنَ كلامُ الله، لكنَّهم لم يؤمنوا، وإنما ازدادوا كفراً وعناداً.

وقد عاتبَ اللهُ رسولَه ﷺ لأَنَّه نسيَ أَنْ يقول: إِنْ شاءَ الله، ووردَ هذا العتابُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤].

وقولُه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ نهيٌ، وهذا النهيُ معطوفٌ على نهيَيْن سابقَيْن، والآياتُ هي: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٢ ـ ٢٤].

تتحدَّثُ الآيـاتُ عن اختلافِ السـابقين في عَددِ أصحابِ الكهف، وقد ذكرتْ لهم ثلاثةَ أقوال، ردَّت القولَيْن الأوَّلين، وسكَتَتْ عن الثالثِ مُقرَّةً له.

قـالَ بعضُهم: كانوا ثلاثةً رابعُهم كلبُهم، وقال آخرون: كانوا خمسـةً سـادسُهم كلبُهم، وهذان قـولان مردودان لأنَّـه ليس عليهما دليل، وقالَهما أصحابُهما من بابِ الافتراضِ والرجم بالغيب.

وقال آخرون: كانوا سبعةً وثامنُهم كلبُهم. وهذا هو الراجحُ، لأنَّ الآيةَ سَكَتَتْ عنه، وأَخبرَتْ أنَّه يمكنُ أنْ يعلموا عددَهم، وذلك في قولها: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

نهي الرسول ﷺ عن ثلاثة أشياء:

وبعدَ ذلك نهى اللهُ رسولَه ﷺ عن ثلاثةِ أشياء:

الأوَّل: نهاهُ عن المراءِ والجِدالِ بشأنِ أصحابِ الكهفِ دون دليل، فإنْ كانَ عندَه دليلٌ مارى وجادَلَ الآخرين، اعتماداً على ذلك الدليل، وهذا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾.

الثاني: نهاهُ عن استفتاءِ وسؤالِ أحدٍ من أهلِ الكتابِ أو غيرِهم بشأنِ أصحابِ الكهف، لأنَّه ليس عندهم علمٌ يقينيٌّ بشأْنِهم، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾. والمعنى: لا تستفتِ في قصةِ أصحابِ الكهفِ أحداً من اليهودِ أو النصارى أو غيرِهم، لأنَّه لا علمَ عندهم.

الثالث: نهاهُ عن أنْ يَعِدَ وَعْداً بشيءٍ في المستقبل إلاّ بعدَ أنْ يستثنيَ ويعلِّقَه بمشيئةِ الله، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

ربط الوعد بمشيئة الله:

ومعنى النهي الثالث: لا تقولَنَّ في شيء، ولا تَعِدْ وَعْداً، بأنَّكَ ستفعلُ شيئاً في المستقبل، إلاَّ بعدَ أنْ تعلِّقَه بمشيئةِ الله.

وليسَ المرادُ بكلمة «غداً» هو اليومُ التالي لهذا اليوم، إنما المرادُ بهِ أيُّ يومٍ قادمٍ، وقد يكونُ بعدَ يومٍ أو أيام.

و«إلاّ» في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ حرفُ استثناء، والجملةُ المصدريةُ بعدَها: ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ في محلِّ نصبِ مستثنى. والتقدير: إلا مشيئةَ الله.

والراجحُ أنَّ المستثنى منه هو «فاعلٌ» قَبْلَ «إلاّ». أيْ: لا تقولَنَّ في شيء إنك ستفعلُه غداً إلا بمشيئةِ الله.

والمعنى: إذا شاءَ اللهُ لكَ فعْلَ ما وعدْتَ أنْ تفعلَه فإنَّكَ ستفعلُه، وإذا لم يشأ اللهُ فعلَ ذلك فإنَّكَ لَنْ تفعلَه، رغمَ جزْمِكَ بفعْلِه، لأنَّكَ لا تفعلُ شيئاً إلاّ بمشيئةِ اللهِ وإذْنِه.

ولذلك عليكَ أنْ تُعلِّقَ كلَّ ما تَعِدُ به بمشيئةِ الله، وعندما تنطقُ بالوعد تُتبعُ ذلك بالاستثناء، فتقول: سأفعلُ كذا وكذا يومَ كذا وكذا، إنْ شاءَ الله!.

وهذا التوجيهُ من اللهِ لرسولِه ﷺ بمناسبةِ وعْدِه للمشركين أنْ يُقدِّمَ لهم الجوابَ على الأسئلةِ الثلاثة، وقولِه لهم: أُجيبكم غداً، ونسيانه أنْ يَستثنيَ قائلاً: أُجيبكم غداً إنْ شاءَ الله.

ولذلك دعا اللهُ رسولَه ﷺ إلى أن يذكرَه إذا نسي، فقال له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

والراجحُ أنَّ هذه الجملةَ مرتبطةٌ بما قبلَها ارتباطاً وثيقاً: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

والمعنى: إذا وعدْتَ بفعلِ شيء في المستقبل، ونسيتَ أنْ تستثنيَ قائلاً: إنْ شاءَ الله، ثم تذكَّرْتَ ذلك بعدَ فترة، فاذكُرْ ربَّكَ عندما تتذكَّر، وقل: إنْ شاءَ الله، ولا شيءَ عليك في انفصالِ الاستثناءِ عن الوعد، لأنَّكَ كنتَ ناسياً، ولا شيءَ عليك في النسيان!.

وهذا التوجيهُ ـ مع العتاب ـ للنبي ﷺ، موجَّهٌ لأُمَّتِه أيضاً، فعلى المسلمِ عندما يَعِدُ بفعْلِ شيء في المستقبل أَنْ يُعلِّقَه بمشيئةِ الله، فيقول: سأفعلُ كذا يوم كذا إنْ شاءَ الله.

فإنْ لم يشأ اللهُ لهُ أنْ يفعلَه، وعَجَزَ المسلم عن ذلك، يكون قد احتاطَ بالاستثناء، وسَلِمَ من اللومِ والاعتراض، لأنَّ اللهَ لم يشأْ فِعْلَه.

فإذا نسيَ المسلمُ الاستثناءَ عند النطقِ بالوعد، ثم تذكَّرَ ذلك بعد فترة ـ طالتْ أو قَصُرَت ـ فعليه أَنْ يستثنيَ ذلك عندما يتذكَّر.

إذا وَعَدَ آخَرَ قائلاً: سآتيكَ بعدَ غد، فعلَيه أنْ يُتبعَ ذلكَ بالاستثناء، ويقول: سآتيكَ بعدَ غد، إنْ شاءَ الله. فإنْ نسيَ ذلك، وتذكَّرَ بعد ساعات، أو بعدَ يوم، يقول: سأذهبُ إلى فلانٍ إنْ شاءَ الله.

توجيه نسيان الرسول ﷺ الاستثناء:

ونعودُ الآنَ إلى توجيهِ نسيانِ رسول الله ﷺ، وعتابِ اللهِ له على ذلك:

إنَّ قولَ اللهِ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ فيه نوعٌ من الاعتذارِ أو التبريرِ لرسولِ الله ﷺ! لأنَّه يوحي بأنَّ الرسولَ ﷺ نسيَ أَنْ يَستثنيَ عندما وَعَدَ المشركين بالجواب غداً، نسيَ أَنْ يقول: أُجيبكم غداً إنْ شاءَ الله.

وفي هذا إثباتُ النسيانِ لرسولِ الله ﷺ، والنسيانُ قد يصيبُ رسلَ الله.

وقد أخبرَنا اللهُ عن رسلٍ أصابهم النسيان:

منهم آدمُ عليه السلام الذي نسيَ عهدَ الله بعدم الأكلِ من الشجرة، فأكلَ منها ناسياً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥].

ومنهم موسى عليه السلام الذي اتفقَ مع الخضرِ عليه السلام على أنْ لا يَعترضَ على فعلِه، فلما خرقَ الخضرُ السفينة واعترضَ عليه موسى، وذكَّرَه باتِّفاقِه معه، اعتذرَ عن ذلك بنسيانِه. قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣].

ومنهم سليمان عليه السلام، الذي وعد أن يفعل شيئاً، ونسي أن يستثني بقوله: إن شاء الله. وأخبرنا عن ذلك رسول الله ﷺ:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: قالَ سليمانُ بنُ داود عليهما السلام: لأطوفَنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأة، كلُّهُنَّ تأتي بفارس، يُجاهدُ في سبيلِ الله.

فقالَ له صاحبُه: قل إنْ شاءَ الله.

فلم يقل: إنْ شاءَ الله. فلم تحملْ منهنَّ إلاّ امرأةٌ واحدة، جاءَتْ بشقِّ رجل! والذي نفسُ محمدٍ بيده لو قالَ: إنْ شاءَ الله، لجاهَدوا في سبيلِ الله فرساناً أَجْمَعون»[1].

كان لسليمانَ عليه السلام سبعينَ امرأةً، ما بين زوجةٍ وأَمَة، وأرادَ أنْ يكونَ له أولادٌ كثيرون، ليكونوا فرساناً مجاهدين، فعزَمَ على أنْ يطوفَ في ليلةٍ من الليالي على نسائِه السبعين، ليلدْنَ له سبعينَ مجاهداً، ولما قال هذا الكلامَ لصاحبه نصحَهُ صاحبُه أَنْ يقول: إنْ شاءَ الله، ولكنَّه نسيَ ذلك، وعاشَرَ نساءَه في تلك الليلة، وابتلاهُ اللهُ لنسيانِه الاستثناء، فلم تحمل من السبعين إلا امرأةٌ واحدة، ولما وضعَتْ حَمْلَها كانَ مولوداً مشوَّهاً نصفَ إنسان، وُلِدَ ميتاً.

ولو قالَ سليمانُ عليه السلام: إنْ شاءَ الله، لأنجَبَتْ له نساؤُه سبعينَ فارساً مجاهداً.

ولم يُخطئ رسولُ الله ﷺ في عدمِ قوله: سأُجيبكم غداً إنْ شاءَ الله، كما لم يخطئ سليمانُ عليه السلام من قبل، عندما لم يقُل: إنْ شاءَ الله.

فمن المعلوم أنَّ الرسولَ ﷺ أعظمُ المؤمنين إيماناً، وأعرفُهم بالله، وهو يوقنُ أنَّه لا يمكنُ أنْ يفعلَ أيَّ فعلٍ إلاّ بمشيئةِ الله وإذْنِه، لأنَّه ما شاءَ الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وكانَ متوكِّلاً على الله في أُمورِه كلِّها، وهو لم يتعمَّدْ تركَ الاستثناء، وحاشاه من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب من طلب الولد للجهاد، حديث رقم: ٢٨١٩؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب الاستثناء، حديث رقم: ١٦٥٤.

لقد تركَ ﷺ الاستثناءَ ناسياً، وأشارَ إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾.

ومن المعلوم أنَّ اللهَ لا يؤاخذُ الناسي، سواء كان رسولاً نبيّاً، أو مسلماً صالحاً، ولهذا عَلَّمَ اللهُ المؤمنينَ أنْ يَدْعوه قائلين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[البقرة: ٢٨٦].

نسيان الرسول ﷺ دليل بشريّته:

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن عدمِ مؤاخذةِ مَنْ تَرَكَ شيئاً نسياناً. فعن ابنِ عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ وضعَ عن أُمَّتي الخطأَ والنِّسْيانَ وما استُكْرِهوا عليه»[1].

إذنْ: لا يُؤاخَذُ رسولُ الله ﷺ لنسيانِه الاستثناء، لأنَّ النسيانَ ليس ضمنَ قدرتِه واختيارِه، ولا سلطانَ له عليه، ولا يُلامُ الإنسانُ على شيءٍ لا سلطانَ له عليه.

وهذا النسيانُ الذي كان يُصيبُ ويَعتري رسولَ الله ﷺ أحياناً دليلٌ على بشريّتِه وتأكيدٌ عليها، فهو رسولٌ بَشَر ﷺ، يُصيبُه ما يُصيبُ البَشَرَ من عوارضَ بشريّة.

وكان النسيانُ يُصيبُ الجانبَ البشريَّ للرسول ﷺ، فيتذكّرُ ما نسيَه، أو يُذَكِّرُه بعضُ أصحابه، أما الجانبُ النبويُّ الرساليُّ من شخصيّتِه ﷺ فإنَّه مُنَزَّهٌ عن هذا النسيان، حيثُ عصمهُ اللهُ منه، فبلَّغَ الناسَ دينَ الله، وكتابَ الله، وأحكامَ الله، ولم ينسَ من ذلك شيئاً أبداً. وقد تكفَّلَ اللهُ بعدمِ نسيانه في هذا الجانب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦ ـ ٧].

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه، برقم: ٢٠٤٥.

الفصل التاسع

إلقاء الشيطان في أمنية الرسول ﷺ

أخبرَ اللهُ أنَّ كُلَّ رسولٍ ونبيٍّ يرسلُه إلى قومِه يتمنَّى، ويُلقي الشيطانُ في أُمنيته، فينسخُ اللهُ ما يُلقي الشيطان، ويجعلُ ذلك الإلقاءَ فتنةً للكافرين الذين في قلوبهم مرض، وهذا انطبقَ على رسولِ اللهِ ﷺ في ما تَمنَّاه.

وردَ هذا في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

اختلاف المفسرين في ما تمناه الرسول ﷺ:

للمفسرين كلامٌ كثيرٌ حولَ ما تمنَّاه الرسولُ ﷺ، وما أَلقاهُ الشيطانُ في أُمنيَّتِه، وكيفَ نسخَه اللهُ ثم أَحكمَ آياتِه، وأَوردَ كثيرٌ منهم في ذلك رواياتٍ باطلةً لم تَثبت ولم تَصح، وهي المعروفةُ باسم (قصة الغرانيق)، وتزعمُ تلكَ الأَباطيلُ أَنَّ الشيطانَ أَلقى كلاماً على لسانِ رسولِ الله ﷺ مَدَحَ فيه أَصنامَ المشركين، وأَنَّ هذه الآياتِ من سورةِ الحج تتحدثُ عن ذلك.

وكعادتِنا في عدمِ ذكْرِ الإسرائيليات والأَباطيل، فإنا نُنزِّهُ هذا البحثَ عن تلكَ الرواياتِ الباطلة، التي تتعارضُ مع القرآنِ والسنةِ والعقل، ومَنْ أرادَ الاطلاعَ عليها فلْيراجعها في مختلفِ كتبِ التفسير، منها تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي. . . وغيرهم.

ومِنْ أفضلِ مَنْ ناقَشَ تلك الأَباطيل ونقضَها وأَبطَلَها وبيَّنَ معارضتها للكتابِ والسنّة والعقل، الإمامُ الرازي في تفسيرِه، والإمامُ ابنُ كثير في تفسيره،

وسيد قطب في (الظلال)، ومحمد الأمين الشنقيطي في (أضواء البيان). وقد توسَّع جمال الدين القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) في إبطالِها ونقْضِها، وهو خَيْرُ مَنْ تكلَّمَ عن هذا الموضوع. ويمكنُ مراجعةُ تفسيرِ هذه الآيات من سورةِ الحج في تلك التفاسيرِ المذكورة، ليطَّلِعَ القارئ على الرواياتِ المشارِ إليها، ويَعرِفَ بطلانها، ويَقِفَ على المعنى الصحيحِ للآيات.

وسنبيِّنُ معنى هذه الآيات، كما استخلَصْناهُ من التفاسيرِ التي أشرنا إليها، مستعينين بالله.

يقولُ اللهُ لرسولِه محمد ﷺ: كلُّ رسولٍ أو نبيٍّ أرسلَه اللهُ من قبلِك إلى قومه كان يتمنَّى، وعندما يتمنَّى أُمنيَّتَه كان الشيطانُ يُلقي فيها. وبعدَ ذلك يَنسخُ اللهُ ويُلغي ويُبطل ما يُلقيه الشيطان، ثم يُحكمُ اللهُ آياتِه وهو العليم الحكيم..

والعلَّةُ من إلقاءِ الشيطان في أُمنياتِ الأنبياء والرسل ثم نسخِ ذلك الإلقاء أنَّ اللهَ يريدُ أن يجعلَ ذلك الإلقاءَ فتنةً وابتلاءً للكفار الذين في قلوبهم مرض، حيث يُفْتَنونَ به ويتَّبعونَه ويَضِلُّون. أَما المؤمنون العالمون فإنهم لا يُفتنون بما يلقيه الشيطان، وإنَّما يتَّبعون القرآن؛ لأنَّهم يوقنون أنَّه حَقٌّ من الله.

معنى التمنّي:

نقفُ الآنَ لنتساءَل: ما الذي تمنَّاهُ رسولُ الله ﷺ؟ وما الذي أَلقاهُ الشيطانُ في أُمنيَّته؟ وإلى مَنْ أَلقاه؟ وكيفَ نسخَه اللهُ وأَحكمَ آياتِه؟ وكيفَ صارَ ذلك الإلقاءُ فتنةً للكفار الذين في قلوبهم مرض؟.

ما معنى (تمنَّى) و(أُمنيَّته)؟ المذكورتان في الآية: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾:

الراجحُ أنَّهما على معناهما الظاهر المعروف، المتبادرُ للذهن.

قالَ جمال الدين القاسمي: «الأُمنيةُ أُفعولة بمعنى المُنْيَة، وجمعُها أَمانيّ.

وقال أبو العباس أحمدُ بنُ يحيى: التمنّي: حديثُ النفس، بما يكونُ وبما لا يكون. والتمنّي: سؤالُ الرب.

وقال ابنُ الأثير: التمنّي: تَشَهِّي حُصولِ الأمرِ المرغوبِ فيه، وحديثُ

النفسِ بما يكونُ وبما لا يكون.

وقالَ أبو بكر: تَمَنَّيْتُ الشيءَ إذا قَدَّرْتُه، وأَحببتُ أنْ يصيرَ إليَّ»[1].

كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يتمنَّى حُصولَ شيء، ويُحَدِّثُ نفسَه به، ويرجو تحقُّقَه، ويحبُّ أنْ يراه، وكانَ الشيطانُ يُلقي في أُمنيته التي يتمنَّاها، ويعملُ على إفشالِها وعدمِ تحقُّقِها.

ولَسنا مع مَنْ ذهبَ إلى أنَّ معنى (تمنّى): قَرَأَ وتلا. وأنَّ معنى ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: أضافَ الشيطانُ في قراءتِه. فهذا لا يتفقُ مع عصمةِ رسولِ الله ﷺ في التبليغ.

ما الذي تمنَّاه رسول الله ﷺ؟:

الذي كان يتمناه رسول الله ﷺ، ويرجو تحقُّقَه وحصولَه هو إيمانُ قومِه ودخولُهم في دينه، وتخلّيهم عن الكفرِ والعنادِ والتكذيب، وكانَ الشيطانُ يُلقي في هذه الأُمنيةِ النبويةِ الكريمة، ويَحرصُ على إبطالِها وإفشالِها.

وليستْ هذه أُمنيةَ الرسولِ ﷺ وحده، بل هي أُمنيةُ كلِّ رسولٍ ونبيٍّ من قبله، لأنَّ كلَّ رسولٍ ونبيٍّ كان يحرصُ على إيمانِ قومِه، ويَبذلُ أقصى جهدِه في ذلك، ويتمنّى تحققه، ولكنَّ أُمنيته لم تكنْ تتحقَّق، لأنَّ الشيطانَ كان يُلقي فيها، وكان يَكفرُ به ويُكذِّبه ويُحاربه كثيرٌ من قومه، فينْصُره اللهُ عليهم ويهلكهم ويَقضي عليهم.

وهذا ما تحقَّقَ لرسولِنا محمدٍ ﷺ، حيثُ كان يتمنَّى إيمانَ قومِه واهتداءَهم، وبذلَ جهدَه في ذلك، ولكنَّ الشيطانَ أَلقى في أمنيته، وفتنَ الكافرين واستحوذَ عليهم، ونصرَ اللهُ رسولَه ﷺ عليهم.

وهذا يدلُّ على أنَّ هذه سنَّةَ اللهِ تعالى في الأنبياءِ والرسل، وفي دعوتِهم لأقوامِهم، والصراع بينهم وبين الكافرين.

وآياتُ سورة الحج تتحدَّثُ عن هذه السُّنَّة، فآيةُ تمني الرسولِ ﷺ (رقم:

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي: ١٢/ ٥٢.

٥٢) واردةٌ ضمنَ وحدةٍ متكاملة، مكوَّنةٍ من ستَّ عشرةَ آية (٤٢ ـ ٥٧)، وكلُّها تتحدَّث عن سُنَّةِ اللهِ تعالى في المواجهةِ بين الرسلِ وأقوامِهم الكافرين، وانتهاء تلك المواجهة بانتصار الرسل وهزيمة الكافرين.

سياق آية التمنّي في سورة الحج:

ندعو إلى إمعان النظر في آياتِ الوحدة للوقوف على تلك السُّنَّة، ومعرفةِ نتائجِ تمنّي الرسلِ المشارِ إليه.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٥٧].

يُخبرُ اللهُ رسولَه ﷺ في هذه الآيات أنَّه ليس هو أولَ نبيٍّ كذَّبه قومُه، فقد كذَّبَ الأقوامُ السابقون رسلَهم، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيمَ وقومِ لوطٍ وأصحابِ مدين وفرعون وقومه، فدمَّرَهم اللهُ ونصرَ رسلَه عليهم، وأبقى آثارَ الهالكين السابقين عبرةً لغيرهم.

فلماذا لم يَعتبرْ كفارُ قريش بتلك الآثار؟ لَمْ تَعْمَ أبصارُهم، ولكن عميتْ قلوبُهم التي في صدورهم، بسببِ كفرِهم، وبَدَلَ أَنْ يعتبروا بما حَلَّ بالسابقين من العذابِ صاروا يستعجلونَ العذاب، ويَطلبونَ من رسولِ الله ﷺ سرعةَ إيقاعِه بهم، وهدَّدهم اللهُ بأنَّهم سيُعَذَّبون إنْ لم يؤمنوا، لأنَّ سنَّته أَنْ يمليَ للكافرين الظالمين، ثم يأْخُذَهم ويهلكَهم..

وبعدما ذَكَرَ اللهُ لرسولِه ﷺ سُنَّتَهُ المذكورةَ أَمرَهُ أَنْ يُخاطبَ الناسَ بالدعوة، وأَنْ يُبلِّغَهم الرسالة، وأَنْ يُخبرَهم أنَّه لهم نذيرٌ مبين، فمن استجابوا لدعوتِه وآمنوا واستقاموا أَخَذوا الأَجرَ والثواب، ومَنْ رفضوا دعوتَه وحاربوه وسَعَوا في إبطالِ آياتِه أَهلكَهم اللهُ ودمَّرهم.

حرص الشيطان على إبطال أمنية رسول الله ﷺ:

ثم أخبرَ اللهُ رسولَه أنَّ الشيطانَ يريدُ إبطالَ أُمنيته التي كان يتمنَّاها، وهي إيمانُ واهتداءُ قومه، كما فعلَ مع أُمنياتِ الرسلِ والأنبياءِ السابقين، حيث كان يحرصُ على إبطـالِ أُمنيـاتِهم ومحاربـةِ دعـواتهم. ولكنَّ اللهَ مع رسـلِه بـالنصر والتمكين، حيثُ كانَ ينسخُ ما يُلقي الشيطان، ويُحكِمُ آياتِه، بنصْرِ رسلِه وهزيمةِ أعدائه.

وبَيَّنَ اللهُ أنه لا يتأثَّرُ بما يُلقيه في أُمنياتِ الرسلِ إلاَّ الكافرون، الذين في قلوبهم مرض، وهم الظالمون القاسيةُ قلوبُهم، حيثُ يُفْتَنون بما يلقيه الشيطانُ ويَقْبلونه، فيتَّبِعُونَ الباطلَ ويُكَذِّبون الرسلَ ويُحاربونهم، أما المؤمنون العالمون فإنَّهم يُصدقون بالقرآن، ويَعلمونَ أنَّه الحقُّ من عندِ الله، ويَهتدونَ به إلى صراطٍ مستقيم، ويَتَّبعون النبيَّ ﷺ، وشَتَّانَ بين موقفِ هـؤلاء المؤمنين العالميـن المهتدين، وموقفِ الكافرين المفتونين بما يُلقيه الشيطان، الذين يَبقون في مريةٍ وشكٍّ من القرآن والحقِّ حتى تأْتيهم سنَّةُ الله، ويوقعُ اللهُ بهم عذابَه في الدنيا قبلَ الآخرة..

هـذا هو موضوعُ الوحـدةِ التي تتحدَّثُ عن أُمنيـةِ الرسولِ ﷺ التي يُلقي الشيطانُ فيها وساوسَه، ثم يَنسخُ اللهُ تلك الوساوس، ويُحكِمُ الأُمنيةَ الكريمة، فينصرُ رسولَه ويَهزمُ أعداءَه، كما فعلَ مع الرسل السابقين.

عشر نظرات تحليلية لآيات التمنّي:

بعد معرفـةِ موضوعِ الـوحدةِ كلّها وآياتِ التمنّي ننظرُ نظرةً عجلى في صياغتها:

١ ـ جعلت الآيةُ التمنّي وإلقاء الشيطانِ في أُمنيةِ الرسولِ موجوداً عند كلِّ نبيٍّ ورسولٍ قبلَ محمد ﷺ، وعَبَّرَتْ عن ذلك بأسلوب الحصر، مستخدمةً أداتي الحصر: (ما) و(إلا): ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: كلُّ رسولٍ ونبيٍّ كان يتمنّى، وكان الشيطانُ يُلقي في أُمنيته.

٢ ـ فرّقَت الآيةُ بين الرسولِ والنبي، بعطفِ النبيِّ على الرسول: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ والعطفُ يقتضي التغايُر، والراجحُ في التفريقِ بينهما أنَّ كُلاًّ منهما أرسلَه اللهُ إلى قومه، وأَمرَهُ بدعوةِ قومِه وتبليغِهم، لأنَّه قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾، فكلٌّ منهما مُرسَل.

والفرقُ بينهما أنَّ الرسولَ بعثَه اللهُ برسالةٍ جديدة، أما النبيُّ فقد أمرَهُ اللهُ باتباعِ رسالةِ الرسول الذي قبلَه، ودعوةِ الناسِ إليها، ولم يخصَّه برسالةٍ جديدة.

٣ ـ عبَّرَت الآيةُ عن تمنّي الرسولِ وإلقاءِ الشيطانِ فيه بالجملةِ الشرطية وظرفِ الزمان (إذا)، حيث قالت: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

ومعلومٌ أنَّ (إذا) ظرفٌ للزمان المستقبل، يتضمَّنُ معنى الشرط، وأنَّها ينصبُها جوابُ الشرط، وتجرُّ فعلَ الشرط بعد تأويلِه بالمصدر.

فعلُ الشرط هو: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ وجوابُ الشرط هو: ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾. والتقدير: ألقى الشيطانُ في أُمنيةِ الرسولِ والنبيّ وقْتَ تمنّيه لأُمنيته.

٤ ـ المفعولُ به لفعل ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ في الآية محذوف، تقديرُه: «إيمانَ قومه». وتقديرُ الجملة: إذا تمنّى الرسولُ إيمانَ قومِه الكافرين.

٥ ـ المفعـول بـه لفعـل ﴿أَلۡقَى﴾ فـي الآيـة محـذوفٌ أيضـاً، تقـديـرُه: «الشبهات»، وتقديرُ الجملةِ: ألقى الشيطانُ الشبهاتِ والوساوسَ في أُمنيـةِ الرسول.

٦ ـ لم تذكر الجملةُ الذين يُلقي عليهم الشيطانُ وساوسَه وشبهاتِه، وهم معروفون من السياق، إنه لا يُلقي شبهاتِه على الرسولِ ﷺ لأنَّه ليس له سلطانٌ عليه، ولا يُلقيها على المؤمنين لأنَّهم علماء موقنون أنَّ القرآنَ حق، إنَّ الشيطانَ يُلقي شبهاتِه ووساوسَه على حزبِه الكافرين الظالمين، المستجيبين له.

٧ ـ كيف يُلقي الشيطانُ شبهاتِه ووساوسَه على الكافرين؟ إنَّه يُحَسِّنُ لهم تلك الشبهات ضدَّ الحق، ويُزيّنُ لهم الضلالَ والفساد، ويَدعوهم إلى اتباعِ ما كانَ عليه آباؤهم، ويُريهم أنَّه هو الحق، ويدلُّهم على المكائدِ والمؤامراتِ لحربِ الرسولِ ﷺ وأصحابِه ورسالتِه.

ويتلقَّى أولئكَ الكافرون ما يلقيه الشيطانُ إليهم، لإبطالِ أُمنيةِ الرسولِ ﷺ، وينشرونَها على أَتباعِهم، ويُذيعونَها بينهم، فيصدِّقونهم في ما يقولون، ويقومُ الكافرون ـ أتباعاً ومتبوعين ـ بحربِ الرسولِ ﷺ وأَتْباعِه، منفِّذين ما يُلقيه لهم الشيطان.

٨ ـ عَبَّرَت الآيةُ عن إبطالِ وساوسِ وشبهاتِ الشيطان بجملتين: الأُولى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾. والثانية: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾.

والفاءُ في ﴿فَيَنسَخُ﴾ حرفُ عطف، وجملةُ ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.

والنسخُ هنا بمعنى الإبطالِ والإزالة ـ وهذا أَحَدُ معنيي النسخِ في اللغة ـ والمصدرُ المؤوَّلُ من قولِه: ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ في محلِّ نصبِ مفعول به لفعل ﴿أَلْقَى﴾، والتقدير: فينسخُ اللهُ ويُزيلُ إلقاءَ الشيطانِ في نفوسِ الكافرين.

وإذا كان ما يُلقيه الشيطانُ في نفوسِ الكافرين هو الشبهاتِ والمكائدَ ضدَّ الحق، فإنَّ نسخَ اللهِ لها هو فضحُها ونقضُها ودحضُها، وبيانُ زيفِها وباطلِها.

وكيفَ ينسخُ اللهُ إلقاءَ الشيطانِ للشبهات؟ بالآياتِ التي ينزلُها على رسولِه ﷺ، والتي تُقيم الحجّةَ على الكافرين، وتُبطِلُ شبهاتِهم، وتنتصرُ للحق وتُقيمُ الأدلّةَ عليه.

بهذه الآياتِ القرآنيـة التي يتتابعُ نزولُها، يُزيلُ اللهُ شبهاتِ الكفار، ويَنسخُ ما يلقيهِ الشيطانُ منها.

٩ ـ وعطفت الآيةُ إحكامَ اللهِ لآياتِه على نسخِه شبهاتِ الشيطان: ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.

ومعنى إِحكامِ آياتِ الله توضيحُ الحججِ والدلائلِ والبراهينِ القرآنيةِ المنتصرةِ للحق والمواجهةِ للباطل، حيث يَزيدُ اللهُ تلك الدلائلَ والبراهينَ قوةً وثباتاً وتحقيقاً وبياناً، وكلّما تنزلُ آياتٌ جديدةٌ على رسولِ الله ﷺ، تزدادُ الحججُ القرآنيةُ رسوخاً وثباتاً.

١٠ ـ ذكرت الآيتان (٥٣ ـ ٥٤) آثارَ هذه المعركةِ الفكريةِ النظريةِ بين الحقِّ والباطل، الحقِّ المتمثّلِ في أمنيةِ الرسولِ ﷺ إيمانَ قومِه وانتشارَ دينِه، والباطلِ المتمثلِ في إِلقاءِ الشيطان الشبهاتِ على الكافرين ودعوتِهم لحربِ الحق، ونسخِ الله لتلك الشبهات وإِحكامِه لآياته البيّنات.

موقف المؤمنين والكفار من إلقاء الشيطان:

عاقبةُ ونهايةُ هذه المعركة هي افتتانُ أتباعِ الشيطان الذين في قلوبِهم مرضٌ بتلك الشبهاتِ والوساوس الشيطانية، باتِّباعِهم لها: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

واللامُ في ﴿ لِّيَجْعَلَ ﴾ لامُ العاقبة، وفاعلُ يجعل يعودُ على الله، وقد نَصَبَ فعلُ «يجعل» مفعولين: الأول: اسمُ الموصول «ما»، والثاني: «فتنةً». والمعنى: كانتْ عاقبةُ المواجهةِ بين الحقِّ والباطلِ أنَّ اللهَ جعلَ شبهاتِ الشيطانِ فتنةً وامتحاناً لمن اتَّبعوهُ من الكفَّار، حيثُ أخذوها واتّبعوها ودافعوا عنها، ثم انهزموا وخسروا.

أما المؤمنون العالمون فقد أَثْنَى اللهُ عليهم بقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾.

واللامُ في ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ لامُ العاقبة، معطوفةٌ على لامِ العاقبةِ السابقة ﴿ لِّيَجْعَلَ ﴾ وتدلُّ على أَثَرِ شبهاتِ ووساوسِ الشيطانِ في نفوسِ المؤمنين العلماء، فبينما افتتنَ الكافرون بها، فقد رَدَّها المؤمنون ورفضوها، وازدادوا تمسُّكاً بإسلامِهم وثَباتاً عليه، وكانت تلك الشبهات، وما نتجَ عنها من نسخِ اللهِ لها وإِحكامِه لآياتِه، عاملاً على زيادةِ إيمانِ المؤمنين وثباتِهم على الحقّ، وتمسُّكاً به ودعوةً إليه، ومواجهةً لأعدائه.

والضميرُ في «أنه الحق» يعودُ على القرآن، الذي سمعوا آياتِه فآمَنوا بها، وعلمُهم أنَّ القرآنَ حقٌّ من اللهِ زادَ من إيمانِهم به وإخباتِ قلوبهم له.

تحقق ما تمنّاه الرسول ﷺ بانتصارِ دينه:

في ختامِ حديثِنا عن هذه الآيات، وإزالةِ الإشكالِ عن معناها نذكُرُ أنَّ أُمنيةَ الرسـولِ ﷺ في إيمانِ واهتداءِ قومِه قد انتهتْ بانتصارِ دينه، والتمكينِ لأَتْباعِه، وإيمانِ مَنْ تبقّى من الكافرين، بعدما هزمَ اللهُ المعاندين وأَهلكهم، في غزواتِ بدرٍ وأُحُدٍ والخندق وحُنَيْن وغيرها.

وانتهت المواجهةُ بينه وبين قومِه الكافرين بهذه النهايةِ السعيدة له ولدينه وأصحابه، وتلك النهايـةِ السوداءِ لأعدائه، وبذلك يكونُ اللهُ قد أبطلَ وأزالَ شبهاتِ الشيطان، التي أَلقاها في أُمنيةِ الرسولِ ﷺ، وأحكمَ آياتِه.

وهذه هي سـنّةُ اللهِ الحكيمةُ المطردةُ في الصِّـراعِ بين الحقِّ الذي يقودُه الأنبياءُ والرسل، وبين الباطلِ الذي يقودُه الشيطان، على مدارِ التاريخِ الإنساني، وهذا هو المعنى الحيُّ الرائعُ لهذه الوحدةِ من سورةِ الحج، التي فيها الحديثُ عن أُمنيةِ الرسولِ ﷺ النبويةِ الكريمة، وفشلِ الشيطانِ في إبطالِها ونقضِها.

وهذا هو المعنى الذي نَراهُ ونقولُ به ونطمئنُّ إليه، ونحنُ فيه متابعونَ للعلماء المحقِّقين من المفسِّرين، والله تعالى أعلم.

وأينَ هـذا المعنى الحيـويُّ الصائـبُ - إنْ شـاءَ الله - من تلك الأباطيلِ والخرافـاتِ التي أوردَها كذّابون جاهلون، وانطلتْ على بعضِ المفسِّـرين، وأوردوها في تفاسيرِهم حول «الغرانيق العُلى»؟. سامحهم الله[1].

* * *

(١) عُدْ - إن شئت - إلى التفاسير التالية لمزيد معرفة وعلم يقين: تفسير محاسن التأويل، للقاسمي: ١٢/ ٣٦-٥٧؛ وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٢٣٤-٢٣٦؛ وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٧/ ٢٩٦ - ٣٠٨؛ وأضواء البيان، للشنقيطي: ٥/ ٧٢٧-٧٣٦؛ وفي ظلال القرآن، لسيد قطب: ٤/ ٢٤٣١-٢٤٣٦.

الفَصْلُ العَاشِر

زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها

زوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ زيدَ بنَ حارثةَ رضي الله عنه ابنةَ عمّتِهِ زينب بنت جحش رضي الله عنها، ووقعَت بينهما خلافاتٌ كثيرة، أدَّتْ إلى انفصالِهما، وبعدما انتهتْ عِدتُها أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يتزوَّجَها، فصارَتْ إحدى أُمهَّاتِ المؤمنين رضي الله عنهن، وأنزلَ اللهُ في ذلك آياتٍ من سورةِ الأحزاب، لم يُحسِنْ بعضُهم فَهمَ معناها، واتَّهموا رسولَ اللهِ ﷺ اتهاماتٍ باطلة.

وهذه الحادثةُ بحاجةٍ إلى حُسنِ فَهمٍ وتحليلٍ وتوجيه، انطلاقاً من آياتِ القرآنِ الكريم، وما صحَّ من الرواياتِ التي تحدَّثت عنها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٦ـ ٤٠].

تزويجُ زيد بن حارثة بزينب بنت جحش:

كانَ زيدُ بن حارثة رضي الله عنه وثيقَ الصلةِ برسولِ الله ﷺ، وكان عندَه قبلَ النبوّة.

وأَصْلُه من بني كَلْب، وأُمُّهُ من طَيِّئ، وقد زارتْ أُمُّه قومَها، وزيدٌ صغيرٌ معها، فأَغارَتْ خيلٌ على قومِها، وخَطَفوا ابنَها زيداً، وعَرضوه للبيعِ في سوقِ

عكاظ، فاشتراهُ حَكيمُ بن حزام لعمّتِه خديجةَ بنتِ خويلد رضي الله عنها، ولما تزوَّجَها رسولُ اللهِ ﷺ وَهبتْ له زيداً، فصارَ عبداً له.

وحجَّ ناسٌ من بني كَلْب، ورأوا زيداً في مكة، وعادوا فأخبروا أَباه حارثة، وقَدِمَ أَبوهُ وعمُّه كعبٌ إلى مكة، وقابَلا رسولَ اللهِ ﷺ، وطلَبا منه أنْ يَفُكَّ قيدَ ابنِهما من الرّق، ليعودَ معهما إلى أَهلِه، ولْيأخذْ منهما ما شاءَ من المال.

فقالَ لهما رسولُ اللهِ ﷺ: خَيِّرُوه، فإن اختارَكم فهو لكم بغيرِ فداء، وإِن اختارَني فهو لي. ولَمّا خيّروه قالَ للنبيِّ ﷺ: ما أنا بالذي أَختارُ عليك أَحداً.

فأَكرَمَه رسولُ اللهِ ﷺ، حيثُ أَمسكَ بيده، وذهبَ إلى الكعبة، وقال لمن حولَها: اشْهَدوا أنَّ زيداً ابني، يَرِثني وأَرِثُه!.

وبذلك تبنَّاهُ رسولُ اللهِ ﷺ، وهذا قبلَ نبوَّتِه، فكان يُدعى: زيدَ ابنَ محمد!.

وكان زيدٌ رضي الله عنه من أَوائِل مَنْ آمنَ بالنبيّ ﷺ.

وكانت حاضنةُ الرسولِ ﷺ (بَرَكَة الحبشية) التي ورثَها عن أُمِّه آمنةَ بنتِ وهب، وكانت بَرَكة (أُمُّ أَيمن) من السابقين إلى الإسلام أَيضاً. وزوَّجَ رسولُ الله ﷺ زيداً حاضنتَه أُمَّ أَيمن، فأَنجبَتْ له ابنَه (أُسامةَ بن زيد) رضي الله عنهما، وكان هذا قبلَ الهجرة، وقد طلَّقَها زيدٌ فيما بعد[١].

وكانَ ممنْ أَسلَمَ واتَّبَعَ رسولَ الله ﷺ في مكة أَبناءُ عمَّتِه من بيتِ (ابن حجش ابن رئاب الأَسدي)، ومنهم عبد اللهِ بن جحش، وعبيد الله بن جحش، وزينبُ بنت جحش، وحَمْنَة بنت جحش؛ وهم أَبناءُ عمتِه أُميمةَ بنتِ عبد المطلب.

وكانت زينبُ بنتُ جحش رضي الله عنها ممن هاجرَ إلى المدينة.

وبعدَ الهجرةِ بسنوات أَرادَ رسولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُزَوِّجَ زيداً ابنةَ عمتِه زينب، ولما خطبَها له امتنعَتْ، ولما حاورَها وافقَتْ.

روى الطبريُّ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ انطلقَ يخطِبُ لزيدِ بنِ حارثة، فدخلَ على زينبَ بنتِ جحش الأَسدية، فخطبَها، فقالت: لستُ بناكحَتِه! قال لها: أَنكحيه، فقالت: يارسول الله أُؤامرُ في نفسي!.

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني: ١/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤.

وبينما هما يتحدثان أنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

فقالَتْ زينب: هل رضيتَه لي زوجاً يا رسولَ الله؟.

قال ﷺ: نعم.

فقالت: إذن لا أعصي رسولَ الله! قد أَنكحتُه نفسي[1]!.

إبطال التبنّي في سورة الأحزاب:

كان الناسُ يعتبرون زيداً ابناً للنبيّ ﷺ، لأنَّه تبنّاه قبلَ البعثة، وكانوا يقولون: زيدُ ابنُ محمد.

وفي مطلعِ سورةِ الأحزاب حَرَّمَ اللهُ التبنّي، وكان ذلك في السنةِ الرابعةِ من الهجرة. قال تعالَى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾ [الأحزاب: ٤ ـ ٥].

يُخبرُ اللهُ أنَّه لم يجعل الأدعياءَ بالتبنّي أبناء حقيقيين لمن ادَّعوهم، ويأمرُ المسلمينَ أَنْ يَدْعوا هؤلاء الأدعياء لآبائهم، فإنْ لم يعلموا آباءهم، فلْيعتبروهم إخواناً وموالِيَ لهم.

وأولُ ما ينطبقُ هذا على زيدٍ رضي الله عنه، فقد كانَ يُنسبُ إلى رسولِ الله ﷺ، ويُقال: زيدُ ابنُ محمد، وبعد نزولِ هذه الآيةِ نُسبَ إلى أَبيه، فصار يُقال: زيدُ بن حارثة، رضي الله عنه.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ اللهِ بن عمر رضي الله عنهما قال: ما كنّا نَدعو زيدَ بن حارثة إلاّ زيدَ ابن محمد، حتى نزلَ القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[2].

---

(١) تفسير الطبري: ٢٢/١٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ادعوهم لآبائهم، حديث رقم: ٤٧٨٢؛ وصحيح مسلم؛ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة، حديث رقم: ٢٤٢٥.

وأَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يُزوّجَ زيداً ابنَ عمّتِه زينبَ بنت جحش، وكان هذا في السنةِ الرابعةِ من الهجرة، فوافقَتْ زينبُ بعدَ ممانعة.

قالَ الحافظُ ابن كثير: «زَوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ زيداً بابنةِ عمتِه زينبَ بنت جحش الأسدية، وأُمُّها أُميمةُ بنتُ عبد المطلب، وأَصدَقَها عشرةَ دنانير وستين درهماً، وخِماراً، وملحفَة، ودِرعاً، وخمسين مُدّاً من طعام، وعشرةَ أمدادٍ من تمر.. فمكثت عنده قريباً من سنة، أو فوقها...»[1].

تطليق زيد لزينب:

رغم موافقةِ زينب على الزواجِ من زيد، إلاّ أنّها لم تكن راضيةً رضاءً تاماً به، فقد أحسَّتْ بأنَّه ليس كفؤاً لها، فهي القرشيةُ الشريفةُ، وابنةُ عمةِ رسولِ الله ﷺ، وزيدٌ العبدُ الرقيق، الذي عاشَ حياتَه عبداً في بيتِ رسولِ الله ﷺ، ولا يُغيرُ رِقَّه وعبوديّتَه تبنّي الرسولِ ﷺ له، [مع أنّه عربيٌّ من قبيلةِ كلب العربية، وأنّه صارَ رقيقاً بالخطف].

ورغم إيمانِ وصلاحِ زينب، إلا أنّها كان فيها حِدَّةٌ وغضب، واعتدادٌ بنسبِها، ونظرتُها لزوجِها زيدٍ على أنّه دونَها في المنزلة.

ولذلك كان لابدّ أَنْ تقعَ بينهما خلافات، وأنْ لا يرضى زوجُها بعضَ تصرّفاتها، فكان يشكوها لرسولِ الله ﷺ، وكان رسولُ الله ﷺ يأمره بالصبرِ عليها وإِمساكِها.

وكان اللهُ قد أَعلمَ رسولَه ﷺ أنَّ زيداً وزينبَ رضي الله عنهما لن يتفقا، وأنَّ الخلافاتِ الزوجية ستنتهي بينهما بالطلاق، وأنَّ رسولَ سيتزوجُ زينبَ فيما بعد.

وكانَ رسولُ الله ﷺ يُخفي هذا الأمرَ الذي أَخبرَه به في نفسه، مع أنَّه يوقنُ أنَّ اللهَ سيُبديه ويُظهره، لأنَّه كانَ يخشى كلامَ الناس وإِشاعاتِ المنافقين، حيثُ سيقولون: تزوجَ محمدٌ مطلقةَ ابنه!.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٩٥.

رسول الله ﷺ يتزوج زينب:

تحقق قدرُ الله، وطلَّقَ زيدٌ زينبَ رضي الله عنها، وأَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يتزوّجَ زينب، وبعد انقضاءِ عدَّتِها أَرسلَ زيداً نفسَه رضي الله عنه ليخطِبها.

وتزوَّجَها رسولُ الله ﷺ في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة بعدَ غزوةِ الأحزاب.

روى مسلمٌ عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال: «لما انقضَتْ عِدّة زينب، قال رسولُ الله ﷺ لزيد: اذكُرها عَلَيّ.

فانطلقَ زيدٌ حتى أتاها وهي تُخَمِّرُ عجينَها. قال: فلما رأَيْتُها عَظُمَتْ في صدري، حتى ما أَستطيعُ أَنْ أنظرَ إليها، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ذكَرَها!.

فولَّيْتُها ظهري، ونكصتُ على عقِبي، فقلتُ: يا زينب! أَرسلَ رسول الله ﷺ يذكُرُك!.

قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً، حتى أُوامِرَ ربِّي: فقامَتْ إلى مسجدِها، ونزلَ القرآن.

وجاءَ رسولُ الله ﷺ، فدخلَ عليها بغيرِ إذن.

ولقد رأَيْتُنا أنَّ رسولَ الله ﷺ أطعمنا الخبزَ واللحمَ حين امتدَّ النهار.. فخرجَ الناس، وبقيَ رجالٌ يتحدَّثون في البيت بعد الطعام.. فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ، واتبعْتُه، فجعلَ يَتتبعُ حُجَرَ نسائه يسلِّمُ عليهن، ويَقلْنَ: يارسولَ الله! كيف وجدتَ أَهلَك؟.

فما أدري أنا أَخبرتُه أنَّ القومَ قد خرجوا، أَو أَخبرني. فانطلقَ حتى دخلَ البيت، فذهبْتُ أدخلُ معه، فأَلقى السِّترَ بيني وبينه، ونزلَ الحجاب، قال: ووُعظ القومُ بما وُعِظوا به، وأَنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]»(١).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس.

زيد هو الذي خطب زينب لرسولِ الله ﷺ:

اللطيف في الأمرِ أنه بعد انقضاءِ عدةِ زينب رضي الله عنها أَرسلَ رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثةَ نفسَه رضي الله عنه ليخطِبها له، وقال له: اذكرْها عَلَيَّ! أَي: أَخبِرْها أنني أُريدُها زوجة.

والحكمـةُ من اختيارِ زوجها السابقِ ليكونَ خاطباً لها تقريرُ أنه طلَّقَها باختيارِه ورضاه، ومن دونِ إكراهٍ له، وإِثباتِ أنه لم يَبْقَ في قلبِه شيءٌ تجاهَها.

وقـامَ زيدٌ رضي الله عنـه بالمهمةِ بحيويةٍ وتفاعل، وتوجَّهَ إلى زينب، فوَجدَها تُخَمِّرُ عجينَها استعداداً لخبزه، فلما رآها عَظُمَتْ في صدرِه، ولم يشأْ أَنْ يَنظرَ إليها نظرةً واحدة، وهي التي كانت زوجةً له لأكثرَ من سنة، وتَحَرُّجُه من أَنْ يَنظرَ إليها لأنَّ رسولَ الله ﷺ ذكرَها، ويريدُها زوجةً له، وللرسولِ ﷺ مزيدُ إجلالٍ وتوقيرٍ في صدرِ زيد، ولذلك تهيَّبَ أَنْ ينظرَ للمرأة التي يريدُها النبيُّ ﷺ زوجةً له!.

ولذلك أدارَ لها ظهره، وتأخَّرَ عنها، وخاطَبها من بعيدٍ قائلاً: يا زينب! إنَّ رسولَ الله ﷺ يذكرُكِ، وأَرسلَني لأُخبركِ برغبتِه بالزواجِ منكِ!.

ولم تُعلنْ زينبُ فرحَها وسرورَها، واستقبلَتْ الخبرَ بهدوءٍ وتأَنٍّ، ويبدو أنّها كانتْ متأثرةً من خلافِها مع زيد، وتطليقِه لها، ولذلك لم تكن موافقتُها فورية، وإنما قالت: ما أنا صانعةٌ شيئاً حتى أُوامِرَ ربي!.

أَيْ: سأستخيرُ ربي، لمعرفةِ الخيرِ لي في هذا الأمر، وقامتْ إلى مسجدِها لتصلّي صلاةَ الاستخارة.

وبينما هي تصلّي في مسجدِها، أنزلَ اللهُ على رسوله ﷺ آية، أَخبرَه بخلاصةِ قصةِ زيد وزينب، وأَمره بالزواجِ منها، في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾.

وتوجَّهَ الرسولُ ﷺ إلى زينب، ودخلَ بغيرِ إذن، لأنَّ اللهَ هو الذي زوَّجها له بقوله: ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾!.

وفي اليومِ التالي من دخولِه بها أَوْلَمَ رسولُ اللهِ ﷺ بشاة، وأَعدَّ خبـزاً

ولحماً، ودَعا الرجالَ إلى الأكل، وبعد ذلك جلسوا يتحدّثون، وطافَ الرسولُ ﷺ على حجراتِ نسائِه بانتظارِ قيام المدعوين، ولما أُخبرَ أنهم قاموا أخيراً دخلَ البيت على زينب، وأنزلَ اللهُ الآية (٥٣) من سورة الأحزابِ يلومُ المسلمين على ذلك، ويذكُرُ لهم بعضَ آدابِ الدعوةِ والزيارةِ والجلوسِ والطعام.

وقد روى البخاريُّ هذه الحادثةَ عن أَنسِ بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوجَ رسولُ اللهِ ﷺ زينبَ بنتَ جحش دعا القوم، فطعِموا، ثم جَلسوا يتحدّثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قامَ مَنْ قام، وقعدَ ثلاثةُ نفر، فجاءَ النبيُّ ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقْتُ فجئتُ فأخبرتُ النبيَّ ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاءَ حتى دخل، فذهبتُ أدخل، فألقى الحجابَ بيني وبينه فأنزل الله قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ . . .»[1].

نظرة في الآيات التي تحدثت عن الحادثة:

بعدَ معرفةِ ملابساتِ تطليقِ زيدٍ لزينب رضي الله عنهما، وزواجِ الرسولِ ﷺ منها، ننظر في الآيات التي تحدَّثَتْ عن ذلك:

بدأت الآياتُ بخطابٍ من اللهِ للنبيِّ ﷺ، يقول له فيه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

أَيْ: اذكُر حين كان يأْتيكَ زيدُ بنُ حارثة، الذي أَنعمَ اللهُ عليه بالإسلام، وأَنعمتَ عليه بالعتق والتربية والحب. لقد كان يأتيك ليشكو لك زوجتَه زينب، واستمرارَ الخلافاتِ بينهما.

وكنتَ تردُّ عليه بنصْحِه وتوجيهه، وحَلِّ الخلافاتِ بينه وبينها.

ولما لم يتفقا، استشارَكَ زيدٌ في طلاقِها وفراقِها، لكنك رددتَ عليه قائلاً: «أمسك عليك زوجك واتقِ الله».

والمرادُ بالإمساكِ ملازمةُ عِشرتِها والإبقاء على صحبتها وعدم طلاقِها،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حديث رقم: ٤٧٩١.

وتقوى اللهِ في علاقتِكَ معها، وبهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والأمْرُ في قوله: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ ليس للوجوب، وإلا لكانَ عدمُ إمساكِ زيدٍ زوجَتَه حراماً، وكان زيدٌ عاصياً آثماً بطلاقِه لها، مع أنه لم يكن كذلك.. فالأمْرُ هنا للإرشاد، بهدف التوفيق والنصيحة والإصلاح!.

ثم قالَ اللهُ لرسوله ﷺ: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾. وهذه الجملةُ معطوفةٌ على جملة: ﴿تَقُولُ لِلَّذِيٓ..﴾ أيْ: كنتَ تقولُ لزيد: أَمسكْ عليك زوجَك واتقِ الله، بينما كنتَ تُخفي وتكتُمُ في نفسك أَمراً، سيُبديه اللهُ ويُظهرُه للناس.

والذي كان يُخفيه في نفسِه إعلامُ اللهِ له بأنَّ زيداً وزينبَ لن يتفقا، وأنه سيطلّقها، وأنَّ محمداً ﷺ هو الذي سيتزوّجُها من بعدِه! وهذا الأمرُ سيُبديه ويُظهره اللهُ فيما بعد، وسيَعرفُه الناس.

وعندما أَعلمه اللهُ بهذا الأمر، لم يأْمره بتبليغه للناس، ولو أَمره بتبليغَه لسارعَ إلى ذلك، وما أَخفاه لحظة، لأنَّ الرسولَ ﷺ كان يبلِّغُ كلَّ ما يأمره اللهُ بتبليغِه مباشرة، ومن دون تأخير!.

وجملةُ ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ جملةٌ خبرية، وليستْ عتاباً للرسولِ ﷺ، ولا تخطئةً له، ولا إدانةً لموقفه.

ثم قال الله له: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾، وهذه جملةٌ خبريةٌ أُخرى، معطوفةٌ على الجملةِ الخبرية السابقة: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾. والمعنى: كنتَ تُخفي في نفسك ما أَخبرَكَ اللهُ من أنَّ زيداً سيطلّقُ زينب، وستتزوَّجُها أنت من بعده، مع أنَّ اللهَ سيُبدي ذلك ويُظهره للناس، وأنت تخشى كلامَ الناس، وشبهاتِ المنافقين، الذين سيتَّهمونك بالباطل، ويُخَطّئونك، ويقولون: انظروا إلى محمدٍ يتزوجُ زوجةَ ابنه!!.

وخشيةُ الرسولِ ﷺ كلامَ الناس بمعنى كرهِه لكلامِهم وشبهاتهم، لأنه كلامٌ باطل، والرسولُ ﷺ يكرهُ سماعَ الكلامِ الباطل، فكيفَ إذا كان هذا الكلامُ الباطلُ يتعلّقُ به؟!.

ولم تكن خشيتُه كلامَ الناس بمعنى خوفِه منهم، لأنَّه لم يفعل ما يدعوه إلى الخوف، فما سيفعلُه من زواجِه بزينبَ ليس خطأً ليخافَ منه، وإنما هو صواب، وبأَمْرٍ من الله.

ولم تحملْـه خشيتُه للناسِ وكراهيتُه لكلامهم الباطل على التوقفِ عن فعْلِ ما أَمَرَه اللهُ به، وإنما نفَّذَ أمرَ الله، وتزوَّجَ زينبَ رضي الله عنها.

وجملةُ ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ اعتراضية، وليستْ جملةً حالية، ولو كانت جملةً حاليةً لكانتْ عتاباً شديداً من اللهِ لرسولِه ﷺ، لأنَّه سيكونُ معناها: كنتَ تخشى الناسَ حالةَ كونِ اللهِ هو الأحقَّ أنْ تخشاه، فقدَّمْتَ خشيةَ الناسِ على خشيةِ الله! وحاشا للرسولِ ﷺ أَنْ يفعلَ ذلك.

وجيءَ بالجملـةِ المعترضة هنـا: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ للتذكيرِ بهذه الحقيقة، وهي أنَّ الخشيةَ يجبُ أَنْ تكونَ لله، وأَنْ تُقَدَّمَ خشيتُه على خشيةِ الناس، ويجبُ أن يكونَ هذا عند كلِّ مسلمٍ مُقْتَدٍ برسولِ الله ﷺ.

ولقد كانَ رسولُ الله ﷺ يخشى اللهَ خشيةً عظيمة، ولم تكن خشيتُه للناس مساويةً لخشيته لله.

وأفعل التفضيل ﴿أَحَقُّ﴾ مسلوبُ المفاضلة، ولا يُرادُ به التفضيل، وهـو بمعنى الخبرِ وليس المفاضلة، لأنَّ الرسولَ ﷺ لم يُقَدِّمْ خشيةَ الناسِ على خشيةِ الله، ولـم تكنْ خشـيتُه للناس أكثـرَ من خشيتِه لله، حتى نُجريَ أَفعلَ التفضيـل ﴿أَحَقُّ﴾ على ظاهره.

إن ﴿أَحَقُّ﴾ هنا بمعنى: حقيق. أي: اللهُ حقيقٌ أَنْ تخشاه، وهذا ما حصلَ من رسولِ الله ﷺ.

وهو لم يُقدّم خشيةَ الناسِ على خشيةِ الله، لأنَّ اللهَ لم يكلِّفْه بعملِ شيء، فتركَه ولم ينفّذه لأنَّه يخشى الناس! ولما أمرَه اللهُ بالزواجِ بزينب، نَفَّذَ أَمْرَ الله، ولو لم يفعلِ ذلك خوفاً من كلامِ الناس ـ وحاشاه أَنْ يَفعلَ ـ لقيل: كان يخشى الناسَ أكثرَ من خشيتِه لله، فلامَهُ وعاتبَه وقال له: عليكَ أَنْ تخشى اللهَ أكثرَ من خشيةِ الناس، لأنَّه أَحَقُّ أَنْ تخشاه!.

أقوال مأثورة في معنى الآية:

اعتبرت عائشة رضي الله عنها ذكْرَ هذه الجملةِ في الآيةِ دلالةً على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، وأنَّ الرسولَ ﷺ أبلَغه كاملاً.

روى مسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: لو كانَ محمدٌ ﷺ كاتماً شيئاً مما أُنزلَ عليه لكتم هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾[1].

وروى ابنُ أبي حاتم عن عليٍّ بنِ الحسين زين العابدين قال: أَعلمَ اللهُ نبيَّه أنَّ زينبَ رضي الله عنها ستكونُ من أزواجِه، قبلَ أنْ يتزوّجَها، فلما أتاهُ زيدٌ يشكوها إليه قال له: أَمْسِكْ عليك زوجَك واتَّقِ الله. فقال اللهُ له: قد أَخبرتُك أَني مُزَوِّجُكَها، وتُخفي في نفسِك ما اللهُ مبديه[2].

وروى ابنُ أبي حاتم أيضاً عن السديّ قال: أُنزلَت الآيةُ في زينبَ بنت جحش رضي الله عنها، وكانتْ أُمُّها أُميمة بنت عبد المطلب، عمةَ رسول الله ﷺ، فأرادَ أنْ يزوجَها زيدَ بن حارثة، رضي الله عنه، فكَرِهَتْ ذلك، ثم إنها رضيتْ بما صنعَ رسولُ اللهِ ﷺ، فزوَّجَها إياه، ثم أَعلمَ نبيَّه ﷺ بعد ذلك أنها ستكونُ من أزواجِه.. وكان لا يزالُ يكون بين زيدٍ وزينبَ ما يكونُ بين الناس، فيأْمره رسولُ الله ﷺ أَنْ يُمسكَ عليه زوجَه، وأَنْ يتقيَ الله.. وكان يخشى الناسَ أَنْ يُعيبوا عليه أَنْ يقولوا: تزوّجَ امرأةَ ابنه، وكانَ رسولُ الله ﷺ قد تَبَنّى زيداً[3].

وأخبرَ اللهُ أَنَّه زوَّجَ الرسولَ ﷺ زينب، وذلك في قولِه له: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾.

وهذه الجملةُ متفرعةٌ عن الجملةِ السابقة: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ والمعنى: كنتَ تقولُ لزيدٍ: أَمسكْ عليكَ زوجَك، لكنّه لم يمسكْها، فبعدما قضى

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾، حديث رقم: ١٧٧.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ٩/ ٣١٣٧.

(٣) المرجع السابق نفسه.

وَطَرَهُ وحاجتَهُ منها طلَّقَها. وبعدما انتهتْ عدتُها أَمرناكَ أَنْ تتزوَّجها.

ومن فضائل زيد بن حارثة رضي الله عنه: أنّه الصحابي الوحيد الذي ورد اسمه صريحاً في القرآن: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾، وبقي اسمه يُتلى في هذه الآية حتى قيام الساعة!.

الحكمة من هذه الحادثة:

وقد نصَّت الآية على الحكمةِ من هذه التجربة، وهي المذكورةُ في قولِه: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾.

لقد أرادَ اللهُ إزالةَ الحرجِ عن المؤمنين من تزوُّجِ أَحَدِهم بمطلقةِ دَعِيِّهِ الذي تبنَّاه، وقد كان أهلُ الجاهليةِ يعتبرونَ الدَّعِيَّ المتبنَّى ابناً شرعياً، ويُعطونَه كلَّ حقوق الابنِ الحقيقي، من حيثُ الميراثِ وغيرِه، ويَنظرُ أَحدُهم إلى زوجةِ المتبنَّى نظرتَه إلى زوجةِ الابن الحقيقي، وإذا طلَّق زوجتَه فإنَّ مَنْ تبنَّاه لا يمكنُ أنْ يتزوَّجَها، لأنَّها زوجةُ ابنِه.

ولمَّا أبطلَ اللهُ التبنّي، وأَمَرَ بإعادةِ نسبةِ الأدعياءِ إلى آبائِهم نُسِبَ زيدٌ إلى أبيه، فقيل: زيدُ بنُ حارثة.

ولما أبطلَ اللهُ التبنّي بالقولِ في قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ [الأحزاب: ٤]، أرادَ إبطالَ ذلك بالفعل، فقدَّرَ هذه الأحداث، واختارَ رسولَه ﷺ لتأكيد ذلك.

قَـدَّرَ اللهُ بحكمتِـه أنْ يتزوَّجَ زيدُ بنُ حارثة ابنةَ عمةِ النبيّ ﷺ، زينب بنت جحش رضي الله عنها، وقَـدَّرَ أَنْ تقعَ الخلافاتُ الزوجيةُ بينهما، وقَدَّرَ أَنْ يقعَ الطلاقُ بينهما، وقَدَّرَ أَنْ يتزوَّجَها رسولُ الله ﷺ، وأمره بذلك، وذلكَ لإبطالِ التبنّي بالقولِ والفعل، وإزالةِ آثارِه الاجتماعية، والرّدِّ على شبهات وإشاعاتِ المنافقين حول هذا الزواج.

إبطال اتهامات الأعداء:

وقد اتّهم المنافقون ـ والأعداءُ من المستشرقين والمغرضين من بعدِهم ـ

الرسولَ ﷺ بالباطل، وقالوا: تزوَّجَ محمدٌ زوجةَ ابنِه زيد!.

وكان القرآنُ صريحاً في تحريمِ زوجةِ الابنِ الحقيقيِّ من صُلبِ أبيه، فقالَ تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ قَيْد، يدلُّ على عدمِ تحريمِ الزواجِ بزوجاتِ الأبناءِ الذين من غيرِ الأصلاب، والمرادُ بهم الأبناءُ بالتبنّي الذي حَرَّمَه الإسلام، ولو أخطأَ إنسانٌ وتبنّى آخر، وطَلَّقَ هذا المُتَبَنَّى امرأتَه، فإنه يجوزُ لمن تبنّاه أَنْ يتزوَّجَها، وأولُ مَنْ فعلَ ذلك هو رسولُ الله ﷺ!.

والملاحَظُ أنه اجتمعَ حرفان للتعليلِ في الجملةِ التي نصَّتْ على حكمةِ ذلك: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ إنَّ اللامَ في «لكي لا» لامُ التعليل، وإنَّ «كَيْ» للتعليل، وذكْرُ حرفي التعليلِ لتأكيدِ العلةِ المذكورةِ في الجملة، وحَصْرِها فيها.

وكأنَّه يقول: الحكمةُ والعلةُ الوحيدةُ مِن زواجِ الرسولِ ﷺ من زينب رضي الله عنها هي: إزالةُ التحرُّجِ عندَ المسلم من زواجِه بامرأةِ مَنْ تبنّاه، إذا طلَّقَها المتبنَّى الدَّعيّ، وانتهت عدّتها منه.

ولذلك ختمَ الآيةَ بقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ أي: قَدَّرَ اللهُ أَنْ يتزوَّجَ الرسولُ ﷺ امرأةَ الذي تبنَّاه، لإبطالِ كلِّ آثارِ التبنّي القوليةِ والفعلية، وقَدَرُهُ سبحانه نافذ، وأَمْرُه متحققٌ مفعول، لا رادَّ لأمرِه.

ولإزالةِ كلِّ آثارِ التحرّجِ والشّكِّ والكلامِ بشأنِ الحادثة قال الله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾.

أَيْ: لا حرجَ على النبيِّ ﷺ في فعلِ ما أباحَ اللهُ له، وأَذِنَ له فيه، ولا يُلامُ أو يُعاتَبُ عليه، لأنَّه لو كانَ محرَّماً لما أَذِنَ اللهُ له فيه، وهذه هي سنّةُ اللهِ في الأنبياءِ السابقين، يفعلونَ ما أباحَ اللهُ لهم من الطعامِ والشرابِ والنكاح وغير ذلك، وأَمْرُ اللهِ قَدَرٌ مَقْدُورٌ على حكمتِه سبحانه، لا خطأَ فيه ولا نقص[1].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٩٣ ـ ٤٩٦؛ وتفسير القاسمي: ١٣/ ٢٦١ ـ ٢٧٧؛ وتفسير ابن عاشور: ٢٢/ ٢٦ ـ ٤٤؛ والظلال: ٥/ ٢٨٦٥ ـ ٢٨٧١؛ وكتاب (زواج النبيّ ﷺ بزينب بنت جحش) للدكتور زاهر عواض الألمعي.

وهذا معناه: أنَّ اللهَ هو الذي قَدَّرَ زواجَ رسوله ﷺ بزينبَ بنت جحش رضي الله عنها، وهـذا لا خطأَ فيه، وهو متفقٌ مع مقامِ الرسولِ ﷺ، بهدف إزالـةِ كلِّ آثارِ التبنّي الذي حرَّمَه الله.

الله هو الذي زوَّج زينب للرسول ﷺ:

والخلاصة: لم يُخطئ رسولُ اللهِ ﷺ في حادثةِ زينبَ بنت جحش رضي الله عنها، فاللهُ هو الذي أمرَهُ أنْ يزوِّجَها لزيدٍ رضي الله عنه، واللهُ هو الذي قَدَّرَ وقوعَ خلافاتٍ زوجيةٍ بينهما، ولمَّا كان زيدٌ رضي اللهُ عنه يشكوها للرسولِ ﷺ، كان ﷺ يقومُ بواجبِه في نصحِه وتوجيهِه وإرشادِه للخير، حيث كان يقولُ له: «أَمسكْ عليكَ زوجَـك واتـقِ الله»، وهذا الأمرُ منه لزيدٍ أَمْرُ إرشادٍ وتوجيه، وليس أَمْرَ إِيجابٍ وتكليف!.

وكان رسولُ اللهِ ﷺ يعلمُ أنَّ زيداً وزينبَ لن يتفقا، لأنَّ اللهَ أخبره بذلك، كما أخبرَه أنَّه هو سيتزوَّجُها بعد تطليقِ زيدٍ لها، وكان يُخفي هذا الخبرَ في نفسِه، مع يقينِه أنَّ اللهَ سيُبْديهِ ويُظهره في حينه، وسببُ إخفائِه له أنَّه كان يخشى ويتحرَّجُ من كلامِ الناس، وشبهاتِ المنافقين، حيث سيقولون: تزوَّجَ محمدٌ امرأةَ ابنه! وعليه ﷺ أَنْ لا يخشى الناس، لأنَّ اللهَ هو الأحقُّ أنْ يخشاه.

ولم يُخطئ رسولُ اللهِ ﷺ في موقفِه، ولم يفعلْ ما يعاتَب فيه أو يُلامُ عليه، ولذلك لم يعاتبْه اللهُ في قوله تعالى له: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾، لأنَّه ليس فيه ما يُلام عليه، لأنَّ اللهَ لم يأمره أَنْ يخبرَ الناسَ ويُظهرَ لهم ما أخبرَه اللهُ به، مِنْ أنَّه سيتزوَّجُ زينبَ بعدَ تطليقِ زيدٍ لها، ولو أمرَه بإظهارِه لأظهرَه وما أخفاه، لأنَّه كان ﷺ يسارعُ بتبليغِ الناسِ كلَّ ما أمرَهُ اللهُ بتبليغِه. ولمَّا انتهتْ عدةُ زينب رضي الله عنها تزوَّجَها ﷺ، لأنَّ اللهَ هو الذي أمرَهُ بذلك، فما في الآيةِ هو إخبارٌ من الله عن موقفِ النبيِّ ﷺ من الحادثة، وكان موقفُه سليماً صحيحاً. واللهُ تعالى أعلم.

* * *

الفصل الحادي عشر

الرسول ﷺ يعتزل نساءه ويخيرهن

من ما جرى بين رسولِ الله ﷺ وبين نسائِه أنهنَّ اجتمعْنَ عليه، وطالبْنَه بأَنْ يوسِّعَ عليهنَّ في النفقةِ والمتاع، وهو ليس رجلَ دنيا، ولذلك لا يجدُ ما يوسِّعُ به عليهن، فهجرهنّ واعتزلَهنَّ شهراً، ثم أمرَه اللهُ أَنْ يُخيرهنّ، فإمَّا أَنْ يخترْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها، فعند ذلك يطلِّقهنّ ويمتعُهن، وإمَّا أَنْ يخترنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، فعليهنّ أَنْ يصبرْنَ على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم: ٤ ـ ٥].

سبب نزول الآيات:

حتى نتعرّف على جوِّ نزولِ هذه الآيات، وتفاصيلِ ما حدَثَ بين رسولِ الله ﷺ وأزواجِه، نعيشُ مع بعضِ ما وردَ من رواياتٍ صحيحة بشأنِ الحادثة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لم أَزَلْ حريصاً على أَنْ أسألَ عمرَ عنِ المرأتين من أزواجِ النبيِّ ﷺ اللتين قالَ اللهُ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾.

فحججتُ معه، فعَدَل، وعدلْتُ معه بالإداوة، فتبرَّزَ، حتى جاء، فسكبْتُ على يديه من الإداوة فتوضأ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين! مَنِ المرأتانِ من أزواجِ النبيِّ ﷺ اللتان قالَ اللهُ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾؟.

فقال: وا عجَبي لك يا بنَ عباس! هما عائشة وحفصة.

ثم استقبلَ عمر الحديثَ يسوقُه، فقال: إنّي كنتُ وجارٌ لي من الأنصار، في بني أُمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوبُ النزولَ على النبيّ ﷺ، فينزلُ يوماً، وأنزلُ يوماً، فإذا نزلتُ جئتُه من خبرِ ذلك اليوم من الأمرِ وغيره، وإذا نزلَ فعلَ مثْلَه..

وكنّا ـ معشرَ قريشٍ ـ نغلبُ النساء، فلما قدِمْنا على الأنصارِ إذا هم قومٌ تغلبُهم نساؤُهم، فطفقَ نساؤُنا يأخذْنَ من أدبِ نساءِ الأنصار!.

فصحتُ على امرأتي، فراجعَتْني، فأنكرتُ أَنْ تُراجعني، فقالت: ولِمَ تُنكرُ أَنْ أُراجِعَك، فواللهِ إنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ ليراجعْنَه، وإنَّ إحداهنَّ لتهجرُه اليومَ حتى الليل! فأفزعَني، فقلت: خابَتْ مَنْ فعلَتْ منهنَّ بعظيم..

ثم جمعتُ عليَّ ثيابي، فدخلْتُ على حفصة، فقلتُ: أَيْ حفصة! أَتُغاضبُ إحداكنَّ رسولَ الله ﷺ اليومَ حتى الليل؟ فقالَتْ: نعم!.. فقلتُ: خابَتْ وخسرَتْ.. أفتأْمنين أنْ يغضبَ اللهُ لغضبِ رسولِه فتهلكين؟! لا تستكْثِري على رسولِ الله ﷺ، ولا تُراجعيه في شيء، ولا تَهْجُريه، واسأَليني ما بدا لك.. ولا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كانتْ جارتُكِ هي أوضأَ منكِ وأحبَّ إلى رسولِ الله ﷺ ـ يريد عائشة ـ!.

وكنَّا تحدَّثْنا أنَّ غسانَ تُنْعِلُ النِّعالَ لغزونا.. فنزلَ صاحبي يوم نوبتِه، فرجعَ عشاء، فضربَ بابي ضَرْباً شديداً، وقال: أَنائم هو؟.

ففزعْتُ، فخرجتُ إليه، فقال: حدثَ أَمْرٌ عظيم! قلتُ: ما هو؟ أَجاءَتْ غسان؟ قال: بل أعظمُ منه وأَطول، طَلَّقَ رسولُ اللهِ ﷺ نساءَه!.. قلت: قد خابَتْ حفصةُ وخسرَتْ، كنتُ أظنُّ أنَّ هذا يوشِكُ أن يكون!.

فجمعْتُ عليَّ ثيابي، فصليتُ صلاةَ الفجرِ مع رسولِ الله ﷺ، فدخلَ مَشْرُبَةً له فاعتزلَ فيها..

فدخلتُ على حفصة، فإذا هي تبكي! قلتُ: ما يُبكيكِ؟ أَوَلَمْ أكنْ حذَّرْتُكِ؟ أَطلَّقَكنَّ رسولُ الله ﷺ؟ قالت: لا أدري، هو ذا في المَشْرُبَة.

فخرجتُ فجئتُ المنبر، فإذا حولَه رهط، يبكي بعضُهم، فجلستُ معهم

قليلاً، ثم غلبَني ما أَجد، فجئتُ المشْرُبة التي هو فيها، فقلتُ لغلامٍ له أسود: استأذِنْ لعمر! فدخلَ فكلَّمَ النبيَّ ﷺ، ثم خرج، فقال: ذكرتُكَ له فصَمَتَ.. فانصرَفْتُ، حتى جلسْتُ مع الرّهْطِ الذين عندَ المنبر، ثم غَلَبَني ما أجد...، فجئتُ الغلام، فقلتُ: استأذِنْ لعمر، فذكَرَ مثلَه.. فلما ولَّيْتُ منصرفاً، فإذا الغلامُ يَدْعوني، قال: أَذِنَ لكَ رسولُ اللهِ ﷺ.

فدخلتُ على رسولِ الله ﷺ، فإذا هو مضطجعٌ على رمالِ حَصيرٍ، ليس بينَه وبينَه فراش، وقد أَثَّرَ الرمالُ بجنبِه ﷺ، وهو متوكِّئ على وسادةٍ من أَدَم، حشْوُها ليف!.

فسلَّمْتُ عليه، ثم قلْتُ وأنا قائم: أطلَّقْتَ نساءَك؟ فرفعَ بصرَه إليّ، فقال: لا. فقلتُ وأنا قائمٌ أستأنس: يارسولَ الله! لو رأَيْتَني وكنَّا معشرَ قريش نغلبُ النساء، فلما قَدِمنا على قومٍ تغلبُهم نساؤُهم.. فذكَرَه.. فتبسَّم النبيُّ ﷺ.. ثم قلت: لو رأَيْتُني ودخلْتُ على حفصة، فقلتُ: لا يغرنَّكِ أَنْ كانتْ جارتُك هي أوضأَ منك، وأَحَبَّ إلى رسولِ الله ﷺ ـ يريد عائشة ـ فتبسَّمَ ﷺ أُخرى..

فجلسْتُ حين رأيتُه تبسَّمَ، ثم رفعْتُ بصري في بيتِه، فواللهِ ما رأيتُ فيه شيئاً يَرُدُّ البصر، غيرَ أَهَبَةٍ ثلاثة..

فقلتُ: ادْعُ اللهَ، فلْيُوسِّعْ على أُمّتك، فإنَّ فارسَ والرومَ وُسِّعَ عليهم، وأُعطوا الدنيا، وهم لا يَعبدون الله! وكان متكئاً، فقال: أوَفي شكٍّ أنت يا بنَ الخطاب؟! أُولئكَ قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيباتُهم في الحياةِ الدنيا، فقلتُ: يارسولَ الله! استغفر لي!.

فاعتزلَ النبيُّ ﷺ من أجلِ ذلك الحديثِ حينَ أَفْشَتْه حفصةُ إلى عائشة.

وكان قد قال: ما أنا بداخلٍ عليهنَّ شَهْراً، من شدةِ موجدتِه عليهن، حين عاتبَه الله.. فلما مَضَتْ تسعٌ وعشرونَ دخلَ على عائشة، فبدأ بها.. فقالتْ له عائشة: إنَّك أقسمْتَ أَنْ لا تَدخُلَ علينا شهراً، وإنا أَصبَحْنا بتسعٍ وعشرين ليلة، أَعُدُّها عَدّاً! فقال النبيُّ ﷺ: «الشهرُ تسعٌ وعشرون»!. وكان ذلك الشهرُ تسعاً وعشرين...»[(١)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم والغضب، باب الغرفة والعلية، حديث رقم: ٢٤٦٨؛ =

نظرة في الرواية:

يخبرُ عبدُ اللهِ بن عباس رضي الله عنهما في هذه الروايةِ المطوَّلةِ أنَّه كان حريصاً على طلبِ العلمِ وفهمِ القرآن، ومن هذا الباب كان يريدُ أن يعرفَ المرأتيْن من أزواجِ النبيِّ ﷺ، اللتين قالَ اللهُ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾. وأَعلمُ النَاسِ بذلك هو أميرُ المؤمنين عمرُ رضي الله عنه، وما أَنْ وجدَ ابنُ عباس الفرصةَ مناسبةً حتى بادرَ إلى سؤالِه: مَن المرأتان؟ فأجابَه بأنَّهما حفصةُ وعائشةُ رضي الله عنهما.. ثم راحَ يَقُصُّ عليه قصَّةَ مراجعةِ أُمهاتِ المؤمنين للرسولِ ﷺ، وغضبِهِ منهن، واعتزالِهن.

ويهمُّنا من هذه الرواية مراجعةُ أُمهاتِ المؤمنين للرسول ﷺ.

كان رسولُ الله ﷺ يتعاملُ مع أَزواجِه بحلمِه وسَعةِ صدرِه وعَظَمةِ أخلاقِه، ولهذا كنَّ يَطمعْنَ فيه، بحيثُ كانت الواحدةُ منهنَّ تراجعُه في الكلام، وكانت الواحدةُ تهجرُه اليومَ إلى الليل وتغاضبُه ولا تكلّمُه!!.

وقد وعظَ عمرُ ابنتَه حفصةَ رضي الله عنهما، ونَهاها عن ذلك، وحذَّرَها أَنْ يغضبَ عليها ربُّ العالمين، إنْ غضبَ عليها رسولُه ﷺ، وبذلك تخيبُ وتخسر.

وغضبَ الرسولُ ﷺ من أَزواجِه لأَنَّهنَّ طالبْنَه النفقة، فهجَرهن، حتى أُشيعَ أنَّ الرسولَ ﷺ قد طلَّقَ أزواجه، ولما سمعَ عمرُ رضي الله عنه بهذه الإشاعة أرادَ أنْ يتأكَّدَ منها، ودخلَ على الناسِ في المسجد، وهم جالسونَ حولَ المنبرِ ما بينَ حزينٍ وباكٍ، واستأذنَ للدخولِ على رسول الله ﷺ، الذي كان معتزلاً في عِلِّيَّةٍ له، ومن شدةِ تأثُّرِ الرسولِ ﷺ وحزنِه وغضبِه، لم يأذنْ في المرةِ الأُولى والمرة الثانية.

وبعدما استأنسَ ولَطَّفَ الجوّ وأَدخلَ السرورَ على رسولِ الله ﷺ، وعلمَ أنه لم يُطلِّقْ أزواجَه، جرى بينَهما حوارٌ لطيفٌ حولَ المسلمين والكافرين، والطيبات والمتاع.

= وصحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، حديث رقم: ١٤٧٩.

وقد اعتزلَ رسولُ الله ﷺ أزواجَه، وابتعدَ عنهنَّ شهراً كاملاً، لم يلتقِ بهن ولم يجالسهن، وبعدَ مرورِ الشهرِ صالحهنَّ ودخلَ عليهن.

وهو لم يعتزلْهُنَّ شهراً إلاَّ لأنَّه غضبَ منهن، وَوَجَدَ عليهنّ، ويمكنُ للرجلِ إذا غضبَ من امرأتِه أَنْ يعتزلَها ويهجرَها فترةً من الزمن، كما فعلَ رسولُ الله ﷺ.

رواية أخرى لسبب النزول:

وفي روايةٍ أخرى أخرجها مسلمٌ عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «لما اعتزلَ نبيُّ الله ﷺ نساءَه دخلْتُ المسجد، فإذا الناسُ ينكُتون بالحصى، ويقولون: طلَّقَ رسولُ الله ﷺ نساءَه، وذلك قبلَ أَنْ يُؤْمَرْنَ بالحجاب!.

فقال عمر: لأَعْلَمَنَّ ذلك اليوم، فدخلْتُ على عائشة، فقلتُ: يا بنت أبي بكر أقد بلغَ من شأنك أَنْ تؤذي رسولَ الله ﷺ؟ فقالَتْ: ما لي ولَك يا بنَ الخطاب! عليك بعَيْبَتِك! فدخلْتُ على حفصةَ بنتِ عمر، فقلْتُ لها: يا حفصة! أقد بلغَ من شأنك أَنْ تُؤْذي رسولَ الله ﷺ؟ والله لقد علمتِ أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يحبُّك، ولولا أنا لطلَّقَكِ رسولُ الله ﷺ! فبكَتْ أَشدَّ البكاء. فقلتُ لها: أينَ رسولُ الله ﷺ؟ قالَتْ: هو في خِزانتِه في المشْرُبَة!.

فدخلتُ، فإذا أنا برَباحٍ، غلامِ رسولِ الله ﷺ قاعداً على أُسْكُفَّةِ المَشْرُبة، مُدَلٍّ رجلَيْه على نَقيرٍ من خشب - وهو جذعٌ يَرقى عليه رسولُ الله ﷺ وينْحدر - فناديتُ: يا رباح! استأذِنْ لي عندك على رسولِ الله ﷺ. فنظرَ رباحٌ إلى الغرفة، ثم نظرَ إليّ، فلم يقلْ شيئاً، ثم قلت: يارباح! استأذِنْ لي عندك على رسولِ الله ﷺ. فنظرَ رباحُ إلى الغرفة، ثم نظرَ إليّ، فلم يقل شيئاً. ثم رفعتُ صوتي، فقلتُ: يا رباح! استأذِنْ لي عندك على رسولِ الله ﷺ، فإني أَظُنُّ أَنَّ رسولَ الله ﷺ ظَنَّ أني جئتُ من أجلِ حفصة، واللهِ لئن أمرني رسولُ الله ﷺ بضربِ عنقِها لأضربَنَّ عنقَها! ورفعتُ صوتي.

فأومأَ إليَّ أَنْ ارْقَهْ، فدخلتُ على رسولِ الله ﷺ، وهو مضطجعٌ على حصير، فجلستُ، فأدنى عليه إزارَه، وليسَ عليه غيره، وإذا الحصيرُ قد أَثَّرَ في جنبه، فنظرتُ ببصري في خِزانةِ رسولِ الله ﷺ، فإذا أنا بقبضةٍ من شعير، نحو الصاع، ومثْلِها قَرَظاً في ناحيةِ الغرفة، وإذا أَفيقٌ معلَّق!.

فابتدَرَتْ عيناي! قال: ما يُبكيكَ يا بنَ الخطاب؟ قلتُ: يا نبيَّ الله! وما لي لا أبكي؟ وهذا الحصيرُ قد أثَّرَ في جنبك، وهذه خِزانتُكَ لا أرى فيها إلاَّ ما أرى، وذاك قيصرُ وكسرى في الثمار والأنهار، وأنتَ رسولُ الله وصفوتُه وهذه خزانتُك!! فقال: يا بنَ الخطاب! أَلا ترضى أَنْ تكونَ لنا الآخرةُ ولهم الدنيا؟.. قلتُ: بلى!!.

ودخلتُ عليه حينَ دخلتُ، وأنا أرى في وجههِ الغضب.. فقلتُ: يارسولَ الله! ما يشقُّ عليك من شأنِ النساء؟ فإنْ كنتَ طلَّقْتَهنّ، فإنَّ اللهَ معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك.

وقلّما تكلَّمْتُ ـ وأحمدُ اللهِ ـ بكلامٍ إلاَّ رجوتُ أَنْ يكونَ اللهُ يُصدِّقُ قولي الذي أقول، ونزلَتْ هذه الآية، آيةُ التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ... ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾. وكانت عائشةُ بنتُ أبي بكر وحفصةُ تظاهَران على سائرِ نساءِ النبيِّ ﷺ..

فقلتُ: يارسولَ الله! أَطلقْتَهن؟ قال: لا. قلتُ: يارسولَ الله! إني دخلتُ والمسلمونَ يَنكُتون بالحصى، يقولون: طَلَّقَ رسولُ الله ﷺ نساءَه، أفأنزلُ فأُخبرهم أنك لم تطلّقْهن؟ قالَ: نعم، إن شئتَ. فلم أَزَلْ أُحدّثُه حتى تحسَّرَ الغضبُ عن وجهه، وحتى كَشَرَ فضحِك ـ وكان من أَحسنِ الناس ثغراً ـ.

ثم نزلَ نبيُّ الله ﷺ، فنزلْتُ أتشبّثُ بالجذع، ونزلَ رسولُ اللهِ ﷺ، كأنما يمشي على الأرض، ما يمسُّه بيده! فقلت: يارسول الله! إنما كنتَ في الغرفةِ تسعةً وعشرين! قال: إنَّ الشهرَ يكونُ تسعاً وعشرين!.

فقمتُ على باب المسجد، فناديتُ بأعلى صوتي: لم يطلِّقْ رسولُ الله ﷺ نساءَه، ونزلَتْ هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فكنتُ أنا استنبطْتُ ذلك الأمر، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلّ آيةَ التخيير»[١].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، حديث رقم: ١٤٧٩

لماذا طلبت أزواج الرسول ﷺ التوسعة في النفقة؟:

بعد معايشة جو نزولِ آيات تخيير رسولِ الله ﷺ لأزواجِه، والأسبابِ الداعيةِ إلى ذلك، ننظرُ الآنَ في الآياتِ الآمرةِ له بذلك!.

واللافتُ للنظرِ أنَّ الآيتيْن الآمرتيْن بذلك [٢٨ ـ ٢٩] وردَتا بعد الآياتِ التي تحدَّثَتْ عن القضاءِ على يهودِ بني قريظة، وأَخْذِ ممتلكاتِهم فيئاً للمسلمين.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦ ـ ٢٩].

والصلةُ بين الموضوعين هي أنَّ اعتزالَ الرسولِ ﷺ أزواجَه كان بعدَ هزيمةِ الأحزابِ وقتْلِ يهودِ بني قريظة.

لقد كانتْ غزوةُ الأحزابِ في السنةِ الخامسةِ من الهجرة، حيث هزمَ اللهُ أحزابَ المشركين، وحاصرَ رسولُ الله ﷺ يهودَ بني قريظة، وطبقَ فيهم حكمَ اللهِ بقتْلِ رجالِهم وسبْيِ نسائِهم وأولادِهم، ومصادرةِ أموالِهم وممتلكاتِهم، بسببِ نقضِهم العهدَ مع رسولِ الله ﷺ، وتحالُفِهم مع المشركين ضدَّه، وجعلَ اللهُ أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم فيئاً وغنيمةً للمسلمين، وكانوا قد أخذوا أموالَ يهودِ بني النضير في السنةِ الثالثةِ من الهجرة.

وكان يهودُ بني النضير وبني قريظة أغنياء، ولذلك أصابَ المسلمون غنى بسببِ أخذِهم لأموالِهم وديارِهم، وبذلك وسَّعَ المهاجرون على أنفسِهم، وأنفقوا مما آتاهم اللهُ من اليهود، وشكروا اللهَ على هذه النعمة.

وعاشَ رسولُ الله ﷺ مع أزواجِه حياةَ زُهدٍ وتقشُّف، لا يَجدونَ إلاَّ ما يسدُّونَ به الرَّمَق، وكم من أيامٍ قضوْها جائعين، لا يَجدون ما يأكلون، مع أنَّه ﷺ لو أرادَ الدنيا ومَتاعَها لآتاهُ الله إياها.

وكانتْ أزواجُ النبيِّ ﷺ يشاهدْنَ ما أفاءَ اللهُ على المهاجرين من أموالِ بني النضير وبني قريظة، وإنفاقِهم منها، فرغبْنَ أنْ يكونَ عندهنَّ بعضُ تلك الأموال، لينفقْنَ منها، ولذلك طالبْنَ رسولَ الله ﷺ بالنفقة، وهو لا يملكُ منها شيئاً، لأنَّ كلَّ ما كان يأتيه من أموالِ وثمارِ الفيء ـ وهو كثير ـ كان ينفقُه في سبيل الله فوراً، ولا يُبقي منه شيئاً[1].

أمر الرسول ﷺ بتخيير أزواجه:

شقَّ طلبهنّ على رسولِ الله ﷺ، لأنَّهنَّ يسأَلْنَه ما ليس عنده، وهو يريدُ منهنَّ أن يقتدينَ به في زهدِه في الدنيا، وعزوفِه عن مُتَعِها وزينتِها، ولذلك وَجَدَ عليهنّ، ولما زادَتْ مطالبتهنَّ له بالنفقة، آلى أَنْ يَبتعدَ عنهن شهراً، فاعتزلَهُنَّ في مَشْرُبَة له، وهي عِلِّيَّةٌ يَصعَدُ إليها على جذعِ شجرة.

وشـاعَ بين المسـلمين أنَّ رسولَ الله ﷺ طَلَّقَ نساءَه، فحزِنوا وتألَّموا، وتجمَّعوا حولَ المنبر باكين، وحرصَ عمرُ رضي الله عنه على اللقاءِ برسولِ الله ﷺ، ولذلك كَرَّرَ استئذانَهُ حتى أَذِنَ له رسول الله ﷺ، ولما علمَ منه أنّه لم يطلِّقْهُنَّ أَذاعَ هذا بين المسلمين، ففرحوا واستبشروا. .

وأنزلَ اللهُ على رسولِه ﷺ آياتِ التخيير، يُخيرُهنَّ أَحد أمرين: إمَّا الحياةُ الدنيا وزينتُها، وإمَّا رسولُ الله ﷺ، فإنْ أردنَ الحياةَ الدنيا فسيطلقهنَّ رسولُ الله ﷺ، وإنْ أَردنَه فليصبرْنَ على شظفِ الحياة، ولهنَّ عظيم الأجرِ في الآخرة. .

لقد تزوَّجَ رسولُ الله ﷺ إحدى عشرةَ زوجة، اثنتان منهنّ توفيتا في حياتِه، وهما: خديجةُ بنتُ خويلد، وزينبُ بنت خزيمة الهلالية، رضي الله عنهما، وتوفيَ هو ﷺ عن تسعٍ، هنّ: عائشةُ بنت أبي بكر، وحفصةُ بنت عمر، وأمُّ حبيبـة بنتُ أبي سـفيان، وأمُّ سَلمة بنت أُمية المخزومية، وجويريـة بنت الحارث الخزاعية، وميمونةُ بنت الحارث الهلالية، وسودةُ بنت زمعة العامرية، وزينبُ بنت جحش، وصفيةُ بنت حيي، رضي الله عنهنّ جميعاً[2].

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢١/ ٣١٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٨٦.

أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أَنْ يخيرَ أزواجَه، بأَنْ يقولَ لهن: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ـ٢٩].

أي: إنْ كنتنَّ تُؤثِرْنَ ما في الحياةِ الدنيا من الترفِ والملذّاتِ والزينة والمتاع المباح، والانغماس في ذلك كلِّه، على الاشتغالِ بالطاعاتِ والزهدِ في متاع الدنيا، فهذا لكُنَّ، لكنْ لا تبقينَ أزواجاً لي، ولهذا تعالَيْنَ لأُعطيَ كلَّ واحدةٍ متعتَها، ثم أُطلّقَها وأُسرِّحَها سراحاً جميلاً.

والمتعةُ: مالٌ يدفعُه الرجلُ لامرأتِه عندما يطلِّقُها، مواساةً لها بسبب طلاقها، وجبراً لخاطرها، قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَٰعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

والتسريحُ الجميلُ هو الطلاقُ بإحسان. قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وسُميَ الطلاقُ سَراحاً جميلاً، لأنَّه يكونُ من دون غضبٍ أو كراهيةٍ للزوجةِ المطلَّقة، والهدفُ منه تجنيبُها مشقةَ الحياةِ الزوجية والتقلل من زينةِ الدنيا.

ويقولُ لهنَّ عن الخيارِ الثاني: إنْ كنتنَّ تُؤْثِرْنَ ما عندَ اللهِ من الأجرِ والثواب، وتُفضِّلْنَ البقاءَ مع رسولِه ﷺ، صابراتٍ محتسبات، راغباتٍ في الدار الآخرة ونعيمها، فهذا أمر عظيم، وإِحسانٌ منكن، وسوف يؤتيكنَّ اللهُ على هذا الإحسان أجراً عظيماً.

أزواجه يخترنَ الدار الآخرة:

ونَفَّذَ رسولُ الله ﷺ أَمْرَ الله، وخَيَّرَ أزواجَه بين الحياةِ الدنيا وزينتها، وبين اللهِ ورسولِه والدار الآخرة، وكنَّ جميعاً عند الأملِ فيهنَّ وحُسنِ الظنِّ بهنّ، حيثُ اخترْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وصبرْنَ على التقشّفِ والزهدِ في الدنيا.

وقد أخبرتْ عائشةُ رضي الله عنها عن تخييرِه لهنّ:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «لما أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بتخييرِ أزواجه، بدأ بي، فقال: إنّي ذاكرٌ لك أمْراً، فلا عليك أنْ لا تستعْجلي حتى تستأْمِري أبويْكِ! وقد علمَ أنَّ أَبَوَيَّ لم يكونا يأمراني بفراقِه!.

فقال لي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلّ قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فقلتُ: في أيِّ هذا أَستأْمِرُ أبويّ؟ فإنّي أُريدُ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة!.

ثم فعلَ أزواجُ رسولِ الله ﷺ مثل ما فعلْتُ...»[1].

وفصَّلَ جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما حادثةَ التخييرِ بعضَ الشيء:

روى مسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «دخلَ أبو بكر يستأذنُ على رسولِ الله ﷺ، فوجدَ الناسَ جُلوساً ببابه، لم يُؤْذَنْ لأحدٍ منهم، فأذِنَ لأبي بكر فدَخل، ثم أقبلَ عمرُ فاستأْذَنَ فأَذِنَ له.

فوجدَ النبيَّ ﷺ جالساً، حولَه نساؤُه، واجماً ساكتاً! فقال عمر: لأقولَنَّ شيئاً أُضحكُ النبيَّ ﷺ. فقلتُ: يا رسولَ الله! لو رأيتَ بنتَ خارجةَ سألَتْني النفقة، فقمتُ إليها فوجأْتُ عنقَها!.

فضحكَ رسولُ الله ﷺ، وقال: هُنَّ حولي كما ترى يسألْنَني النفقة.

فقام أبو بكرٍ إلى عائشةَ يجأُ عنُقَها، وقامَ عمرُ إلى حفصة يجأُ عنُقَها، كلاهما يقول: تسألْنَ رسولَ الله ﷺ ما ليسَ عندَه؟.

فقلْنَ: واللهِ لا نسألُ رسولَ الله ﷺ شيئاً أبداً ليسَ عندَه!.

ثم اعتزَلَهنَّ شهراً، أو تسعاً وعشرين، ثم نزلَتْ عليه هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب، حديث رقم: ٤٧٨٦؛ وصحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب تخيير امرأته، حديث رقم: ١٤٧٥.

فبدأ بعائشة، فقال: يا عائشة! إنّي أُريدُ أنْ أعرضَ عليك أمراً، أُحبُّ أَنْ لا تَعْجَلي فيه حتى تستشيري أبويْك! قالت: وما هو يا رسولَ الله؟ فتلا عليها الآية!.

قالت: أَفيكَ يا رسولَ الله أستشيرُ أَبوَيّ؟ بل أَختارُ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة. وأسألُكَ أنْ لا تخبرَ امرأةً من نسائك بالذي قلْتُ!.

قال: لا تسألني امرأةٌ منهنّ إلاّ أخبرتُها. إنَّ اللهَ لم يبعثْني مُعَنِّتاً ولا مُتعنِّتاً، ولكن بعَثَني مُعلِّماً مُيسِّراً..»[1].

ما أَنْ خَيَّرَ رسولُ الله ﷺ زوجَه عائشةَ رضي الله عنها حتى اختارَت اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وآثرَتْ ذلك على الحياةِ الدنيا وزينتِها، ولكنها طلبَتْ منه أَنْ لا يُخبرَ واحدةً من أزواجِه بما اختارَتْ ليبقى الأمرُ بينَها وبينَه!.

ولكنَّه رفضَ ذلك وأخبرها أنَّه سيجيبُ أيَّ امرأةٍ على سؤالِها بأنَّ عائشةَ اختارت اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، لأنَّه معلِّمٌ ميسِّرٌ، وليس متعنِّتاً معسّراً.

وهكذا اختارتْ أزواجُه التسعةُ رضي الله عنهنّ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، واقتدينَ بالرسولِ ﷺ في الزهدِ والتقشُّفِ والتقلّلِ من الزينة.

توجيه اعتزاله لهنّ وتخييرهن:

ونختم كلامَنا عن هذه الحادثة بتوجيهها بعون الله:

لقد اختارَ رسولُ اللهِ ﷺ حياةَ التقشّفِ والزهدِ في الحياةِ الدنيا وزينتِها، وإيثارِ الدارِ الآخرة، ونفّذَ توجيهَ اللهِ له في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ولذلك استعلى على زينةِ الدنيا، وعزَفَ عنها، وَأَخَذَ القليلَ منها، وكان يقول: «ما لي وللدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلاّ كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة، ثم راحَ وتركَها...»[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أنَّ تخيير امرأته ليس طلاقاً، حديث رقم: ١٤٧٨.

(٢) سنن الترمذي، حديث رقم: ٢٣٧٧. وهو حديث حسن صحيح.

وعاشَتْ أزواجُـه رضي الله عنهنّ معه حياةَ التقشّفِ والمشقة، وصبرْنَ وتحمّلْنَ، ولكنّهنَّ بشر، تستشرفُ نفوسُهنَّ المباح من المعيشة، والتوسعة في النفقة، وتَميلُ إلى تَناولِ بعضِ المستحبّاتِ والطيّباتِ من الطعامِ والشراب.

ولا خطأَ في هذه الرغبة عندهنّ، لأنَّ اللهَ أباحَ للمسلم الاستمتاعَ بالطيبات المباحات، لكن عندما يملكُ المسلمُ ثمنَ تلك المباحات، فإنْ لم يجدِ الثمنَ فعليهِ أَنْ يصبرَ ويحتسب.

ورأتْ أزواجُ الرسولِ ﷺ الفيءَ والمالَ بأيدي الصحابة المهاجرين، ورأينَ الرسولَ ﷺ يأْتيه نصيبُه من الفيء، وهو مالٌ كثير، ولكنَّ الرسولَ ﷺ ينفقُ كلَّ ما يأتيه في سبيلِ الله، ولا يُبقي منه لنفسِه أو أَهلِه شيئاً، لأنّه زهدَ في الدنيا وما فيها، فرغبْنَ في أَنْ يعطيهنَّ شيئاً من المالِ والنفقة!!.

ومع أنَّ مطلبهنَّ مشروع، لكنّ الرسولَ ﷺ أرادَ لنفسِه وأَهلِه الترفُّعَ عن المباحِ من الطعام والشراب، فلا يأْخذونَ من ذلك إلاّ ما يسدّون به الرمق! ولذلك غضبَ منهنَّ لما ألححنَ عليـه الطلب، لأنَّهنَّ يـرينَ أينَ يذهبُ بمالِ الفيء، ويعلمْنَ أنَّه لا يُبقي منه شيئاً، فلماذا يسأَلْنَه ما ليسَ عنده؟ وهو يريدُ منهنَّ أن يرتقينَ لما هو أسمى وأعلى، مقتدياتٍ في ذلك به.

وأنـزلَ اللهُ عليـه آياتِ التخيير، فإنْ أردنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فلنْ يجدْنَ ذلك عنده، وسيطلِّقهنَّ ليتزوَّجْنَ غيره من المؤمنين، وسيجدنَ عندهم ما يردْنَ!.

وهذا التخييرُ لهنَّ يدلُّ على أنّه لا مانعَ من اختيارِهنَّ المباحَ من الحياةِ الدنيا وزينتِها، لكنَّ ذلك ليس عند رسولِ اللهِ ﷺ، الذي اختارَ الدارَ الآخرة، وعاشَ حياتَه في فقرٍ وجوعٍ ومشقة.

واستفادَتْ أزواجُ رسولِ الله ﷺ من الدرس، واخترنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وصبرْنَ على شظفِ العيشِ وشدّته، وبقينَ على هذا حتى بعدَ وفاتِه ﷺ، حيثُ كُنّ ينفقنَ ما يأْتيهنَّ من المالِ الكثير في سبيل الله[1].

* * *

(١) انظر التوجيـه اللطيف الذي قدّمـه سيد قطب لهذه الحادثـة في الظلال: ٥/ ٢٨٥٣ - ٢٨٥٧.

الفصل الثاني عشر

ما الذي حرّمه الرسول ﷺ على نفسه لمرضاة أزواجه؟

حدثَتْ حادثتان في بيوتِ الرسولِ ﷺ بينَه وبينَ أزواجه، أدّتا إلى أَنْ يحلفَ ﷺ يميناً، يمتنعُ بسببه عن بعضِ ما أباحَه اللهُ له، يَبتغي بذلك مرضاةَ أزواجِه.

فأنزلَ اللهُ آياتٍ من مطلعِ سورة التحريم يعاتبُ فيها رسولَه ﷺ على ما حرّمَه على نفسِه بيمينه، ويَدعوهُ إلى التكفيرِ عن اليمين، ويُهدِّدُ أزواجَه ويدعوهنَّ إلى التوبةِ والاستغفار.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم: ١ ـ ٥].

سبب نزول الآيات:

لهذه الآياتِ سببانِ للنزول، وردا في رواياتٍ صحيحة:

● **السبب الأول**: أَكَلَ رسولُ اللهِ ﷺ عسلاً في بيتِ إحدى أزواجه، فتآمرَ عليه زوجتانِ أُخريان له، واتّهمتاهُ بأنّه أَكلَ ذا رائحةٍ كريهة، فحلفَ أَنْ لا يعودَ لأكلِه، فعاتبَهُ اللهُ على يمينه وتحريمِه.

والتي أكلَ عندها العسلَ هي امرأتُه زينبُ بنتُ جحشٍ رضي الله عنها، واللتان تآمرتا عليه هما عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كما ورد في الصحيحين:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: «كان رسولُ الله ﷺ

يمكثُ عند زينبَ بنتِ جحش، ويشربُ عندها عسلاً، فتواصيتُ أنا وحفصةُ أنَّ أيّتَنا دخلَ عليها النبيُّ ﷺ فلْتقل: إنّي أجدُ منك ريحَ مغافير، أكلتَ مغافير؟.

فدخلَ على إحداهما، فقالتْ ذلك له، فقال: لا، بلْ شربتُ عسَلاً عند زينبَ بنتِ جحش، ولن أعودَ له.

فأنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ...﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ لعائشة وحفصة، و﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ لقوله: بل شَرِبْتُ عسلاً»[1].

وفي لفظٍ آخر للبخاريّ، عن عائشةَ رضي الله عنها، قالتْ: «كان رسولُ الله ﷺ يَشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكثُ عندها، فواطأتُ أنا وحفصةُ أن أيّتنا دخلَ عليها فلتقُل له: أكلْتَ مغافير؟ إني أجدُ منك ريحَ مغافير.

قال: لا، ولكنّي كنتُ أشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعودَ له، وقد حلفْتُ، لا تخبري بذلك أحداً»[2].

تحليل سبب النزول:

تخبرُ عائشةُ رضي الله عنها عن اتفاقٍ جَرى بينَها وبين حفصةَ رضي الله عنهما، بسببِ غيرتِهما من زينب بنت جحش رضي الله عنها، فقد كانَ رسولُ الله ﷺ يذهبُ عند زينب، ويجلسُ عندها فترة، وكانت تُطعمهُ عَسَلاً، وكان ﷺ يُحبُّ الحَلوى والعَسل.

وفي أحدِ الأيام ذهبَ ﷺ إلى زينبَ بعدما صلَّى العصر، وشربَ عندها عَسَلاً، فغارتْ عائشةُ وحفصة، واتفقَتا على كلامٍ تقولانِه للرسولِ ﷺ، حتى يتوقّف عن أكلِ العسلِ عندَ زينب! فأيُّ واحدةٍ دخلَ عليها تقولُ له: إنّي أشمُّ منكَ رائحةَ المغافير! فهل أَكَلْتَ مغافير؟.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ حديث رقم: ٥٢٦٧؛ وصحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة، رقم: ١٤٧٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، حديث رقم: ٤٩١٢.

والمغافير: جمعُ مِغفار؛ صمغٌ يؤْخَذُ من شجرِ صحراويٍّ له شوكٌ يسمّى العُرْفُط، وهذا الصمغُ حلوُ الطعم، لكنّه كريهُ الرائحة، كانوا يأكلونه، وعندما يُزهرُ ذلك الشجرُ قد يأخذُ منه النحلُ رحيقَه ويَصنعُ منه العسل، فيكونُ عسلُه له رائحةٌ كريهة!.

فأرادتْ عائشةُ وحفصةُ رضي الله عنهما: أنْ يكرهَ رسولُ اللهِ ﷺ العسلَ الذي عند زينب، وذلك باتّهامِه برائحةٍ كريهةٍ لا تَليق، وهما تَعلمانِ حرصَ رسولِ اللهِ ﷺ على أَنْ لا يَجدوا عنده رائحةً لا تليق، بل تكونُ رائحتُه دائماً طيبةً عطرة، ولذلك كانَ ﷺ لا يأكلُ بعضَ الأطعمةِ كريهةِ الرائحة، كالبصلِ والثوم، وهما تعلمانِ ذلك، لذلك لم تَجِدا إلا هذه الوسيلة، لتحقيقِ مُرادِهما في عدمِ أكلِه عند زينب، لغيرتِهما منها.

ولما خرج ﷺ من عند زينب ودخل على إحداهما، فاجأَتْه بقولِها: إني أجدُ منكَ ريحَ مغافير، فهل أكلتَ مغافير؟.

فقالَ ﷺ: لم آكُلْ مغافير، ولكنّي شربْتُ عسلاً عند زينب بنتِ جحش، ولنْ أعودَ لشربه، لأنَّ له رائحةً كريهةً تجدينَها، وحلفْتُ على ذلك يميناً!.

ولا تُخبري أحداً أنني توقفتُ عن شربِ العسلِ عند زينب، وأنني حلفْتُ على ذلك!.

ويبدو أنَّ التي جرى بينها وبينَه هذا الكلام هي حفصة، ولكنها لم تلتزمْ بقوله: لا تُخبري أحداً، حيث أخبرَتْ شريكتَها في الحادثة عائشة بذلك، ولعلَّ هدفَها من إخبارِها هو تبشيرُها بنجاحِ خطّتِهما لإبعادِ رسولِ الله ﷺ عن عسلِ زينب، وليسَ لإفشاءِ سِرِّ رسول الله ﷺ، فها هو قد حلفَ يميناً ليمتنعَ عن ذلك.

فأَنزلَ اللهُ الآياتِ عتاباً للرسولِ ﷺ على يمينِه، ودعاهُ إلى التكفيرِ عنه، وأخبرَهُ عن إفشاءِ حفصة كلامَه لها، ولامَ عائشةَ وحفصةَ على تآمرِهما على رسولِ الله ﷺ.

ومعنى الآياتِ وفقَ هذا السببِ الذي أَخبرَتْ عنه الرواياتُ الصحيحة: لماذا تُحرمُ يـا أيها النبيُّ ما أحـلَّ اللهُ لك من شربِ العسل، وتحلفُ اليمينَ في

الامتناع عنه، لأَجْلِ إرضاءِ أَزواجِك، عليكَ أَنْ تكفِّرَ عن يمينِكَ، وأنْ تعودَ إلى شربِ العَسل.

وقد أخبرَ حفصةَ أنّه لن يعودَ إلى شربِ العسل عند زينب، وأنّه حلفَ على ذلك اليمين، وطلبَ منها أَنْ لا تُخبرَ أحداً، لكنها لفرط فرحِها بنجاحِ خطَّتِها أخبرَتْ شريكتَها عائشة، فأَعلمَ اللهُ رسولَه ﷺ بإفشاءِ حفصة للسر، فأخبرَ حفصةَ أنه علمَ بإفشائِها لِسرِّه، ولما سألَتْهُ: مَنْ أنبأَكَ هذا؟ قال: نبأني اللهُ العليم الخبير.

والتفتت الآيـاتُ إلى لومِ حفصـةَ وعائشـةَ رضي الله عنهما، وتهديدهما بـالعقاب، ودعوتِهما إلى التوبـةِ والاستغفار، وإخبـارِهما أنَّ اللهَ وجبريـلَ والمؤمنين معه!.

سبب آخر لنزول الآيات:

● **السبب الثاني**: معاشرةُ الرسولِ ﷺ جاريتَه مارية في بيتِ حفصة، فلما علمت حفصةُ بذلك وغضبت، حَرَّمَ الرسولُ ﷺ على نفسِه جاريته مارية، وحلفَ على ذلك يميناً.

روى الطبريُّ عن زيدِ بنِ أَسلمَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ أصابَ أُمَّ إبراهيم في بيتِ بعضِ نسائه! فقالت ـ حفصة ـ: أَيْ رسولَ الله! في بيتي، وعلى فراشي؟!.

فجعلَها عليه حراماً، فقالَتْ: يارسولَ الله! كيفَ تحرِّمُ عليك الحلال؟ فحلفَ لها بالله لا يصيبُها. فأنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾.

قالَ زيدُ بنُ أسلم: فقولُه: أنتِ عَلَيَّ حرام، لغوٌ![1].

أُمُّ إبراهيمَ هي جاريتُه ماريةُ القبطية، التي أهداها له حاكمُ مصر المقوقسُ في السنةِ السابعةِ من الهجرة، وهي أَمَتُه ومِلْكُ يمينِه، يعاشِرُها ويستمتعُ بها، وقد أنجبَتْ له ابنَه إبراهيم، الذي توفيَ وهو في السنةِ الثانية من عمره.

وفي أَحَدِ الأيامِ ذهبت امرأَتُه حفصةُ لزيارةِ أبيها عمرَ رضي الله عنهما، وفي

---

(١) تفسير الطبري: ٢٨/ ١٧٤.

غيابها عاشرَ ﷺ جاريتَه مارية في بيتِ حفصة!.

ولما علمتْ حفصةُ بذلك غضبت، وأنكرَتْ عليه قائلةً: تأتيها في بيتي، وعلى فراشي؟!.

وأرادَ ﷺ إرضاءَ حفصة، وإِزالة غضبِها، فحرَّمَ عليه جاريتَه مارية، وقال لها: هي عليَّ حرام، لا أُعاشرُها بعد ذلك!!.

فاستغربَتْ حفصةُ وقالت له: كيفَ تحرِّمُ الحلال؟ إنها جاريتُكَ حلالٌ لك!.

فأكَّدَ ﷺ تحريمَها عليه بأَنْ حلفَ يميناً بالله أنْ لا يُصيبَها!.

فأَنـزلَ اللهُ الآيَةَ عتاباً له، فكيفَ يحلفُ اليمينَ على الامتناعِ عن بعضِ الحلال المباح؟.

وهل كـان تحريمُـه معاشرةَ جاريتِـه مارية باليمين، كـأَنْ يقول: واللهِ لا أُعاشرُها؟ أَمْ كان بلفظِ التحريم من دونِ الحلفِ والقَسَم، كأَنْ يقول: هي علَيَّ حرام؟ ويكتفي بذلك.

أشارَت الروايةُ السابقةُ إلى أنَّه حرَّمها باليمين، حيثُ قالت: «فحلفَ لها بالله لا يصيبُها».

بينما أشارَتْ روايةٌ أُخرى إلى أنَّه لم يحلف اليمين، واكتفى بقوله: «هي عليَّ حرام».

روى الطبريُّ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: «كانتْ حفصةُ وعائشةُ متحابَّتين، وكانتا زوجتي النبيِّ ﷺ، فذهبَتْ حفصةُ إلى أبيها، فتحدَّثتْ عنده.

فأَرسلَ النبيُّ ﷺ إلى جاريتِه، فظلَّتْ معه في بيتِ حفصة، وكان اليومُ الذي يأتي فيه عائشة.. فرجَعَتْ حفصة، فوجدَتْهما في بيتها، فجعلَتْ تنظرُ خروجَها، وغارتْ غيرةً شديدة.

فأَخرجَ رسولُ الله ﷺ جاريتَه، ودخلَتْ حفصة فقالَتْ: قد رأيتُ من كان عندك، والله لقد سُؤْتَني!.

فقالَ لها النبيُّ ﷺ: واللهِ لأُرضينَّك، إني أُشهدُكِ أنَّها عَلَيَّ حرام!.

وكانت حفصةُ وعائشةُ تتظاهران على نساء النبيِّ ﷺ، فانطلقَتْ حفصةُ إلى عائشة، فأَسَرَّتْ لها قائلة: أَبْشِري؛ إنَّ النبيَّ ﷺ قد حَرَّمَ عليه فتاتَه! فلما أَخبرتْ بسرِّ النبيِّ ﷺ، أَظهرَهُ اللهُ عليه وأخبره به»[1].

هل حلف الرسول ﷺ يميناً؟:

سواء حلف رسول الله ﷺ يَميناً في تحريمِها، أو حَرَّمَها من دونِ يمينٍ واكتفى بقوله: هي عليَّ حرام، فقد دفعَ الكفارة!.

وهذا معناهُ أنَّ مَنْ قال: كذا عليَّ حرام، فيجبُ عليه دفعُ كفارة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في الحرام: يمينٌ يكَفِّرُها. وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2].

وفي روايةٍ أُخرى عند مسلم عن ابنِ عباس رضي اللهُ عنهما قال: إذا حَرَّمَ الرجلُ عليه امرأتَه فهي يمينٌ يكَفِّرُها. ثم قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أَيْ: أنَّ ابنَ عباس رضي الله عنهما يَرى أنَّ مَنْ قال: عَلَيَّ الحرام، فيجبُ عليه أَنْ يدفعَ كفارةَ اليمين.

وبالنسبةِ لتحريمِ رسولِ الله ﷺ جاريتَه ماريةَ عليه، فالراجحُ أنَّه حلفَ يميناً على ذلك، ولم يكتفِ بقولِه: هي عليَّ حرام، بدليلِ ما وردَ في روايةِ زيدِ بنِ أسلم: «فحلفَ لها بالله لا يُصيبُها»!.

وبدليلِ قولِه تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فلو لم يحلفْ يميناً لما قالَ ذلك!.

الجمع بين سببي النزول:

الملاحَظُ أنَّ الرواياتِ في السببين صحيحة: حلْفُ الرسول ﷺ لحفصةَ أَنْ

---

(1) تفسير الطبري: ٢٨/ ١٧٦.
(2) تفسير القاسمي: ١٦/ ٢١٥.

لا يأكلَ العسلَ عند زينب، وحلْفُه لحفصةَ أَنْ لا يطأَ أَمَتَه مارية.

وقد رجَّحَ كثيرٌ من المفسِّرين قصةَ حلْفِه على جاريتِه مارية، مع أنَّ قصةَ حلْفِه على العسلِ أصحُّ إسناداً.

قالَ الإمامُ القاسمي في تفسيرِه: «والذي يَظهرُ لي هو ترجيحُ رواياتِ تحريمِ الجاريةِ في سببِ نزولِها. وذلك لوجوه:

منها: أنَّ مثلَه يُبتغى به مرضاة الضرَّات، ويُهْتَمُّ به لَهُن.

ومنها: أنَّ رواياتِ شربِ العسل لا تدلُّ على أنَّه حرَّمَه ابتغاء مرضاتِهن...

ومنها: أنَّ الاهتمامَ بإنزالِ سورةٍ على حدة، لتقريعِ أَزواجِه وتأديبهنّ.. يدلُّ على أنَّ أَمْراً عظيماً دفعهنَّ إلى تحريمِه ما حَرَّم، وما هو إلاّ الغيرةُ من مثلِ ما روي في شأن الجارية»[1].

وبعدَ أنْ أورَدَ سيّد قطب الروايتين قال: «وكِلا الروايتيْن يمكنُ أن يكونَ هو الذي وقع، وربما كانت الروايةُ الثانيةُ أقرب إلى جَوِّ النصوص، وإلى ما أعقبَ الحادثَ من غضب، كادَ يُؤدّي إلى طلاقِ زوجاتِ الرسول ـ ﷺ ـ نظراً لدقّةِ الموضوعِ وشدةِ حساسيته.. ولكنَّ الروايةَ الأُولى [عدم شرب العسل] أَقوى إسناداً، وهي في الوقتِ ذاتِه ممكنةُ الوقوع...»[2].

وبما أنَّ الروايات في سببي النزول صحيحة، فإننا نرجحُ أنَّ الآياتِ نازلةٌ في السببيْن معاً، ولا تعارُضَ بينهما.

ويمكن أن يجمع بينهما بالقول:

إنَّ ما حدثَ أوّلاً هو تآمُرُ حفصةَ وعائشة رضي الله عنهما لما شَرِبَ العسلَ في بيتِ زينب، فقالَتْ له حفصة: أَكلْتَ مغافير؟ فحلفَ لها أَنْ لا يعودَ إليه، وأمرَها أنْ لا تُخبرَ أحداً، فخالفَتْ وأَخبرَت حليفتَها عائشة.

وبعدَ ذلك وطئ ماريةَ في بيتِ حفصة أثناءَ غيابِها، ولما عادَتْ وغضبَتْ حلفَ أَنْ لا يطأَ ماريةَ لترضى، وطلبَ منها أَنْ لا تُخبرَ أَحَداً، فأَخبرتْ حليفتَها عائشة.

---

(١) الظلال: ٦/ ٣٦١٤.

فأَنزلَ اللهُ الآياتِ يعاتبُ الرسولَ ﷺ على يمينِه، وطلبَ منه أَنْ يدفعَ الكفّارة، ويُهدّد أزواجَه المخالفاتِ بالعقاب.

عتاب الرسول ﷺ على تحريمه:

بعد الوقوفِ على سببي نزولِ الآيات، ومعايشةِ جَوِّ نزولها، ننظرُ الآنَ في سياقِ الآيات، لنقفَ على ما فيها من عتابٍ للرسول ﷺ، وتهديدٍ لأزواجِه.

بدأت الآياتُ بخطابٍ من اللهِ لرسولِه ﷺ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

ثم قالَ اللهُ له: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ وهذه جملةٌ استفهاميةٌ لعتابِه ﷺ، والاستفهامُ هنا مستعمَلٌ بمعنى النهي، كأنَّه قالَ له: يا أيها النبيُّ لا تُحرّمْ ما أَحلَّ اللهُ لك.

والتحريمُ هنا بمعنى الامتناع عن الفعل. والمعنى: يا أيها النبي! لماذا تمتنعُ عن فعلِ ما أباحَ اللهُ لك؟ لا يوجَدُ ما يدعو لذلك، فلا داعيَ له.

ومعنى قوله: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾: أنكَ حلفْتَ اليمينَ لتمتنعَ عن بعضِ ما أباحَ الله لك، من عدمِ شربِ عسل، أو عدمِ وطءِ الجارية، وفعلْتَ ذلك بهدفِ إرضاءِ أزواجك.

وقد صرَّحَ في الحديثِ لحفصةَ رضي اللهُ عنها بأنَّه حلفَ لإرضائِها وإزالةِ غضبِها.

وهذه الجملةُ بمثابةِ اعتذارٍ للرسولِ ﷺ عن يمينِه، فإنَّه حَلَفَهُ وامتنعَ عن بعضِ ما أَباحَه اللهُ له لجلبِ رضا أزواجِه، وذلك لتيسيرِ الحياةِ الزوجية، وإزالةِ الخلافات، والقضاءِ على المشكلاتِ بين الزوجَيْن.

وهي جملةٌ حالية، في محلِّ نصب حال، والتقدير: لِمَ تُحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لك مبتغياً إرضاءَ أزواجك؟!.

وختمَ الآيةَ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، لإيناسِ رسولِ الله ﷺ، وتخفيف وقعِ العتابِ عليه، وهذه الجملةُ تذكيرٌ بأَنَّ اللهَ غفورٌ رحيم، ودعوةُ الرسولِ ﷺ للاستغفارِ والتوبة.

وبعدَ العتاب امتنانٌ بتشريع الكفارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومعنى ﴿فَرَضَ﴾: عيَّنَ وحدَّدَ، ومعنى ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾: التحلُّل من اليمين، بدفعِ الكفارة.

وهذه الجملةُ تُقرِّرُ أنَّ الرسولَ ﷺ حَلَفَ يميناً أمامَ حفصة أَنْ لا يعودَ لشربِ العسلِ عند زينب، وحلفَ يميناً آخرَ أمامَها أَنْ لا يعودَ لوطءِ مارية. وتدعوه هذه الجملةُ إلى التحلُّلِ من اليمينَيْن بدفعِ كفارةٍ لكلٍّ منهما، لأنَّ اللهَ رحمَ المسلمين بتشريعِ الكفارة، كي لا يحنَثَ أَحَدُهم في يمينِه.

والراجحُ أنَّ الرسولَ ﷺ كَفَّرَ عن كلِّ يمينٍ حلَفَه، أَيْ أنّه دفعَ كفارَتَيْن.

ما جرى بين الرسول ﷺ وبين حفصة وعائشة:

بعد العتابِ والتشريع تلتفتُ الآياتُ إلى ما جرى بينَ الرسولِ ﷺ وزوجه حفصة، رضي الله عنها، قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

أَسَرَّ النبيُّ ﷺ كلاماً إلى حفصةَ رضي الله عنها، وهو حلْفُه أمامَها أَنْ لا يَعودَ إلى شربِ العسلِ عند زينب، وأَنْ لا يعودَ إلى وطءِ جاريتِه مارية، وطلبَ منها أَنْ لا تُخبرَ أَحداً بذلك.

ولكنَّ حفصةَ من شدةِ فرحِها نبَّأَتْ بذلك الحديث، وسارعَتْ لإخبارِ حليفتِها عائشة، وهي لم تقصدْ بذلك إفشاءَ سِرِّ رسولِ الله ﷺ، ولا مخالفتَه بإذاعةِ ما طلبَ منها كتمانَه وإخفاءَه، إنَّما قصدتْ تبشيرَ عائشةَ بالموضوعَيْن، ولا شكَّ أنها فعلتْ ما لا ينبغي، لأنَّ النبيَّ ﷺ طلبَ منها أَنْ لا تُخبرَ أَحداً.

ولما أَخبرَت عائشةَ بذلك، أَخبرَ اللهُ نبيَّه ﷺ بما فعلَتْ حفصة، وأظهرَه عليه، وهذا من عنايةِ اللهِ برسولِه ﷺ.

وكلَّمَ رسولُ الله ﷺ حفصة، وأَعلمَها بأنَّه علمَ أَنَّها أَفشَتْ السّرّ، ولم يذكرْ

لها تفاصيلَ الحادثة، واكتفى بالإشارةِ المجملة، كما قال تعالى: ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾.

وفي إعراضِ الرسولِ ﷺ عن تفاصيلِ الحادثة كَرَمٌ منه، وتعليمٌ لأُمَّتِه بعدمِ المعاتبة المفصَّلة، لأنَّها تضرُّ بالمودّة.

قال القاسمي: في الآيةِ أنَّه لا بأْسَ بإسرارِ بعضِ الحديثِ إلى مَنْ يُرْكَنُ إليه من زوجةٍ أو صديق، وأنه يلزمُه كتمانُه.. وفيها حُسنُ المعاشرةِ مع الزوجات، والتلطُّفُ في العتب، والإعراضِ عن استقصاءِ الذنب.

وحكى الزمخشريُّ عن سفيانَ الثوري قولَه: ما زالَ التَّغافُلُ من فعلِ الكِرام[1].

وقالَ الحسنُ: ما استقصى كريمٌ قطّ، وما زادَ على المقصودِ يَقلبُ العتابَ من عتابٍ إلى تقريع.

ولما نبأَ الرسولُ ﷺ حفصةَ استغربَتْ، وسأَلَتْه: مَنْ أنبأَكَ هذا؟.

إنّها لم تخبرْ إلاّ عائشة، وعائشةُ لا تنقلُ كلامَ حفصة، فمنْ أخبرَ الرسولَ ﷺ بذلك؟ ليس هناك إلاّ أَحَدُ احتمالَيْن: إمَّا عائشة أخطأَتْ فأَخبرتْه، وإمَّا أنَّ اللهَ هو الذي أخبرَه!.

وقد أجابَ الرسولُ ﷺ حفصةَ على سؤالِها قائلاً: ﴿ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾!.

وبذلك عرفَتْ حفصةُ زلَّتَها لإسراعِها بإخبارِ ما أَسَرَّ به إليها رسولُ الله ﷺ.

وهدَّدَ اللهُ الزوجتين حفصةَ وعائشة، وأَمرهما بالتوبةِ والاستغفار، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾.

والتهديدُ للزوجتيْن حفصةَ وعائشةَ لأنَّهما تحالَفَتا في التظاهرِ على الرسولِ ﷺ، باتّهامِه بأنَّه أكلَ مغافير عند زينب، ودَفَعَتاه إلى أَنْ يحلفَ على عدمِ العودةِ إلى أكلِه عندها.

(١) تفسير القاسمي: ١٦/ ٢٢٣.

يقولُ اللهُ لهما: الواجبُ عليكما التوبة والاستغفار، والندم على ما صدرَ منكما، فقد صغتْ قلوبُكُما ومالَت، ووقَعَتْ في المخالفة، وعليكُما تصحيحُ الميلِ والانحرافِ والخطأ بالتوبة، والعودةِ إلى الاستقامة.

وإنْ عدتُما إلى التـآمرِ ضدَّ الرسـولِ ﷺ والتظاهرِ عليه فإنَّ اللهَ معه، لنْ يتخلّى عنه، وهو مولاهُ وناصرُه، ومعه الملائكةُ وجبريلُ والمؤمنون الصالحون.

وما فعلَتْهُ حفصةُ وعائشةُ رضي الله عنهما في موضوعِ العسلِ والجارية، يَستدعي هذا التهديدَ الشديدَ من اللهِ لهما، وقد استفادتا من هذا التهديد، فسارَعَتا إلى التوبةِ والاستغفار، وموافقةِ الرسولِ ﷺ، وعدمِ التظاهرِ عليه.

توجيهُ تحريم الرسول ﷺ الحلال:

نتوقفُ الآن لتوجيهِ موقفِ الرسولِ ﷺ، واليمينِ الذي حَلَفَه، ونوعِ التحريمِ الذي حرَّمَه على نفسه، والذي عاتبَه اللهُ عليه بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

لقد حرَّم الرسولُ ﷺ على نفسه شيئاً أباحَهُ اللهُ له، فعاتبَه اللهُ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

وإذا كنا نعتقدُ أنَّ التحليلَ والتحريمَ لله وحده، وأنه لا يجوزُ لأيِّ إنسانٍ أَنْ يُحرِّمَ ما أحلَّ الله، فكيف حرَّمَ الرسولُ ﷺ ما أَحلَّ اللهُ له؟.

ذهبَ الزمخشريُّ إلى أنَّ هذا خطأٌ من الرسولِ ﷺ، لأنَّه تعدَّى بذلك على حكمِ الله! قالَ في الكشاف: «وكان هذا زلَّةً منه، لأنَّه ليسَ لأحدٍ أَنْ يُحرِّمَ ما أحلَّ الله، لأنَّ اللهَ إنَّما أَحَلَّ لحكمةٍ ومصلحةٍ عرفَها في إحلالِه، فإذا حَرَّمَ كان ذلك قلبَ المصلحةِ مفسدةً».

وكلامُ الزمخشريِّ خطأ، واتهامٌ للرسولِ ﷺ وافتراءٌ عليه، وهو مع ذكائِه ونبوغِه لم يفهمْ حقيقةَ تحريمِ الرسولِ ﷺ ما حَرَّمَ على نفسه، إضافةً إلى «رائحةِ التحليل الاعتزالي» التي تبدو من تحليلِـه، وزعْمِـه أنَّ اللهَ ما أَحـلَّ الحلالَ إلاَّ لمصلحـة، وأنَّـه يجبُ عليه التحليل، لأنَّـه يجبُ عليه فعلُ الصلاح، وهذه (شَنْشَنَةٌ) نعرفُها من المعتزلةِ في زعمِهم وجوبَ فعْلِ الصلاحِ وتركِ الفسادِ على الله! ومَنْ هو الذي يوجبُ ذلك على الله؟!.

معنيان للتحريم:

الأوَّل: تحريمٌ لغويٌّ عامّ، وهو بمعنى (الامتناع)، فإذا امتنعَ إنسانٌ عن فعْل شيء؛ قيل: حَرَّمَ هذا الشيءَ على نفسِه.

قال الإمامُ الراغب: «الحرامُ: الممنوعُ منه، إمَّا بتسخيرٍ إلـهي، وإمَّا بَشَرِيّ، وإمَّا بمنْعٍ قهريّ، وإمَّا بمنعٍ من جهةِ العقل، أَو من جهةِ الشرع، أَو من جهة مَنْ يُرتسمُ أَمْرُه»(١).

الثاني: تحريمٌ شرعيٌّ خاصّ؛ وهو أنْ يمتنعَ المسلمُ عن فعلِ شيء، لأنَّ اللهَ نهاه عنه، وهدَّدَه بالعذابِ إنْ فعلَه.

والامتناعُ عن فعلِ شيءٍ يُسمى تحريماً لغة، وهو لا يكونُ امتناعاً شرعيّاً إلا إذا حَرَّمَهُ الشرعُ وأَمَرَ بالامتناعِ عنه، أو زعمَ الممتنعُ عنه أنَّ الشرعَ حرَّمَه!.

وتحريمُ رسولِ الله ﷺ شربَ العسلِ على نفسه، وتحريمُه وطءَ جاريتِه من النوعِ الأوَّل، فهو تحريمٌ لغويّ قائمٌ على معنى امتناعِه من فعلِ الحلالِ المباح، وليسَ من التحريمِ الشرعي، كما زعمَ الزمخشريّ، لأنَّ الرسولَ ﷺ يوقنُ أنَّ التحريمَ الشرعيَّ حقٌّ لله، وأنَّه لا يجوزُ له تحريمُ شيءٍ تحريماً شرعياً أباحَه الله!.

ومن التحريمِ بمعناهُ العامِّ القائمِ على الامتناع: قولُه تعالى عن موسى عليه السلام وهو طفلٌ رضيع، التقطَهُ آلُ فرعون: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢].

والمعنى: أَمَرَ اللهُ شفتي الطفلِ الرضيع موسى أنْ تمتنعا عن قَبولِ ثَدْيِ أيّ امرأَةٍ مرضع، فإذا وضَعَتْ ثدْيَها في فمِه رفَضَه، بحثاً عن ثَدْيِ أُمِّه، وانتظاراً لعودتِه إليها، واعتبرت الآيةُ هذا الامتناعَ تحريماً، وهو امتناعٌ بالتسخير.

ومن هذا التحريم ما حَرَّمَهُ نبيُّ اللهِ إسرائيل ـ يعقوب ـ عليه السلام على نفسه، والذي أخبرَنا عنه قولُه تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

---

(١) المفردات، ص٢٢٩.

إنَّ يعقوبَ عليه السلام نبيّ، يعلمُ أنَّ التحليلَ والتحريمَ لله وحدَه، وهو لم يحرِّمْ على نفسِه شيئاً تحريماً شرعياً، وإنَّما حرَّمه تحريماً عاماً، أَي أنَّه امتنعَ عن تناولِه امتناعاً شخصياً.

جواز الامتناع عن بعض المباح:

الرسولُ ﷺ امتنعَ عن شربِ العسل، وعن معاشرةِ جاريتِه مارية، امتناعاً شخصياً، ليُرضي بذلك حفصة، وليسَ امتناعُه عن ذلك امتناعاً شرعياً، ولم يُحَرِّمْ بذلك على نفسِه ما أباحَه اللهُ له بالمفهومِ الشرعي، فهو يعتقدُ أنَّه ما زالَ مُباحاً له، ولكنَّه امتنعَ عن فعلِ ذلك المباح!.

وقد يمتنعُ أحدُنا عن بعضِ الحلالِ والمباح، لأنَّه لا رغبةَ له فيه، أَو لأنَّ نفسَه لا تَميلُ إليه، أو لأنَّه لا يحبُّه، فلا يُلامُ على ذلك، لأنَّه لا يجبُ على أحدِنا فعلُ الحلالِ المباح، وكثيرٌ من الناسِ لا يُحبُّون تناولَ بعضِ الأطعمة والأشربة، فلا يُقالُ: إنَّهم بذلك حرَّموا الحلالَ المباح، وإنه ينطبقُ عليهم قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾ [النحل: ١١٦].

واعتبرت الآيـةُ امتناعَ الرسولِ ﷺ عن ما امتنعَ عنه تحريماً، لأنَّه تحريمٌ بالمعنى العام، وهو الامتناعُ الشخصيُّ عن بعض ما أَباحَ اللهُ له.

السكندري يتعقب الزمخشري بسبب كلامه عن التحريم:

قالَ أحمدُ بن المنيِّر السكندري في اعتراضِه على الزمخشري، وبيانِ سوءِ فهمِه لتحريمِ رسولِ الله ﷺ ما حرَّمَ على نفسِه: «ما أَطلقَهُ الزمخشريُّ في حقِّ النبيِّ ﷺ تقوُّلٌ وافتراء، والنبيُّ ﷺ منه بَراء.

وذلك أنَّ تحريمَ ما أحلَّهُ اللهُ على وجهيْن:

الأول: اعتقادُ ثبوتِ حكمِ التحريم فيه، فهذا بمثابةِ اعتقادِ حكمِ التحليلِ فيما حرَّمَه الله، وهذا محظورٌ لا يَصدرُ من المتّسمين بسمةِ الإيمان، وإن صدرَ منه، سلبَه حكمَ الإيمانِ واسْمَه!.

الثاني: الامتناعُ مما أحلَّهُ اللهُ عزَّ وجلّ، وحمْلُ التحريمِ عليه صحيح،

لقوله تعالى: ﴿ ۞وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص: ١٢]. أي: منعْنا عليه المراضع.

وقد يكونُ مؤكَّداً باليمين، مع اعتقادِ حلِّه، وهذا مباحٌ صرف، وحلالٌ محض.

وإذا علمْتَ بونَ ما بينَ القسميْن، فعلى القسمِ الثاني تُحملُ الآية، والتفسيرُ الصحيحُ يعضدُه، فإنَّ النبيَّ ﷺ حَلَفَ بالله لا يقربُ مارية، ولما نزلت الآيةُ كَفَّرَ عن يمينه...

... والزمخشريُّ لم يحمل هذا التحريمَ على هذا الوجه، لأنَّه جعلَه زلَّة، فيلزمُه أنْ يَحملَه على المحملِ الأول، ومعاذَ اللهِ وحاشى لله، وإنَّ آحادَ المؤمنين يُحاشي عن أَنْ يعتقدَ تحريمَ ما أحلَّ اللهُ له، فكيف لا يربأُ بمنصبِ النبيِّ ﷺ عما يرتفعُ عنه منصبُ عامَّةِ الأُمَّة؟.

وما هذه من الزمخشري إلاَّ جراءةٌ على اللهِ ورسولِه، وإطلاقُ القولِ من غيرِ تحرير، وإبرازُ الرأْي الفاسد من غير تخمير...»[1].

جواز حلف اليمين لترك المباح:

إذن امتناعُ الرسولِ ﷺ عن فعْلِ بعضِ المباحِ لا شيءَ فيه، وتحريمُه ذلك المباح عليه تحريماً شخصياً غيرَ شرعي لا شيءَ فيه أيضاً.

وقد حلفَ يميناً بالامتناع عن شربِ العسلِ ووطءِ مارية، وهذا أيضاً لا شيءَ فيه، لأنَّه قد يحلفُ أيُّ مسلمٍ عن فعْلِ أَيِّ شيءٍ مباح، ولا يكونُ في يمينِه آثماً أو مخطئاً، ويمكنُ أَنْ يُمضيَ يمينَه، ويتوقَّفَ عن فِعْلِ ما حلَفَ عليه، ويمكنُ أَنْ يتحلَّلَ من يمينِه، ويفعلَ ما حلفَ عليه، لكنْ عليه أَنْ يدفعَ كفارةَ اليمين، ولهذا قالَ تعالى: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾.

الرسول ﷺ يكفِّر عن يمين أخرى:

وقد وقعَتْ حادثةٌ أُخرى، حلفَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ، ثم تراجَعَ عن يمينِه، وفَعَلَ ما حلفَ عليه، وأَخرجَ الكفَّارة.

---

(١) حاشية الانتصاف على تفسير الكشاف، لابن المنير: ٤/ ٥٦٢.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: «أتيتُ رسولَ الله ﷺ في رهطٍ من الأشعريّين نستحملُه.

فقالَ: واللهِ لا أَحملُكم، وما عندي ما أَحملُكم عليه!!.

فلبثْنا ما شاءَ الله، فأُتِيَ رسولُ الله ﷺ بإِبلٍ، فدعا بنا، فأَمَرَ لنا بخمسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى!.

فلما انطلَقْنا، قالَ بعضُنا لبعض: أَغفلْنا رسولَ الله ﷺ يمينَه، لا يباركُ لَنا.

فرجعْنا إليه، فقلْنا: يارسولَ الله! إنّا أتيناكَ نستحملُك، وإنَّك حلفْتَ أنْ لا تحملَنا، ثم حملْتَنا، أفنسيتَ يا رسولَ الله؟.

فقال: إنّي والله، إنْ شاءَ الله، لا أَحلِفُ على يمين، فأَرى غيرَها خيراً منها، إلا أَتيتُ الذي هو خير، وتحلَّلْتُها.. فانطلِقوا فإنّما حملكم الله عزَّ وجلّ»[1].

حلفَ رسولُ الله ﷺ أَنْ لا يَحمِلَ الأشعريّين على الخيل أو الإبل، أثناءَ استعدادِه للخروجِ إلى غزوةِ تبوك، لأنَّه لا يجدُ الدوابَّ التي يحملُهم عليها، وكان في حالةِ غضب.

وبعدَ ذلك زالَ غضبُه، وقُدِّمَتْ له إبل، فدعاهم وأَعطاهُم خمسةً منها، فذكَّروهُ باليمينِ الذي حلفَه، فأخبرَهم أنَّه لم يَنْسَ يمينَه، وأنَّه سيكفِّرُ عنها، وذكَرَ قاعدةً عامَّةً مطردةً في ذلك، وهي أنَّه إذا حلفَ على يمين، ثم رأى غيرَها خيراً منها، فإنَّه يتحلَّلُ من اليمين بالكفّارة، ويفعلُ الذي هو خير.

ودعا الأُمَّةَ إلى الالتزام بهذه القاعدة، فقد روى مسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ على يمين، فرأى غيرَها خيراً منها، فلْيأْتِها، ولْيُكفِّرْ عن يمينِه»[2].

---

(١) صحيح البخاريّ، كتاب الأيمان والنذور، باب ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾، حديث رقم: ٦٦٢٣؛ وصحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب ندب مَن حلف يميناً، حديث رقم: ١٦٤٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب ندب مَن حلف يميناً، حديث رقم: ١٦٥٠.

لم يخطئ الرسول ﷺ في يمينه وامتناعه:

وبما أنَّه يحقُّ للمسلم أنْ يمتنعَ عن فعلِ بعضِ المباحِ، فإنَّه لا يكونُ آثماً إذا فعلَ ذلك، ولا مخطئاً إذا حلَفَ على ذلك، كلُّ ما هناك أنَّه إذا رأى فعْلَ الذي حلفَ عليه هو الخير والأفضل، فعليهِ أنْ يفعلَ الذي هو خير، وأنْ يكفِّرَ عن يمينِه.

وإذا كان هذا في حقِّ المسلم، فإنَّه ينطبقُ على رسولِ الله ﷺ.

إذن: لم يكنْ رسولُ اللهِ ﷺ مُذنباً ولا مُخطئاً عندما حلفَ يميناً أَنْ لا يطأَ جاريتَه وأنْ لا يأكلَ العسل، ولم يكن مذنباً ولا مُخطئاً عندما فعلَ ذلك ابتغاءَ مرضاةِ زوجِه حفصةَ رضي الله عنها، لأنَّه امتنعَ عن فعلِ بعض المباح، وحلفَ على ذلك.

وبما أنَّ التوقُّفَ عن إمضاءِ يمينه هو خير، فقد أرشدَه اللهُ إلى ذلك، ودعاه إلى التحلُّلِ من يمينِه بالكفارة، وفعْلِ ما حلفَ عليه، فقال له: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾.

وقد كفَّرَ رسولُ الله ﷺ عن يمينَيْه اللذين حلَفَهما، وعادَ إلى شربِ العسل عند زينب، وعاد إلى معاشرةِ جاريتِه.

عتاب الله له لإرشادِه إلى الأَوْلى:

بقي أن نقول: إذا لم يكن رسولُ الله ﷺ مُذْنِباً ولا مُخطئاً فيما حلَفَ عليه وحَرَّمَه على نفسه بامتناعِه عنه، فلماذا عاتبَه اللهُ في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾؟.

إنَّ عتابَ اللهِ لرسولِه ﷺ لا يَعني أنَّه وقعَ في ذنبٍ أو زلةٍ أو خطأ، إنما يعني أنَّ اللهَ يُرشدُه إلى ما هو أَولى وأَفضل، فما فعلَه ﷺ جائز، لكنْ كان الأَوْلَى والأفضَلُ له هو أَنْ لا يفعله، كان الأفضلُ أَنْ لا يحلفَ على ما حلفَ عليه، واللهُ يريدُ لرسولِه ﷺ دائماً ما هو أَولى وأكمل، ولذلك عاتبَه هذا العتابَ الرقيق، الذي وَعاهُ رسولُ الله ﷺ حَقَّ الوعْي[1].

* * *

---

(١) انظر التفاسير التالية: تفسير الطبري: ٢٨/ ١٧٤ ـ ١٨٤؛ وتفسير ابن كثير: ٥/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧؛ وتفسير القاسمي: ١٦/ ٢١٢ ـ ٢٢٤؛ والظلال: ٦/ ٣٦١٢ ـ ٣٦١٥.

الفصل الثالث عشر

عتاب رسول الله ﷺ
بشأن عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه

أجمعَ المفسِّرونَ والإخباريُّون على أنَّ مطلعَ سورة (عبس) نزلَ عتاباً من اللهِ لرسولِه ﷺ لموقفِه من الصحابيِّ عبدِ الله بن أمِّ مكتوم رضي الله عنه.

ومطلعُ السورةِ النازلُ في تلك الحادثة هو قولُه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١ ـ ١٦].

روايات الحادثة مع ابن أم مكتوم:

خلاصة ما روي عن حادثة ابنِ أُمِّ مكتوم:

١ ـ روى الإمامُ الطبريُّ بإسنادِه عن عائشةَ رضي اللهُ عنها قالت: «أُنزلَ قولُه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابنِ أمِّ مكتوم الأعمى، أتى النبيَّ ﷺ، وجعلَ يقول: يا رسولَ الله أَرشِدني، وعندَ رسولِ الله ﷺ رجلٌ من عُظماءِ المشركين، فجعلَ النبيُّ ﷺ يُعرضُ عنه، ويُقبلُ على الآخر، ويقول: أترى بما أقولُ بأساً؟ فيقول: لا. ففي هذا أُنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾»(١).

٢ ـ وقال الضحّاك: «لقيَ رسولُ الله ﷺ رجلاً من أشرافِ قريش، فدعاهُ إلى الإسلام، فأَتاهُ عبدُ اللهِ بنُ أُمِّ مكتوم، فجعلَ يسألُه عن أشياءَ من أَمْرِ الإسلام،

---

(١) تفسير الطبري، طبعة إحياء التراث العربي: ٣٠/ ٦٤؛ وأسباب النزول، للواحدي، ص٢٥٤؛ والدر المنثور، للسيوطي: ٨/ ٤١٦؛ وصحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي، ص١١٦. أخرجه الترمذي برقم: ٣٣٣١، وقال: حديث حسن غريب.

فعبَسَ في وجهه، فعاتبهُ اللهُ في ذلك، فلما نزلَتْ هذه الآية دعا رسولُ الله ﷺ ابنَ أُمِّ مكتوم فأكرمَه، واستخلفَه على المدينة مرّتين[1].

٣ ـ وحدَّدَ قتادةُ اسمَ الرجلِ المشرك فقال: جاءَ عبدُ اللهِ بنُ أُمِّ مكتوم إلى النبيِّ ﷺ وهو يكلِّمُ أُبيَّ بنَ خلَف، فأَعرضَ عنه، فأَنزلَ اللهُ عليه قولَه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فكانَ النبيُّ ﷺ بعدَ ذلك يكرمُه[2].

٤ ـ وفي بعضِ الرواياتِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يكلِّمُ مجموعةً من زعماءِ المشركين طمعاً في إسلامِهم.

فروى ابنُ المنذرِ وابنُ مردويه عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ في مجلسٍ فيه ناسٌ من وجوهِ قريش، منهم أبو جهل بن هشام وعتبةُ بن ربيعة، وهو يقولُ لهم: أليسَ حسناً أَنْ جئتُ بكذا وكذا؟ فيقولون: بلى والله. فجاءَ ابنُ أُمِّ مكتوم وهو مشتغلٌ بهم، فسألَه، فأَعرَضَ عنه، فأنزلَ اللهُ قولَه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾[3].

٥ ـ وقال الواحديُّ في (أسباب النزول): «أتى عبدُ اللهِ بن أُمِّ مكتوم النبيَّ ﷺ، وهو يناجي عتبةَ بنَ ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباسَ بنَ عبد المطلب، وأُبيَّ بن خلف، وأُميّةَ بن خلف، ويَدعوهم إلى الله تعالى، ويرجو إسلامهم، فقالَ لهُ ابنُ أُمِّ مكتوم: يا رسولَ الله! علِّمْني مما علَّمَكَ الله، وجعلَ يُناديه، ويكررُ النداء، ولا يدري أنّه مشتغلٌ مقبلٌ على غيره، حتى ظهرت الكراهيةُ في وجهِ رسولِ الله ﷺ لقَطْعِه كلامَه، فعَبَسَ رسولُ اللهِ ﷺ وأَعرضَ عنه، وأَقبلَ على القومِ الذين يكلِّمُهم، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيات!.

وكانَ رسولُ الله ﷺ بعد ذلك يكرمُه، وإذا رآهُ يقول: مرحباً بمَنْ عاتَبَني فيه ربي[4].

---

(١) تفسير الطبري: ٣٠/ ٦٥؛ والدر المنثور: ٨/ ٤١٧.
(٢) تفسير الطبري: ٣٠/ ٦٥.
(٣) الدر المنثور: ٨/ ٤١٦.
(٤) أسباب النزول، للواحدي، ص٢٥٤.

الجو الذي أعرض فيه ﷺ عن ابن أمِّ مكتوم:

بعد الاطلاع على الرواياتِ السابقة في نزولِ الآيات يمكنُ تصوُّرُ الحادثةِ كما يلي:

كانَ رسولُ الله ﷺ جالساً مع رجلٍ من زعماءِ قريش الكافرين، ينصحُه ويدعُوهُ إلى الإسلام، ويبدو أنّه وجدَ عندَه رغبةً في الاستماع، فزادَ نشاطاً في دعوتِه، وتفاعُلاً في الحديثِ معه، وهو طامعٌ في إسلامه!.

وفي هذه اللحظةِ دخلَ عليه عبدُ اللهِ بنُ أُمِّ مكتوم رضي الله عنه، وكان قد أسلمَ قبلَ فترة، فجاءَه راغباً في التعلُّمِ والاستفادة، وبما أنَّه أعمى فإنَّه لم يلاحظ انشغالَ رسولِ الله ﷺ في دعوةِ الرجلِ المشرك، ولعلَّهُ ظنَّه وحيداً، أو جالساً مع أصحابه، ولذلك طلبَ من رسولِ الله ﷺ أنْ يُعَلِّمَه، وقالَ له: أَرشدْني وعلِّمْني مما علَّمَك الله.

ولكنَّه جاءَ في وقتٍ غيرِ مناسبٍ، ولذلك كرهَ رسولُ اللهِ ﷺ مجيئَه، كما كرهَ سؤالَه، وعَبَسَ في وجهه، وأعرضَ عنه، ولكنَّه لم يَنْهَرْه أو يردَّه، واستمرَّ في حديثِه مع الرجلِ المشرك.

وفهمَ ابنُ أُمِّ مكتوم رضيَ اللهُ عنه أنَّه غيرُ مرغوبٍ فيه في هذه اللحظة، فغادرَ المكان، ولكنَّ الرجلَ المشركَ لم يُسلم.

وأنزلَ الله على رسولِه ﷺ مطلعَ سورةِ (عبس)، وعاتبَه لعبوسِه في وجهِ ابنِ أُمِّ مكتوم وإعراضِه عنه.

المعنى الإجمالي للآيات:

المعنى الإجمالي للآياتِ النازلةِ في الحادثة هو: أَخبرَ اللهُ أنَّ الرسولَ ﷺ عبسَ وتولّى، لأنَّه جاءَه الأعمى ابنُ أمّ مكتوم، ثم خاطبَه اللهُ بقوله: ما يدريك لعلَّ هذا الأعمى المؤمنَ الذي جاءكَ يتزكّى ويتعلّم ويستفيدُ منك، عندما جاءَكَ مسترشِداً متعلِّماً. أما الكافرُ الذي استَغْنى عنك ورفَضَ دعوتَك، فأنتَ تتصدّى له، وتعرضُ نفسَكَ عليه، مع أنه معرضٌ عنك، وما عليك أَنْ لا يتزكّى ولا يستجيبَ لك، فإنَّه لا يضرُّك بذلك، وإنما يضرُّ نفسَه، وأنتَ في الوقتِ الذي

تَصدَّيتَ فيه للكافر، وأقبلتَ عليه، واهتممتَ به، كنتَ تتلهَّى عن المؤمن الذي جاءك يسعى، وهو يخشى عذاب الله، ويرجو رحمتَه وجنّته.

وبعدَ عرضِ مجملِ الحادثةِ يأتي حرفُ الردع (كلا)، يوجّهه اللهُ لنبيّه محمد ﷺ، مبالغةً في عتابه، وهي المرةُ الوحيدةُ التي يقولُ له فيها (كلا) في القرآن. أيْ: كلا، لا تفعلْ ذلك، ولا تُعرضْ عن المؤمن الأعمى، وتتصدّى للكافر المستغني.

وبعدما ردعَه معاتباً بكلمةِ (كلا)، بيّنَ له طبيعةَ الدعوةِ وعزّتَها، فقال له: إنَّ دعوتَكَ تذكرة، تقدّمُها أنت للناس، ليتذكَّروا ويتّعظوا، وهذا هو الواجبُ عليك، ولا يجبُ عليك قذفُ الإيمانِ والاستجابةِ في قلوبِهم، فالذي يستجيبُ لك ويؤمنُ ويذكرُ الله، يكون مفلحاً فائزاً، والذي يرفضُ دعوتَك يكون خاسراً.

وهذه الدعـوةُ عزيزةٌ كريمـة، في صحفٍ مكرَّمة، مرفوعةٍ مطهَّرة، عند الملائكة، الذين جعلَهم اللهُ سفراءَ بينه وبين رسله من البشر، وجعلَهم أبـراراً أطهاراً كرماء.

وتلقّى رسولُ الله ﷺ هذا التوجيه من ربّه، وما فيه من عتابٍ وإرشاد، ووعى هذا الدرس جيداً.

وكان يكرمُ عبدَ اللهِ بن أُم مكتوم رضي الله عنه، ويقولُ له مُرَحِّباً مُحَيِّياً مُداعِباً: أهلاً بمنْ عاتَبَني فيه ربّي!.

وتبليغُ رسولِ الله ﷺ هذه الآياتِ التي عاتَبَه اللهُ فيها، وقال له: ﴿كلا﴾؛ يدلُّ على أنَّ هذا القرآنَ من عندِ الله، وليس من تأليفه هو، فلو كانَ من تأليفِه لما سَجَّلَ على نفسِه أنه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾.

قـالَ ابنُ زيد: لـو أنَّ رسـولَ الله ﷺ كَتَمَ شـيئاً من الوحي، لكتمَ هـذه الآيات[1].

لم يخطئ رسول الله ﷺ مع ابن أُمّ مكتوم:

بعد تحليلِ الحادثةِ وتفسيرِ آياتِها ننظرُ في توجيهها، فنتساءل: هل أخطأ

---

(١) الدر المنثور: ٨/ ٤١٧.

رسولُ الله ﷺ في ما فعل؟!.

الجوابُ بالنفي، فلم يخطئ ﷺ ولم يُذنِبْ، وتصرُّفُه صحيح، وهو لم يَزِدْ على أنْ عبسَ في وجهِ ابنِ أُمِّ مكتوم رضي الله عنه، وتولّى وأعرضَ عنه، واستمرَّ في إقبالِه على جليسِه الكافر وعرضِ الدعوةِ عليه.

لو قسا على ابنِ أُمِّ مكتوم وعنَّفَه يكون مخطئاً، كأَنْ يقولَ له: لماذا جئتَ الآن؟ أما تَراني مشغولاً مع هذا؟ اخرجْ من هنا وسأُعلمُكَ في ما بعد!.

إنَّ الرسولَ ﷺ كلُّه ذوقٌ وأدبٌ ورحمة، فلم يُؤْذِ ابنَ أُمِّ مكتومَ رضي الله عنه، وما زادَ على أَنْ عبسَ في وجهه، وهو الأعمى الذي لم يَرَ عُبوسَ النبيِّ ﷺ وتقطيبَ جبينِه! وقد أدركَ ابنُ أُم مكتوم أنَّه جاءَ في وقتٍ غير مناسب، وفهم سكوتَ النبيِّ ﷺ، وهو الذكيُّ اللَّمّاح، فغادرَ المكان.

توجيه موقف النبي ﷺ:

لماذا لم يخطئ رسولُ الله ﷺ فيما فعل؟.

إنَّ عبدَ اللهِ بنَ أم مكتوم رضي الله عنه مؤمن، وتعليمُه ميسورٌ في أيِّ وقت! والرسولُ ﷺ حريصٌ على إيمان الكافرين، وتقديمِ الدعوةِ لهم، وإذا كان أحدُهم سيداً زعيماً في قومِه يَزدادُ حرصُ رسولِ الله ﷺ على دعوتِه طمعاً في إيمانِه، لأنَّه ينتجُ عن إيمانِه إيمانُ كثيرٍ من قومِه.

فهدفُ رسولِ الله ﷺ في إقبالِه على ذلك الزعيم الكافر هدفٌ دعويّ، وهو طيبٌ جيد، لا خطأ فيه! وقد كان ﷺ مستمرّاً في دعوةِ الكفار، واستخدامِ أفضلِ الأساليبِ وأنسب الأوقاتِ لذلك، ويدعو الواحدَ منهم أكثرَ من مرة، من دونِ ملل أو فتور.

وبينما كان منصرِفاً إلى دعوةِ ذلك الزعيم الكافر، جاءَ ابنُ أُمّ مكتوم متعلِّماً وهو أعمى لا يرى النبيَّ ﷺ، وانهماكَهُ في الدعوة، ولو كان مبصراً لما طلبَ من رسولِ الله ﷺ ذلك الطلب.

وعلمَ الرسولُ ﷺ أنَّ ابنَ أُمِّ مكتوم رضي الله عنه جاءَ في وقتٍ غيرِ مناسب، وهو مستعدٌّ لنصحِه وإرشادِه وتعليمه، لكن ليس الآن، وماذا على ابنِ أمِّ مكتوم

لو أَجَّلَ تعلُّمَه قليلاً، حتى يفرغَ من حديثِه مع ذلك الرجلِ الكافر، الذي قد يُفضي إلى إسلامِه؟.

وأدركَ رسولُ الله ﷺ أنَّ عليه أَنْ يستمرَّ في دعوةِ ذلك الرجل، لا سيما أنَّه وجدَ عنده توجُّهاً للاستماع، ولذلك كان يقولُ له: هل ترى في ما أقولُ لك بأساً؟ فيجيبه: لا.

وبما أنَّ تأجيلَ تعليمِ ابنِ أُمِّ مكتوم ممكن، فقد أَعرضَ رسولُ الله ﷺ عنه، وهذا الإعراضُ والتولّي ليس احتقاراً له، وإنَّما تأجيلُ تعليمه، وليس في هذا التولّي خطأٌ من رسولِ الله ﷺ.

وبما أنَّه قَطَعَ عليه كلامَه مع الرجلِ الكافر فقد عبسَ رسولُ الله ﷺ منكراً عليه مجيئَه وكلامَه ومقاطعتَه، وهو إنكارٌ سكوتيٌّ لا ينتجُ عنه إيذاءٌ لابنِ أم مكتوم، وهو أعمى لا يرى عبوسَ النبيّ ﷺ، ولذلك لم يكن في عبوسِ الرسولِ ﷺ خطأٌ أيضاً.

أي: أنَّ ما فعلَه رسولُ الله ﷺ مع ابنِ أُمِّ مكتوم من عبوسٍ وإعراضٍ صوابٌ لا خطأَ فيه، بعد معرفتِنا الأجواءَ التي حصلَ فيها ذلك، ولو كانَ أَحَدُنا مكانَه لفعلَ مثل ما فعل، ولا يُعتبرُ أَحَدُنا مخطئاً في فعلِه!.

توجيه عتاب الله للرسول ﷺ:

وإذا لم يكن الرسولُ ﷺ مخطئاً في موقفِه من ابنِ أُمِّ مكتوم رضي الله عنه فلماذا لامَه الله، وعاتبَه عتاباً شديداً في الآيات التي أنزلها عليه؟.

لقد كانَ عتابُه في آياتِ السورةِ شديداً، ومِنْ ألفاظِ الإنكارِ والعتابِ في الآيات: الإخبارُ في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾. والإنكارُ على رسولِ الله ﷺ في خطابه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾. ووصْفُ رسولِ الله ﷺ بأنَّه يتصدَّى للكافرِ المستغني تصدّياً، وذلك في قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾. ووصْفُ رسولِ الله ﷺ بأنَّه يتلهَّى عن الصحابيّ ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾. وخَتْمُ العتابِ بالكلمةِ الرادعةِ الشديدة: ﴿كَلَّآ﴾.

لقد عاتبَ اللهُ رسولَه ﷺ لأنَّه يريدُ منه أنْ يفعلَ ما هو أفضل وأَوْلى.

أَيْ: لقد كان تصرُّفُ رسولِ الله ﷺ صحيحاً وصواباً، وهو لم يُخطئ أو يُذنب به، ولكن كانَ الأصحُّ والأصوبُ والأفضلُ والأولى أَنْ لا يعبسَ في وجهِ ابن أم مكتوم، ولا يُعرضَ عنه!.

كان الأَوْلى والأفضلُ أنْ يقطعَ كلامَه مع الرجلِ الكافر، وأَنْ يُقبلَ على ابنِ أم مكتوم، وأَن يُجيبَه على سؤالِه، ويُجلسَه بجانبِه، ويعلِّمَه مما علَّمَه الله.

كان هذا هو الأفضلَ للرسول ﷺ، وللدعوةِ التي يحملُها، ليكونَ تصرُّفُه قدوةً للدعاةِ من بعده[1].

واللهُ يريدُ لرسولِه ﷺ التصرفَ الأفضلَ والأَوْلى، وأنْ لا يكتفي بالتصرُّفِ الصحيحِ الصواب.

والخلاصة: أنَّ اللهَ عاتبَ رسولَه ﷺ لا لخطأ وقعَ فيه، ولكن لإرشادِه إلى ما هو أفضلُ وأَولى، فما فعلَه ﷺ في تصرُّفِه مع ابنِ أُمِّ مكتوم صحيحٌ وجائز، ولكنَّه تركَ الأصح، فدعاهُ اللهُ إلى ذلك الأصحّ.

* * *

---

(١) انظر التحليل الرائع الذي قدّمه سيد قطب للحادثة في الظلال: ٦/ ٣٨٢٢ ـ ٣٨٣٠.

المـــراجع

١ ـ أسباب النزول، للواحدي النيسابوري.

٢ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني.

٣ ـ أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي.

٤ ـ البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي.

٥ ـ التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور.

٦ ـ تفسير القرآن، لابن أبي حاتم الرازي.

٧ ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي.

٨ ـ جامع البيان في تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري.

٩ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي.

١٠ ـ دلائل النبوة، للبيهقي.

١١ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية.

١٢ ـ زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، للدكتور زاهر عواض الألمعي.

١٣ ـ سنن أبي داود.

١٤ ـ سنن الترمذي.

١٥ ـ سنن ابن ماجه.

١٦ ـ السيرة النبوية، لابن هشام.

١٧ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض.

١٨ ـ صحيح البخاري.

١٩ ـ صحيح مسلم.

٢٠ ـ صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي.
٢١ ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب.
٢٢ ـ الكشاف، للزمخشري.
٢٣ ـ محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي.
٢٤ ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في القاهرة.
٢٥ ـ مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني.

* * *

الفهرس

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث

أمر الرسول ﷺ بالبقاء مع المؤمنين المستضعفين

الفصل الرابع

عتاب الرسول ﷺ بشأن أسرى بدر

الفصل الخامس

إذن الرسول ﷺ للمتخلفين عن تبوك

الفصل السادس

صلاة رسول الله ﷺ على زعيم المنافقين

الفصل السابع

ثبات الرسول ﷺ أمام مساومات الكفار

الفصل الثامن

نسيان الرسول ﷺ قول إن شاء الله

الفصل التاسع

إلقاء الشيطان في أمنية الرسول ﷺ

الفصل العاشر

زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها

الفصل الحادي عشر

الرسول ﷺ يعتزل نساءه ويخيّرهن

الفصل الثاني عشر

ما الذي حرَّمه الرسول ﷺ على نفسه لمرضاة أزواجه؟

الفصل الثالث عشر

عتاب رسول الله ﷺ بشأن عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه

* * *